المبحث الثاني
الدروس والعبر المستفادة من غزوة بني المُصْطَلِقِ (المُرَيْسِيعِ)
المطلب الأول
الدروس العقائدية

١ ـ المنافقون في عهد الرسول ﷺ:

يقول د/ الزيد: «بمناسبة هذه الحادثة من المنافقين أود أن أقف الوقفات السريعة التالية عن المنافقين في عهد الرسول ﷺ:

(١) إنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية؛ لأن مكة لم يكن فيها نفاق بل كان خلافه، فقد كان من الناس من يُظهر الكفر مستكرهًا، وهو في الباطن مؤمن. [ينظر: تفسير القرآن لابن كثير ١/ ٤٧، ومنهاج السنة لابن تيمية ٨/ ٤٧٦، وقارن بوجهة نظر أخرى للدكتور عبد العزيز الحميدي في كتابه (المنافقون في القرآن) ص ١٠٠].

(٢) أن النفاق علامة من علامات قوة هذا الدين فنفاقهم نتيجة خشيتهم قوة المسلمين وعند ضعف المسلمين يُجاهر كلٌّ بمبدئه وعقيدته.

(٣) ولذلك فأول منشأ النفاق في المدينة بعد غزوة بدر وانتصار المسلمين الكبير على المشركين.

[ينظر: النفاق لعبد الرحمن الدوسري ص ٥ (المقدمة)].

(٤) أن المنافقين أخطر صنف على المسلمين [المرجع السابق ص ٧١]؛ لأن المسلمين لا يؤتون في معظم ما يصيبهم من الشر إلا من قبل المنافقين.

(٥) تاريخ المنافقين في عهد الرسول ﷺ شاهد على تآمرهم مع اليهود ومع مشركي مكة على حرب المسلمين ومحاولة القضاء عليهم. [ينظر: سيرة الرسول ﷺ لمحمد عزة دروزة ٢/ ٧٦ و ٨٩].

(٦) الحديث عن المنافقين في القرآن الكريم ورد في سبع عشرة سورة من السور المدنية البالغ عددها ثلاثين سورة تقريبًا.

(٧) أن المنافقين دائمو القلق والخوف، قلوبهم خالية من الإخلاص، أعمالهم تنطوي على نية خبيثة كلما هتف امرؤ ظنوا أنه يهتف ضدهم، يقول الله تعالى عنهم: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ ثم أعقبها بكلمة مهمة تعريهم، قال تعالى: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقين].

[ينظر: النفاق لعبد الرحمن الدوسري ص ٩٣].

(٨) وصفهم ابن القيم رحمه الله في كتابه مدارج السالكين فقال:

(أ) لكل منه وجهان وجه يلقى به المؤمنين ووجه ينقلب به إلى إخوانه الملحدين، وله لسانان أحدهما

يقبله بظاهره المسلمون، والآخر يترجم لـه عـن سره المكنـون: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[البقرة].

(ب) يتربصون الدوائر بأهل السنة والقرآن، فإن كان لهم فتح من الله قالوا: ألم نكن معكم؟ وأقسموا على ذلك بالله جهد أيمانهم، وإن كان لأعداء الكتاب والسنة من النصرة نصيب قالوا: ألم تعلموا أن عقد الإخاء بيننا محكم، وأن النسب بيننا قريب، فيا من يريد معرفتهم خذ صفاتهم من كلام رب العالمين فلا تحتاج بعده دليلًا: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾[النساء]. [مدارج السالكين لابن القيم ١/ ٢٥٠، تحقيق محمد حامد الفقي].

(٩) نلحظ اهتمام القرآن الكريم بذكر أوصاف المنافقين والإعراض عن أسمائهم، وفي هذا إشـارة خفية إلى أن هذا النوع من البشر يتجدد وجوده ويتسمى بأسماء مختلفة، فأراد من عدم ذكر الأسماء أن يلفت نظر الناس إلى الخصائص المميزة لهم مع غض الطرف عن أسمائهم ومحدداتهم.

[ينظر: فصول في التفكير الموضوعي لعبد الكريم بكارص ٧٢].

(١٠) أن المنافقين كما هذه هي أوصافهم الدنيئة في الدنيا فلهم أيضًا الدرك الأسفل من النار يـوم القيامة قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ [النساء].

[فقه السيرة للزيد ٤٨٠-٤٨٢].

٢ ـ توجيه القرآن الكريم للمجتمع الإسلامي في أعقاب غزوة بني المصطلق:

يقول صاحب الظلال: «هذه السورة التي تحمل هذا الاسم الخاص «المنافقون» الـدال عـلى موضـوعها، ليست هي السورة الوحيدة التي فيها ذكر النفاق والمنافقين، ووصف أحـوالهم ومكائـدهم، فـلا تكـاد تخلـو سورة مدنية من ذكر المنافقين تلميحًا أو تصريحًا، ولكن هذه السورة تكاد تكون مقصـورة عـلى الحـديث عـن المنافقين، والإشارة إلى بعض الحوادث والأقوال التي وقعت منهم ورويت عنهم.

وهي تتضمن حملة عنيفة على أخلاق المنافقين وأكاذيبهم ودسائسهم ومناوراتهم، وما في نفوسـهم مـن البغض والكيد للمسلمين، ومن اللؤم والجبن وانطماس البصائر والقلوب.

وليس في السورة عدا هذا إلا لفتة في نهايتها إلى الذين آمنوا لتحذيرهم من كل ما يلصق بهم مـن صـفة من صفات المنافقين، ولو من بعيد، وأدنى درجات النفاق عـدم التجـرد لله، والغفلـة عـن ذكـره اشـتغالًا بالأموال والأولاد، والتقاعس عن البذل في سبيل الله حتى يأتي اليوم الذي لا ينفع فيه البذل والصدقات.

وحركة النفاق التي بدأت بدخول الإسلام المدينة، واستمرت إلى قـرب وفـاة رسـول الله ﷺ ولم تنقطع في أي وقت تقريبًا، وإن تغيرت مظاهرها ووسائلها بين الحين والحين، هـذه الحركـة ذات أثـر

واضح في سيرة هذه الفترة التاريخية وفي أحداثها، وقد شغلت من جهد المسلمين ووقتهم وطاقتهم قدرًا كبيرًا، وورد ذكرها في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف مرات كثيرة تدل على ضخامة هذه الحركة، وأثرها البالغ في حياة الدعوة في ذلك الحين.

وقد ورد عن هذه الحركة فصل جيد في كتاب: «سيرة الرسول: صورة مقتبسة من القرآن الكريم» لمؤلفه الأستاذ محمد عزة دروزة، نقتطف منه فقرات كاشفة: «وعلة ظهور تلك الحركة في المدينة واضحة، فالنبي ﷺ والمسلمون الأولون في مكة لم يكونوا من القوة والنفوذ في حالة تستدعي وجود فئة من الناس ترهبهم أو ترجو خيرهم، فتتملقهم وتتزلف إليهم في الظاهر، وتتآمر عليهم وتكيد لهم وتمكر بهم في الخفاء، كما كان شأن المنافقين بوجه عام، ولقد كان أهل مكة وزعماؤها خاصة يناوؤون النبي ﷺ جهارًا، ويتناولون من استطاعوا من المسلمين بالأذى الشديد، ويقاومون الدعوة بكل وسيلة دون ما تحرز أو تحفظ، وكانت القوة لهم حتى اضطر المسلمون إلى الهجرة فرارًا بدينهم ودمهم إلى الحبشة أولًا، ثم إلى يثرب، وحتى فُتن بعضهم عن دينه بالعنف والإكراه، أو بالإغراء والتهويش، وحتى تزلزل بعضهم وتبرم ونافق المشركين، وحتى مات بعض من ناله الأذى ممن ثبت على دينه نتيجة للتعذيب.

«أما في المدينة فقد كان الأمر مختلفًا جدًّا، فالنبي ﷺ استطاع قبل أن يهاجر إليها أن يكسب أنصارًا أقوياء من الأوس والخزرج، ولم يهاجر إلا بعد أن استوثق من موقفه، ولم يبق تقريبًا بيت عربي فيها لم يدخله الإسلام.

ففي هذه الحالة لم يكن من الهين أن يقف الذين لم يؤمنوا به إما عن جهالة وغباء، وإما عن غيظ وحقد وعناد؛ لأنهم رأوا في قدوم النبي ﷺ حدًّا لنفوذهم وسلطانهم، موقف الجحود والعداء العلني للنبي ﷺ والمسلمين من المهاجرين والأنصار، وكان للعصبية في الوقت نفسه أثر غير قليل في عدم الوقوف هذا الموقف؛ لأن سواد الأوس والخزرج أصبحوا أنصار النبي ﷺ، ومرتبطين به بمواثيق الدفاع والنصر، إلا أن جلهم قد حسن إسلامهم، وغدوا يرون في النبي رسول الله ﷺ، وقائدهم الأعلى الواجب الطاعة، ومرشدهم الأعظم الواجب الاتباع، فلم يكن يسع الذين ظلت تغلبهم نزعة الشرك، ويتحكم فيهم مرض القلب والمكابرة والحقد، ويحملهم ذلك على مناوأة النبي ﷺ ودعوته ونفوذه أن يظهروا علنًا في نزعتهم وعدائهم، ولم يكن أمامهم إلا التظاهر بالإسلام، والقيام بأركانه، والتضامن مع قبائلهم، وجعل مكرهم وكيدهم ودسهم ومؤامراتهم بأسلوب المراوغة والخداع والتمويه، وإذا كانوا وقفوا أحيانًا مواقف علنية فيها كيد ودس، وعليها طابع من النفاق بارز، فإنما كان هذا منهم في بعض الظروف والأزمات الحادة التي كانت تحدق بالنبي ﷺ والمسلمين، والتي كانوا يتخذونها حجة لتلك المواقف بداعي المصلحة والمنطق والاحتياط،

ولم يكونوا على كل حال يعترفون بالكفر أو النفاق، غير أن نفاقهم وكفرهم ومواقفهم في الكيد والدس والتآمر لم تكن لتخفى على النبي ﷺ والمخلصين من أصحابه من المهاجرين والأنصار، كما أن المواقف العلنية التي كانوا يقفونها في فرص الأزمات كانت مما تزيد كفرهم ونفاقهم فضيحة ومقتًا، وقد كانت الآيات القرآنية توجه إليهم كذلك الفضائح المرة بعد المرة، وتدل عليهم بما يفعلون أو يمكرون، وتدمغهم بشرورهم وخبثهم ومكايدهم، وتحذر النبي ﷺ والمسلمين منهم في كل ظرف ومناسبة».

«ولقد كانت مواقف المنافقين ومكايدهم بعيدة المدى والأثر على ما تلهم الآيات المدنية، حتى لكأنه نضال قوي، يذكِّر بما كان من نضال بين النبي ﷺ وزعماء مكة، وإن اختلفت الأدوار والنتائج، إذ أن النبي ﷺ لم يلبث أن أخذ مركزه يتوطد وقوته تزداد، ودائرة الإسلام تتسع، وصار صاحب سلطان وأمر نافذ وجانب عزيز، وإذ لم يكن المنافقون كتلة متضامنة ذات شخصية خاصة بارزة، وكان ضعفهم وضآلة عددهم وشأنهم يسيران سيرًا متناسبًا عكسيًّا مع ما كان من تزايد قوة النبي ﷺ واتساع دائرة الإسلام، وتوطد عزته وسلطانه».

«ويكفيك لأجل أن تشعر بخطورة الدور الذي قام به المنافقون، وخاصة في أوائل العهد، أن تلاحظ أن المنافقين كانوا أقوياء نسبيًا بعصبياتهم التي كانت ما تزال قوية الأثر في نفوس سواد قبائلهم، كما أنهم لم يكونوا مفضوحين فضيحة تامة، ولم يكن الإسلام قد رسخ في هذا السواد رسوخًا كافيًا، وأن النبي ﷺ كان محوطًا بالمشركين الجاحدين من كل جانب، وأهل مكة خصومه الألدَّاء، وهم قبلة الجزيرة يتربصون به الدوائر، ويتحينون كل فرصة ووسيلة للقضاء عليه، واليهود في المدينة وحولها قد تنكروا له منذ عهد مبكر وتطيروا به، ثم جاهروه بالكفر والعداء والمكر، ولم يلبث أن انعقد بينهم وبين المنافقين حلف طبيعي على توحيد المسعى، والتضامن في موقف المعارضة والكيد، حتى ليمكن القول: إن المنافقين لم يقووا ويثبتوا ويكن منهم ذلك الأذى الشديد والاستمرار في الكيد والدس إلا بسبب ما لقوه من اليهود من تعضيد، وما انعقد بينهم من تضامن وتواثق، ولم يضعف شأنهم ويخف خطرهم إلا بعد أن مكن الله للنبي ﷺ من هؤلاء وأظهره عليهم، وكفاه شرهم». [يراجع الفصل بتمامه من ص ١٧٦-٢١٦ بالجزء الثاني من كتاب «سيرة الرسول: صورة مقتبسة من القرآن الكريم» لمؤلفه الأستاذ محمد عزة دروزة].

وهذه السورة تبدأ بوصف طريقتهم في مداراة ما في قلوبهم من الكفر، وإعلانهم الإسلام والشهادة بأن النبي ﷺ هو رسول الله، وحلفهم كذبًا ليصدقهم المسلمون، واتخاذهم هذه الأيمان وقاية وجُنَّة يخفون وراءها حقيقة أمرهم، ويخدعون المسلمين فيهم: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾[المنافقون].

فهم كانوا يجيؤون إلى رسول الله ﷺ فيشهدون بين يديه برسالته شهادة باللسان، لا يقصدون بها وجه الحق، إنما يقولونها للتقية، وليخفوا أمرهم وحقيقتهم على المسلمين، فهم كاذبون في أنهم جاؤوا ليشهدوا هذه الشهادة، فقد جاؤوا ليخدعوا المسلمين بها، ويداروا أنفسهم بقولها، ومن ثم يكذبهم الله في شهادتهم بعد التحفظ الذي يثبت حقيقة الرسالة: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾.

والتعبير من الدقة والاحتياط بصورة تثير الانتباه، فهو يبادر بتثبيت الرسالة قبل تكذيب مقالة المنافقين، ولولا هذا التحفظ لأوهم ظاهر العبارة تكذيب المنافقين في موضوع شهادتهم وهو الرسالة، وليس هذا هو المقصود، إنما المقصود تكذيب إقرارهم فهم لا يقرون الرسالة حقًّا ولا يشهدون بها خالصي الضمير!

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ وهي توحي بأنهم كانوا يحلفون الأيمان كلما انكشف أمرهم، أو عُرف عنهم كيد أو تدبير، أو نُقلت عنهم مقالة سوء في المسلمين، كانوا يحلفون ليتقوا ما يترتب على افتضاح أمر من أمورهم، فيجعلون أيمانهم وقاية وجُنَّة يحتمون وراءها، ليواصلوا كيدهم ودسهم وإغواءهم للمخدوعين فيهم.

﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صدوا أنفسهم وصدوا غيرهم مستعينين بتلك الأيمان الكاذبة: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢﴾ وهل أسوأ من الكذب للخداع والتضليل!؟

ويعلل حالهم هذه من شهادة مدخولة كاذبة، وأيمان مكذوبة خادعة، وصد عن سبيل الله وسوء عمل، يعلله بأنهم كفروا بعد الإيمان، واختاروا الكفر بعد أن عرفوا الإسلام: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾.

فهم عرفوا الإيمان إذن، ولكنهم اختاروا العودة إلى الكفر، وما يعرف الإيمان ثم يعود إلى الكفر قلب فيه فقه، أو تذوق، أو حياة، وإلا فمن ذا الذي يذوق ويعرف، ويطَّلع على التصور الإيماني للوجود، وعلى التذوق الإيماني للحياة، ويتنفس في جو الإيمان الذكي، ويحيا في نور الإيمان الوضيء، ويتفيأ ظلال الإيمان النديِّة، ثم يعود إلى الكفر الكالح الميت الخاوي المجدب الكنود؟ من ذا الذي يصنع هذا إلا المطموس الكنود الحقود، الذي لا يفقه ولا يحس ولا يشعر بهذا الفارق البعيد! ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾.

ثم يرسم لهم السياق صورة فريدة مبدعة، تثير السخرية والهزء والزراية بهذا الصنف الممسوخ المطموس من الناس، وتسمهم بالفراغ والخواء والانطماس والجبن والفزع والحقد والكنود، بل تنصبهم

تمثالًا وهدفًا للسخرية في معرض الوجود: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾.

فهم أجسام تعجب، لا أناسي تتجاوب! وما داموا صامتين فهم أجسام معجبة للعيون، فأما حين ينطقون فهم خواء من كل معنى ومن كل حس ومن كل خالجة: ﴿تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ﴾ ولكنها ليست خشبًا فحسب، إنما هي: ﴿خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ لا حركة لها، ملطوعة بجانب الجدار!

هذا الجمود الراكد البارد يصورهم من ناحية فقه أرواحهم إن كانت لهم أرواح! ويقابله من ناحية أخرى حالة من التوجس الدائم والفزع الدائم والاهتزاز الدائم: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾.

فهم يعرفون أنهم منافقون مستورون بستار رقيق من التظاهر والحلف والملق والالتواء، وهم يخشون في كل لحظة أن يكون أمرهم قد افتضح وسترهم قد انكشف، والتعبير يرسمهم أبدًا متلفتين حواليهم، يتوجسون من كل حركة ومن كل صوت ومن كل هاتف، يحسبونه يطلبهم، وقد عرف حقيقة أمرهم!

وبينما هم خشب مسندة ملطوعة إذا كان الأمر أمر فقه وروح وشعور بإيقاعات الإيمان، إذا هم كالقصبة المرتجفة في مهب الريح إذا كان الأمر أمر خوف على الأنفس والأموال!

وهم بهذا وذاك يمثلون العدو الأول للرسول ﷺ وللمسلمين: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ هم العدو الحقيقي، العدو الكامن داخل المعسكر، المختبئ في الصف، وهو أخطر من العدو الخارجي الصريح ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ ولكن الرسول ﷺ لم يؤمر هنا بقتلهم، فأخذهم بخطة أخرى فيها حكمة وسعة وثقة بالنجاة من كيدهم (كما سيجيئ نموذج من هذه المعاملة بعد قليل).

﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ فالله مقاتلهم حيثما صرفوا وأنى توجهوا، والدعاء من الله حكم بمدلول هذا الدعاء، وقضاء نافذ لا راد له ولا معقب عليه، وهذا هو الذي كان في نهاية المطاف.

ويستطرد السياق في وصف تصرفاتهم الدالة على دخل قلوبهم، وتبييتهم للرسول ﷺ وكذبهم عند المواجهة، وهي مجموعة من الصفات اشتهر بها المنافقون: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾.

وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل في عبد الله بن أبي بن سلول [كما مر في عرض الغزوة].

وننظر مرة إلى الأحداث، ومرة إلى الرجال، ومرة إلى النص القرآني، فنجدنا مع السيرة، ومع المنهج التربوي الإلهي، ومع قدر الله العجيب في تصريف الأمور..

فهذا هو الصف المسلم يندس فيه المنافقون، ويعيشون فيه في حياة الرسول ﷺ قرابة عشر سنوات، والرسول ﷺ لا يخرجهم من الصف، ولا يعرفهم الله له بأسمائهم وأعيانهم إلا قبيل وفاته، وإن كان يعرفهم في لحن القول، بالالتواء والمداورة، ويعرفهم بسيماهم وما يبدو فيها من آثار الانفعالات والانطباعات؛ ذلك كي لا يَكِل اللهُ قلوب الناس للناس، فالقلوب له وحده، وهو الذي يعلم ما فيها ويحاسب عليه، فأما الناس فلهم ظاهر الأمر؛ كي لا يأخذوا الناس بالظنة، وكي لا يقضوا في أمورهم بالفراسة! وحتى حينما عرَّف الله نبيه ﷺ بالنفر الذين ظلوا على نفاقهم إلى أواخر حياته، فإنه لم يطردهم من الجماعة وهم يُظهرون الإسلام ويؤدون فرائضه، إنما عرَّفهم وعرَّف بهم واحدًا فقط من رجاله هو حذيفة بن اليمان ﷺ ولم يشع ذلك بين المسلمين.

حتى إن عمر ﷺ كان يأتي حذيفة ﷺ ليطمئن منه على نفسه أن الرسول ﷺ لم يسمه له من المنافقين! وكان حذيفة ﷺ يقول له: يا عمر لست منهم، ولا يزيد! وكان رسول الله ﷺ قد أُمر ألا يصلِّ على أحد منهم مات أبدًا، فكان أصحابه يعرفون عندما يرون الرسول ﷺ لا يصلي على ميت، فلما قبض ﷺ كان حذيفة ﷺ لا يصلي على من عرف أنه منهم، وكان عمر ﷺ لا ينهض للصلاة على ميت حتى ينظر، فإن رأى حذيفة ﷺ هناك علم أنه ليس من المجموعة وإلا لم يصل هو الآخر ولم يقل شيئًا!

وهكذا كانت تجري الأحداث كما يرسمها القدر لحكمتها ولغايتها، للتربية والعبرة وبناء الأخلاق والنظم والآداب.

وهذا الحادث الذي نزلت فيه تلك الآيات هو وحده موضع عبر وعظات جمة.

هذا عبد الله بن أبي بن سلول، يعيش بين المسلمين، قريبًا من رسول الله ﷺ تتوالى الأحداث والآيات من بين يديه ومن خلفه على حقيقة هذا الدين وصدق هذا الرسول ﷺ، ولكن الله لا يهدي قلبه للإيمان؛ لأنه لم يكتب له هذه الرحمة وهذه النعمة، وتقف دونه ودون هذا الفيض المتدفق من النور والتأثير، تقف دونه إحنة في صدره أن لم يكن ملكًا على الأوس والخزرج، بسبب مقدم رسول الله ﷺ بالإسلام إلى المدينة! فتكفُّه هذه وحدها عن الهدى، الذي تواجهه دلائله من كل جانب، وهو يعيش في فيض الإسلام ومده في يثرب!

وهذا ابنه عبد الله ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ نموذج رفيع للمسلم المتجرد الطائع، يشقى بأبيه ويضيق بأفاعيله ويخجل من مواقفه، ولكنه يُكِن له ما يكنه الولد البار العطوف، ويسمع أن رسول الله ﷺ يريد

أن يقتل أباه هذا، فيختلج قلبه بعواطف ومشاعر متباينة، يواجهها هو في صراحة وفي قوة وفي نصاعة، إنه يحب الإسلام، ويحب طاعة رسول الله ﷺ ويحب أن ينفذ أمره ولو في أبيه، ولكنه لا يطيق أن يتقدم أحد فيضرب عنق أبيه ويظل يمشي على الأرض بعده أمام ناظريه، وهو يخشى أن تخونه نفسه، وألا يقدر على مغالبة شيطان العصبية، وهتاف الثأر، وهنا يلجأ إلى نبيه وقائده ﷺ؛ ليعينه على خلجات قلبه، ويرفع عنه هذا العنت الذي يلاقيه، فيطلب منه إن كان لا بد فاعلًا أن يأمره هو بقتل أبيه، وهو لا بد مطيع، وهو يأتيه برأسه؛ كي لا يتولى ذلك غيره، فلا يطيق أن يرى قاتل أبيه يمشي على الأرض، فيقتله، فيقتل مؤمنًا بكافر، فيدخل النار.

وإنها لروعة تواجه القلب أينما اتجه وأينما قلَّب النظر في هذا الموقف الكريم، روعة الإيمان في قلب إنسان، وهو يعرض على رسول الله ﷺ أن يَكِلَ إليه أشق عمل على النفس البشرية أن يقتل أباه وهو صادق النية فيما يعرض، يتقي به ما هو أكبر في نظره وأشق، وهو أن تضطره نوازعه البشرية إلى قتل مؤمن بكافر، فيدخل النار، وروعة الصدق والصراحة وهو يواجه ضعفه البشري تجاه أبيه وهو يقول: «**فَوَاللهِ لَقَدْ عَلِمَتِ الخَزْرَجُ مَا كَانَ لَهَا مِنْ رَجُلٍ أَبَرَّ بِوَالِدِهِ مِنِّي**»، وهو يطلب من نبيه وقائده ﷺ أن يعينه على هذا الضعف ويخرجه من هذا الحرج، لا بأن يرد أمره أو يغيره فالأمر مطاع والإشارة نافذة، ولكن بأن يَكِلَ إليه هو أن يأتيه برأسه!

والرسول الكريم ﷺ يرى هذه النفس المؤمنة المحرَجة، فيمسح عنها الحرج في سماحة وكرامة: «**بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا**»، ومن قبل هذا يكف عمر بن الخطاب ﷺ عن رأيه: «**دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ؟**».

ثم تصرف الرسول ﷺ في الحادث تصرف القائد الملهم الحكيم، وأمره بالسير في غير أوان، ومتابعة السير حتى الإعياء؛ ليصرف الناس عن العصبية المتنة التي أثارها صياح الرجلين المتقاتلين: يا للأنصار! يا للمهاجرين! وليصرفهم كذلك عن الفتنة التي أطلقها المنافق عبد الله ابن أبي بن سلول، وأرادها أن تحرق ما بين الأنصار والمهاجرين من مودة وإخاء فريدين في تاريخ العقائد وفي تاريخ الإنسان، وحديث الرسول ﷺ مع أسيد بن حضير ﷺ، وما فيه من تعبئة روحية ضد الفتنة، واستجاشة للأخذ على يد صاحبها وهو صاحب المكانة في قومه حتى بعد الإسلام!

وأخيرًا نقف أمام المشهد الرائع الأخير، مشهد الرجل المؤمن عبد الله بن عبد الله بن أبي، وهو يأخذ بسيفه مدخل المدينة على أبيه فلا يدعه يدخل، تصديقًا لمقاله هو: «**لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ**»؛ ليعلم

أن رسول الله ﷺ هو الأعز، وأنه هو الأذل، ويظل يقفه حتى يأتي رسول الله ﷺ فيأذن له، فيدخلها بإذنه، ويتقرر بالتجربة الواقعة مَنْ هو الأعزُّ ومَنْ هو الأذلُّ، في نفس الواقعة، وفي ذات الأوان.

ألا إنها لَقِمَّةٌ سامقة تلك التي رَفع الإيمان إليها أولئك الرجال، رفعهم إلى هذه القمة، وهم بعد بشر، بهم ضعف البشر، وفيهم عواطف البشر، وخوالج البشر، وهذا هو أجمل وأصدق ما في هذه العقيدة، حين يدركها الناس على حقيقتها، وحين يصبحون هم حقيقتها التي تدب على الأرض في صورة أناسيٍّ تأكل الطعام وتمشي في الأسواق.

ثم نعيش في ظلال النصوص القرآنية التي تضمنت تلك الأحداث: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾ فهم يفعلون الفعلة، ويطلقون القولة، فإذا عرفوا أنها بلغت رسول الله ﷺ جَبُنُوا وتخاذلوا وراحوا يقسمون بالأيمان يتخذونها جنة، فإذا قال لهم قائل: تعالوا يستغفر لكم رسول الله، وهم في أمن من مواجهته، لووا رؤوسهم ترفعًا واستكبارًا! وهذه وتلك سمتان متلازمتان في النفس المنافقة، وإن كان هذا التصرف يجيء عادة ممن لهم مركز في قومهم ومقام، ولكنهم هم في ذوات أنفسهم أضعف من المواجهة، فهم يستكبرون ويصدون ويلوون رؤوسهم ما داموا في أمان من المواجهة، حتى إذا ووجهوا كان الجبن والتخاذل والأيمان!

ومن ثم يتوجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ بما قضاه الله في شأنهم على كل حال، وبعدم جدوى الاستغفار لهم بعد قضاء الله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦﴾.

ويحكي طرفًا من فسقهم، الذي استوجب قضاء الله فيهم: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾.

وهي قولة يتجلى فيها خبث الطبع، ولؤم النحيزة، وهي خطة التجويع التي يبدو أن خصوم الحق والإيمان يتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان، في حرب العقيدة ومناهضة الأديان، ذلك أنهم لخسة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هي كل شيء في الحياة كما هي في حسهم فيحاربون بها المؤمنين.

إنها خطة قريش وهي تقاطع بني هاشم في الشِّعب لينفضوا عن نصرة رسول الله ﷺ ويسلموه للمشركين!

وهي خطة المنافقين كما تحكيها هذه الآية لينفض أصحاب رسول الله ﷺ عنه تحت وطأة الضيق والجوع!

وهي خطة الشيوعيين في حرمان المتدينين في بلادهم من بطاقات التموين؛ ليموتوا جوعًا أو يكفروا بالله، ويتركوا الصلاة!

وهي خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله وحركة البعث الإسلامي في بلاد الإسلام، بالحصار والتجويع ومحاولة سد أسباب العمل والارتزاق..

وهكذا يتوافى على هذه الوسيلة الخسيسة كل خصوم الإيمان، من قديم الزمان، إلى هذا الزمان، ناسين الحقيقة البسيطة التي يذكِّرهم القرآن بها قبل ختام هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾.

ومن خزائن الله في السماوات والأرض يرتزق هؤلاء الذين يحاولون أن يتحكموا في أرزاق المؤمنين، فليسوا هم الذين يخلقون رزق أنفسهم، فما أغباهم وأقل فقههم وهم يحاولون قطع الرزق عن الآخرين!

وهكذا يَثبِّت الله المؤمنين ويقوي قلوبهم على مواجهة هذه الخطة اللئيمة والوسيلة الخسيسة، التي يلجأ أعداء الله إليها في حربهم.

ويطمئنهم إلى أن خزائن الله في السماوات والأرض هي خزائن الأرزاق للجميع، والذي يعطي أعداءه لا ينسى أولياءه، فقد شاءت رحمته ألا يأخذ حتى أعداءه من عباده بالتجويع وقطع الأرزاق، وقد علم أنهم لا يرزقون أنفسهم كثيرًا ولا قليلًا لو قطع عنهم الأرزاق! وهو أكرم أن يَكِلَ عباده ولو كانوا أعداءه إلى ما يعجزون عنه البتة، فالتجويع خطة لا يفكر فيها إلا أخس الأخساء وألأم اللؤماء!

ثم قولتهم الأخيرة: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾.

وقد رأينا كيف حقق ذلك عبد الله بن عبد الله بن أبي! وكيف لم يدخلها الأذل إلا بإذن الأعز!

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾.

ويضم اللهُ سبحانه رسولَه والمؤمنين إلى جانبه، ويضفي عليهم من عزته، وهو تكريم هائل لا يكرمه إلا الله! وأي تكريم بعد أن يوقف الله سبحانه رسولَه والمؤمنين معه إلى جواره، ويقول: ها نحن أولاء! هذا لواء الأعزاء، وهذا هو الصف العزيز!

وصدق الله، فجعل العزة صنو الإيمان في القلب المؤمن، العزة المستمدة من عزته تعالى، العزة التي لا تهون ولا تهن، ولا تنحني ولا تلين، ولا تزايل القلب المؤمن في أحرج اللحظات إلا أن يتضعضع فيه الإيمان، فإذا استقر الإيمان ورسخ فالعزة معه مستقرة راسخة.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾.

وكيف يعلمون وهم لا يتذوقون هذه العزة ولا يتصلون بمصدرها الأصيل؟

لهؤلاء المؤمنين الذين أوقفهم الله في صفه مع رسول الله ﷺ وجعل عزتهم من عزته يوجه النداء الأخير في السورة، ليرتفعوا إلى هذا المكان الكريم، ويبرؤوا من كل صفة تشبه صفات المنافقين،

ويختاروا ذلك المقام الأسنى على الأموال والأولاد، فلا يدعوها تلهيهم عن بلوغ ذلك المقام الوضيء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١﴾.

والأموال والأولاد ملهاة ومشغلة إذا لم يستيقظ القلب، ويدرك غاية وجوده، ويشعر أن له هدفًا أعلى يليق بالمخلوق الذي نفخ الله فيه من روحه، فأودع روحه الشوق إلى تحقيق بعض صفاته الإلهية في حدود طاقته البشرية، وقد منحه الأموال والأولاد ليقوم بالخلافة في الأرض لا لتلهيه عن ذكر الله والاتصال بالمصدر الذي تلقى منه ما هو به إنسان.

ومن يغفل عن الاتصال بذلك المصدر، ويلهه عن ذكر الله ليتم له هذا الاتصال ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾ وأول ما يخسرونه هو هذه السمة، سمة الإنسان، فهي موقوفة على الاتصال بالمصدر الذي صار به الإنسان إنسانًا، ومن يخسر نفسه فقد خسر كل شيء، مهما يملك من مال ومن أولاد.

ويلمسهم في موضوع الإنفاق لمسات متنوعة في آية واحدة.

﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ فيذكرهم بمصدر هذا الرزق الذي في أيديهم، فهو من عند الله الذي آمنوا به والذي يأمرهم بالإنفاق ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾.

فيترك كل شيء وراءه لغيره، وينظر فلا يجد أنه قدم شيئًا لنفسه، وهذا أحمق الحمق وأخسر الخسران، ثم يرجو حينئذ ويتمنى أن لو كان قد أُمهل ليتصدق وليكون من الصالحين! وأنى له هذا: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾.

وأنى له ما يتقدم به؟ ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١﴾.

إنها اللمسات المنوعة في الآية الواحدة، في مكانها المناسب بعد عرض سمات المنافقين وكيدهم للمؤمنين، ولواذ المؤمنين بصف الله الذي يقيهم كيد المنافقين، فما أجدرهم إذن أن ينهضوا بتكاليف الإيمان، وألا يغفلوا عن ذكر الله، وهو مصدر الأمان..

وهكذا يربي اللهُ المسلمين بهذا القرآن الكريم». [في ظلال القرآن لقطب ٦/ ٣٥٧٣-٣٥٨١].

٣ ـ يُعَامَل المنافقون بظاهر الإسلام، ما داموا مع المسلمين، ويحتاط لهم:

يقول د/ فيض الله: «أشرنا إلى هذا المبدأ قبلًا [غزوة بني قينقاع]، ووقع التصريح به هنا في قولة النبي ﷺ: «**وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا**».

والجديد في هذه الغزوة أن النبي ﷺ لم يقف موقفًا سلبيًّا حيال مؤامرات المنافقين هذه، وكلمات ابن أُبَيٍّ المسمومة المهددة بطرد المسلمين من المدينة، والتي استهدفت تفتيت الصف المسلم، وتشتيت المسلمين، وتمزيق الوحدة الإسلامية، التي صنعها رسول الله ﷺ، بل اتخذ إزاءها الخطوات الإيجابية التالية:

١ـ أنه عَفَّى على كلمات ابن أُبيٍّ المحرقة، وتهديداته المسفة، بما دفنها في مهدها، وأطفأ لهيبها؛ وذلك بالرحيل المفاجئ، في غير أوقات الرحيل، حيث الشمس في كبد السماء، والجو يشتعل... وذلك ليشغل المسلمين بأعباء السفر، ومهام النقلة الثقيلة، عن هذا اللغو الأثيم، فلا تلوكه ألسنتهم، ولا يجْتَرُّونَه مرةً بعد مرة؛ وبذلك يبيد إلى الأبد.

وأفلحت فعلًا هذه الخطوة النبوية الجريئة الحاسمة، التي لم تلتفت مطلقًا إلى إثارة الأسئلة والاستفسارات حولها، فخرست ألسنة حداد، وأمسكت أخرى شداد، ودفنت الفتنة التي أيقظها ابن أُبَيٍّ لساعتها في مهدها.

٢ـ ولم يشأ النبي ﷺ أن يواجه حملة ابن أُبَيٍّ الـمُحَطِّمَة، ومؤامراته المدبرة، بالقوة واستعمال السلاح، حرصًا على وحدة الصف المسلم؛ وذلك لأن لابن أُبَيٍّ أتباعًا وشيعةً مسلمين مغرورين، ولو فتك به لأَرْعَدَت له أُنُوف، وغضب رجال مسلمون، متحمسون له، وقد يدفعهم تحمسهم له إلى تقطيع الوحدة المسلمة، وليس في ذلك أية مصلحة للمسلمين ولا للإسلام، فكانت الحكمة النبوية التي تجلت في نهي عمر ﷺ عن قتله؛ وعللت ذلك بأنه سيتحدث الناس عندئذ أن محمدًا ﷺ يقتل أصحابه، ولا يخفى ما في ذلك من إرجاف بالمسلمين، وإضعاف لقوتهم، بل على العكس من ذلك، أعلنت أنها تحسن صحبته ما بقي مع المسلمين، ولم ينْحَزْ إلى الكافرين فعلًا.

وإنها لسياسة شرعية حكيمة رشيدة، في معالجة المواقف العصيبة، في حزم وقوة أعصاب، وبُعد نظر، ومَنْ أجدر بذلك من النبوة المستندة في تصرفاتها كلها إلى الوحي الموحَى به.

٣ ـ لكن ذلك كله لم يَحُل دون كشف هذا الموقف بعد ذلك؛ لينخذل النفاق، وتخضد شوكة المنافقين، ويفتضح أمرهم على الملأ، فيخجل منهم أتباعهم أنفسهم، ويقعدوا عن نصرتهم؛ وفي ذلك هزيمتهم واندحارهم.

لقد نزلت في هذه المواقف المخزية سورة كاملة سميت بسورة المنافقين، تكذبهم في إسلامهم، وفي إيمانهم، وتقلل من أهميتهم، ولا تكترث بأموالهم ولا بأولادهم، وتشير إلى إرجاف كبيرهم، وتعلق على كلمته الكبيرة المهدِّدَة، وتقول: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون].

سورة تُتلى من كتاب الله، وتحفظها الصدور، وتُقرأ في الصلوات، يتوارثها المسلمون عبر الأجيال من كلام الله، خير بكثير من حرب مُبِيدَة، على أنها حرب معنوية، وهي أشد على أهل النفاق من الحرب الفتاكة؛ لأنها فَضَّاحةُ الأسرار، كشَّافة النوايا، وصَّافة الوقائع عن مشاهدة، وكفى بالله شهيدًا».

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٠٠-٢٠٢].

٤ ـ خطورة النفاق في إثارة الفتن:

يقول الشيخ الغزالي: «عندما كان الإسلام دعوة تغالب النظام السائد كانت مخاصمته تتخذ طريق الجهرة والتهجم دون مبالاة، فلما استقر له الأمر وتوفرت لأبنائه أسباب القوة، سلكت عداوته المسارب التي تسلكها الغرائز المكبوتة، فأمسى الكيد له يقوم على المكر والدس إلى جانب الوسائل الأخرى التي يعالن بها الأقوياء، وائتمار الضعفاء في جنح الظلام لا يقل خطورة عن نكاية الأقوياء في ميادين الصدام، بل إن المرء قد يألم لإشاعة ملفقة أكثر مما يألم لطعنة مواجِهة.

وفي الحروب الفاجرة تستخدم جميع الوسائل التي تصيب العدو، وإن كان بعضها يستحيي من استخدامه الرجل الشريف!

وقد لجأ المنافقون في المدينة إلى مناوأة النبي ﷺ ودعوته بأسلوب تظهر فيه خسة النفس الإنسانية عندما يستبد بها الحقد، ويغلب عليها الضعف، أسلوب اللمز والتعريض حينًا، والإفك حينًا آخر.

وكلما توطدت سلطة المسلمين ورسخت مكانتهم ازداد خصومهم المنافقون ضغنًا عليهم وتربصًا بهم، وقد حاولوا تأييد اليهود عندما تأذنهم الرسول ﷺ بالجلاء، فلما لم يُقف مدَّ الإسلام شيء، ولم تهدَّه هزيمة، وأخذت القبائل العادية تختفي واحدة تلو أخرى، التحق أولئك المنافقون بصفوف المسلمين ولم تنكشف نياتهم السوء إلا على فلتات الألسنة ومزالق الطباع، فكانت سيرتهم تلك مثار فتن شداد تأذى منها رسول الله والمؤمنون شيئًا غير قليل.

وظهر ذلك جليًّا في «غزوة بني المصطلق». [فقه السيرة للغزالي ٢٩٥].

ويقول أ/ الشامي: «خرج المنافقون في هذه الغزوة، ولم تكن المشاركة في الجهاد غايتهم، وإنما دفعهم إلى ذلك المغنم المتوقع، وقُرب المسافة نسبيًّا، بل لعل العامل الأهم هو استعادة مكانتهم في صفوف المسلمين، بعد أن أصابها ما أصابها نتيجة فعلهم وسلوكهم في غزوة الأحزاب (على رأي من يقول أنها كانت بعد غزوة الأحزاب)، ومن قبلها ما فعلوه في غزوة أُحُد من رجوعهم..وقد بدأ موقف الرسول ﷺ قويًّا وفي صعود فكان عليهم أن ينتهزوها فرصة، يتظاهرون بمؤازرتهم للرسول ﷺ وحرصهم على نصرته.

ويشاء الله ألا يتم لهم ما أرادوا، فالنفوس المظلمة لا يمكن أن ينبعث منها النور، وإذا هم أمام موقفين لعلهما من أسوأ المواقف التي للنفاق في تاريخه القذر:

أولهما: في قول ابن أُبي: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ولئن كان هذا القول يمثل مستوى الانحدار الذي هوى فيه المنافقون، فقد كان موقف المؤمنين منه يمثل الجانب الآخر في سمو العقيدة وصلابة الإيمان في نفوس المؤمنين الصادقين، وقد تمثل ذلك في أكثر من موقف.

منها: موقف أسيد بن حضير ﷺ الذي قال على البداهة حين سمع الأمر من رسول الله ﷺ: **فَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ تُخْرِجُهُ إِنْ شِئْتَ، فَهُوَ الأَذَلُّ وَأَنْتَ الأَعَزُّ، وَالْعِزَّةُ لله وَلَكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ.**

ومنها: موقف عبد الله بن عبد الله بن أُبي حيث وقف على باب المدينة واستل سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه قال له: وراءك، فقال: ما لك ويلك؟ فقال: **والله لا تجوز من هنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فإنه العزيز وأنت الذليل**، فلما جاء رسول الله ﷺ ـ وكان إنما يسير ساقة (أي في آخر الناس) ـ فشكا إليه ابن أُبي ابنه، فقال ابنه عبد الله: **والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له**، فأذن له، فقال: **أما إذا أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن**، إنها مواقف الإيمان. [عن تفسير ابن كثير في سورة المنافقين].

ثانيهما: موقف النفاق في اختلاق «قصة الإفك»، هذه القصة التي هزت المدينة مدة شهر كامل هزًا عنيفًا، وكانت السهام موجهة فيها إلى النبي ﷺ وفي بيته الكريم وإلى أعز الناس عليه عائشة ﵂، وإلى أبيها الصديق ﷺ...

ومرة أخرى تنزل الآيات ببراءة السيدة الكريمة زوج النبي ﷺ وبتكذيب المنافقين، كما نزلت من قبل الآيات بتصديق الذي أوفى لله بأذنه، زيد بن أرقم ﷺ وبتكذيب المنافقين».

[من معين السيرة للشامي ٣٤٧-٣٤٨].

٥ ـ تولي الله لأمر هذا الدين:

يقول د/ الزيد: «من موقف عبد الله بن أُبي بن سلول الذي تصدر إيذاء الرسول ﷺ وتزعَّم المنافقين في المدينة وواجه منه المسلمون في المدينة العنت والمشقة، نتذكر في هذا الرجل قول عائشة ﵂: (كان يوم بُعاث (بضم الموحدة وتخفيف المهملة وهو مكان عند بني قريظة على ميلين من المدينة وكانت به وقعة بين الأوس والخزرج فقتل فيها كثير منهم، فتح الباري ٧/ ١١١) يومًا قَدَّمه الله لرسول الله ﷺ، فَقَدِمَ رسول الله ﷺ وقد افترق ملأهم وقتلت سرواتهم (خيارهم) وجرحوا، فَقَدَّمه الله لرسول الله ﷺ في دخولهم الإسلام).

[صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري لابن حجر ٧/ ١١٠، رقم ٣٧٧٧].

حيث مهَّد الله ﷻ لهذه الدعوة بقتل من كان يتكبر ويأنف أن يدخل في الإسلام، يقول ابن حجر ﵀: (فقتل منها من أكابرهم من كان لا يؤمن، أي يتكبَّر ويأنف أن يدخل في الإسلام حتى لا يكون تحت حكم غيره، وقد كان بقي منهم من هذا النحو عبد الله بن أُبي بن سلول) ونأخذ من هذا أمرين:

الأول: أن الله ﷻ هو الذي يتولَّى أمر هذا الدين، وعلى المؤمن أن يفعل الأسباب، فالله ﷻ هو الذي كتب هذا القتال في المدينة، لكي يفرح الأنصار بمقابلة الرسول ﷺ ويرجوا أن يجمعهم الله بالرسول ﷺ بعد نزاعهم الدامي المر الذي حصل بينهم، وهو سبحانه الذي جعل في هذا القتال ما يزيل عقبة من عقبات الدعوة في المدينة وهم أولئك الملأ أمثال عبد الله بن أبي بن سلول في المدينة وأمثال أبي جهل في مكة حيث سلط أهل المدينة بعضهم على بعض، ليقتل الكبار الذين يتكبرون ويأنفون من الدخول في الإسلام ويعيقون غيرهم من الدخول فيه.

الثاني: بقاء عبد الله بن أبي بن سلول وهو من هذا النوع، لكي نتذكر نعمة الله ﷻ ونعرف رعاية الله ﷻ لهذه الدعوة وأن العشرات من أمثال ابن أبي كانوا لو بقوا على قيد الحياة حتى مجيء الرسول ﷺ سيقولون مثل قوله ويفعلون مثل فعله، لكن الله سبحانه بتدبيره ونصره للمؤمنين كفاهم شر هؤلاء وأبقى واحدًا منهم يذكرهم بهم، والله ﷻ يقول: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾[البقرة]».

[فقه السيرة للزيد ٤٧٨ - ٤٨٠].

٦ ـ بَيَانُ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِيمَنْ دَعَا بِدُعَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ أَوْ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ:

قال الإمام الطحاوي: «حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ خُزَيْمَةَ قَالَ: حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ الْهَيْثَمِ بْنِ الْجَهْمِ الْعَبْدِيُّ الْمُؤَذِّنُ قَالَ: ثنا عَوْفٌ الْأَعْرَابِيُّ عَنْ الْحَسَنِ عَنْ عُتَيِّ بْنِ ضَمْرَةَ قَالَ: رَأَيْتُ عِنْدَ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَجُلًا تَعَزَّى بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ فَعَضَّهُ أُبَيٌّ وَلَمْ يُكَنِّهْ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ أَصْحَابُهُ، فَقَالَ: كَأَنَّكُمْ أَنْكَرْتُمُوهُ، فَقَالَ أُبَيٌّ: لَا أَهَابُ أَحَدًا فِي هَذَا أَبَدًا، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَعِضُّوهُ وَلَا تَكْنُوا**».

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ شُعَيْبٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ قَالَ: حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ وَهُوَ ابْنُ حَفْصٍ قَالَ: حَدَّثَنَا السَّرِيُّ بْنُ يَحْيَى عَنْ الْحَسَنِ عَنْ عُتَيٍّ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ سَمِعْتُمُوهُ يَدْعُو بِدُعَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَعِضُّوهُ بِهَنِ أَبِيهِ وَلَا تَكْنُوا**».

قَالَ: فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيمَنْ سَمِعَ يَدْعُو بِدُعَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ مَا أَمَرَ بِهِ فِيهِ، فَقَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ تَقْبَلُونَ هَذَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَنْتُمْ تَرْوُونَ عَنْهُ فَذَكَرَ:

مَا قَدْ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ دَاوُد قَالَ: حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْوَاسِطِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ عَنْ مَنْصُورِ بْنِ زَاذَانَ عَنْ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْحَيَاءُ مِنْ الْإِيمَانِ، وَالْإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْبَذَاءُ مِنْ الْجَفَاءِ، وَالْجَفَاءُ مِنْ النَّارِ**».

قَالَ: فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الْبَذَاءَ فِي النَّارِ، وَمَعْنَى الْبَذَاءِ فِي النَّارِ هُوَ أَهْلُ الْبَذَاءِ فِي النَّارِ؛ لِأَنَّ الْبَذَاءَ لَا يَقُومُ بِنَفْسِهِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِذِكْرِهِ مَنْ هُوَ فِيهِ.

فَكَانَ جَوَابُنَا فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ الله ﷻ وَعَوْنِهِ: أَنَّ الْبَذَاءَ الْمُرَادَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ خِلَافُ الْبَذَاءِ الْمُرَادِ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ، وَهُوَ الْبَذَاءُ عَلَى مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُبْدَأَ عَلَيْهِ، فَمَنْ كَانَ مِنْهُ ذَلِكَ الْبَذَاءُ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْوَعِيدِ الَّذِي فِي الْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ ذَلِكَ الْبَذَاءُ فِيهِ، وَأَمَّا الْمَذْكُورُ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ فَإِنَّمَا هُوَ عُقُوبَةٌ لِمَنْ كَانَتْ مِنْهُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ يَدْعُو بِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَهُوَ كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ: **يَا لِبَكْرٍ! يَا لِتَمِيمٍ! يَا لِهَمْدَانَ!** فَمَنْ دَعَا كَذَلِكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْجَاهِلِيَّةَ الَّذِينَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ كَانَ مُسْتَحِقًّا لِلْعُقُوبَةِ، وَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ عُقُوبَتَهُ أَنْ يُقَابَلَ بِمَا فِي الْحَدِيثِ الثَّانِي لِيَكُونَ ذَلِكَ اسْتِخْفَافًا بِهِ وَبِالَّذِي دَعَا إِلَيْهِ، وَلِيَنْتَهِيَ النَّاسُ عَنْ ذَلِكَ فِي الْمُسْتَأْنَفِ فَلَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ، وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْحَدِيثُ بِغَيْرِ هَذَا اللَّفْظِ.

كَمَا حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ شُعَيْبٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى قَالَ: ثنا خَالِدٌ وَهُوَ ابْنُ الْحَارِثِ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ عُتَيِّ بْنِ ضَمْرَةَ، قَالَ: شَهِدْتُهُ يَوْمًا ـ يَعْنِي أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ ﷺ ـ وَإِذَا رَجُلٌ يَتَعَزَّى بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَعَضَّهُ بِكَذَا أَبِيهِ وَلَمْ يُكَنِّهِ، فَكَأَنَّ الْقَوْمَ اسْتَنْكَرُوا ذَلِكَ مِنْهُ فَقَالَ: لَا تَلُومُونِي، فَإِنَّ نَبِيَّ الله ﷺ قَالَ لَنَا: «**مَنْ رَأَيْتُمُوهُ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَعِضُّوهُ وَلَا تَكْنُوا**».

وَمَعْنَاهُ مَعْنَى الْحَدِيثِ الَّذِي قَبْلَهُ؛ لِأَنَّ مَعْنَى مَنْ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ عَزَاءِ نَفْسِهِ إِلَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ أَيْ: إِضَافَتِهَا إِلَيْهِمْ.

فَقَالَ قَائِلٌ: فَقَدْ رَوَيْتُمْ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ مَا يَدُلُّ عَلَى دَفْعِ هَذَا الْمَعْنَى فَذَكَرَ مَا قَدْ حَدَّثَنَا بَكَّارُ بْنُ قُتَيْبَةَ قَالَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ بَشَّارٍ الرَّمَادِيُّ وَمَا قَدْ حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ غُلَيْبٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عِمْرَانُ بْنُ أَبِي عِمْرَانَ الصُّوفِيُّ وَمَا قَدْ حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ شُعَيْبٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْجَبَّارِ بْنُ الْعَلَاءِ قَالُوا جَمِيعًا عَنْ سُفْيَانَ قَالَ: حَفِظْتُهُ مِنْ عَمْرٍو قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرًا ﷺ قَالَ: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله! رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَسَعَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**».

قَالَ هَذَا الْقَائِلُ: فَلَوْ كَانَ مَا فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ كَمَا رَوَيْتُمُوهُ لَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ أَنْكَرَ عَلَى مَنْ تَرَكَ الْقَوْلَ الَّذِي فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ لِمَنْ دَعَا بِمَا دَعَا بِهِ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ.

فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ الله ﷻ وَعَوْنِهِ: أَنَّ مَا فِي الْحَدِيثِ غَيْرُ مُخَالِفٍ لِمَا فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ؛ لِأَنَّ الَّذِي فِي هَذَا الْحَدِيثِ إِنَّمَا هُوَ الدُّعَاءُ بِأَهْلِ الْهِجْرَةِ إِلَى الله وَإِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَأَهْلِ النُّصْرَةِ لله ﷻ وَلِرَسُولِهِ ﷺ، فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ كَالدُّعَاءِ إِلَى رَجُلٍ جَاهِلِيٍّ مِنْ أَهْلِ النَّارِ كَافِرٍ بِالله وَرَسُولِهِ فَجَاءَ فِيمَنْ دَعَا إِلَى الْجَاهِلِيِّ مَا فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ وَلَمْ يَجِئْ مِثْلُهُ فِيمَنْ دَعَا إِلَى مُهَاجِرٍ إِلَى الله ﷻ وَإِلَى رَسُولِهِ ﷺ، وَإِلَى نَاصِرٍ لله ﷻ وَلِرَسُولِهِ ﷺ، فَإِنْ قَالَ: فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ: «**مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ**».

قِيلَ لَهُ: لِأَنَّ قَوْلَهُ: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ! وَقَوْلُ صَاحِبِهِ: يَا لِلْأَنْصَارِ! شَبِيهٌ بِقَوْلِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ: يَا لِفُلَانٍ! فَكَرِهَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَلِكَ الْقَوْلَ مِمَّنْ قَالَهُ إِذْ كَانَ اللهُ ﷻ وَرَسُولُهُ ﷺ قَدْ أَوْجَبَا لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ النُّصْرَةَ لَهُمْ وَدَفْعَ الْأَذَى وَالظُّلْمِ وَالْمَكْرُوهِ عَنْهُمْ، وَتَقَدَّمَ الْوَعِيدُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِمَنْ تَرَكَ مَا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ بِمَا قَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الَّذِي مَرَّ بِمَظْلُومٍ فَلَمْ يَنْصُرْهُ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنَّا فِي كِتَابِنَا هَذَا، فَبَانَ بِحَمْدِ اللهِ ﷻ وَنِعْمَتِهِ اسْتِوَاءُ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي هَذَا الْبَابِ، وَانْتِفَاءُ التَّضَادِّ عَنْهُ وَاللهَ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ». [تحفة الأخيار بترتيب شرح مشكل الآثار للطحاوي ٦/ ٥١٠-٥١٤].

٧ ـ من أعلام النبوة:

يقول الإمام السهيلي: «وَذَكَرَ مَقَالَةَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ، وَأَنَّ ابْنَهُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبْدِ اللهِ اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ ﷺ فِي قَتْلِ أَبِيهِ مِنْ أَجْلِ تِلْكَ الْمَقَالَةِ.

وَفِي هَذَا الْعِلْمُ الْعَظِيمُ وَالْبُرْهَانُ النَّيِّرُ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ؛ فَإِنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ أَشَدَّ خَلْقِ اللهِ حَمِيَّةً وَتَعَصُّبًا، فَبَلَغَ الْإِيمَانُ مِنْهُمْ وَنُورُ الْيَقِينِ مِنْ قُلُوبِهِمْ إِلَى أَنْ يَرْغَبَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ فِي قَتْلِ أَبِيهِ وَوَلَدِهِ تَقَرُّبًا إِلَى اللهِ وَتَزَلُّفًا إِلَى رَسُولِهِ، مَعَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَبْعَدُ النَّاسِ نَسَبًا مِنْهُمْ ـ أي من الأنصار.

وَمَا تَأَخَّرَ إِسْلَامُ قَوْمِهِ وَبَنِي عَمِّهِ وَسَبَقَ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ الْأَبَاعِدُ إلا لِحِكْمَةٍ عَظِيمَةٍ، إِذْ لَوْ بَادَرَ أَهْلُهُ وَأَقْرَبُوهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ لَقِيلَ: قَوْمٌ أَرَادُوا الْفَخْرَ بِرَجُلٍ مِنْهُمْ، وَتَعَصَّبُوا لَهُ، فَلَمَّا بَادَرَ إِلَيْهِ الْأَبَاعِدُ، وَقَاتَلُوا عَلَى حُبِّهِ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ، أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ، عُلِمَ أَنَّ ذَلِكَ عَنْ بَصِيرَةٍ صَادِقَةٍ، وَيَقِينٍ قَدْ تَغَلْغَلَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَرَهْبَةٍ مِنَ اللهِ أَزَالَتْ صِفَةً قَدْ كَانَتْ سَدِكَتْ فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ أَخْلَاقِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَسْتَطِيعُ إِزَالَتَهَا إلا الَّذِي فَطَرَ الْفِطْرَةَ الْأُولَى، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى مَا يَشَاءُ.

وَأَمَّا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ ﷺ فَكَانَ مِنْ كُتَّابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ اسْمُهُ حُبَابٌ، وَبِهِ كَانَ يُكَنَّى أَبُوهُ، فَسَمَّاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَبْدَ اللهِ، مَاتَ شَهِيدًا بِالْيَمَامَةِ ﷺ.

وَرَوَى الدَّارَقُطْنِيُّ مُسْنَدًا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ عَلَى جَمَاعَةٍ فِيهِمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ ثُمَّ وَلَّى، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: **لَقَدْ عَتَا ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ**، فَسَمِعَهَا ابْنُهُ عَبْدُ اللهِ، فَاسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ ﷺ فِي أَنْ يَأْتِيَهُ بِرَأْسِ أَبِيهِ، فَقَالَ: «**لَا، وَلَكِنْ بِرَّ أَبَاكَ**». [الروض الأنف للسهيلي ٦/ ٤٣٠-٤٣١].

٨ ـ رابطة العقيدة لا تقف أمامها رابطة:

يقول د/ أبو فارس: «إن الدين الإسلامي يقرر بوضوح لا لبس فيه ولا غموض أن الرابطة التي تصلح ليتجمع النوع الإنساني حولها هي رابطة العقيدة والدين، وهي الوشيجة الحقيقية التي تؤلف بين قلوب الناس، وتوثق أواصر المحبة عندهم، وأن أية وشيجة لا تصلح لتجميع النوع الإنساني.

ويقرر الإسلام أن أي آصرة مادية إذا تعارضت مع آصرة العقيدة فإن آصرة العقيدة هي التي تُقدَّم على سواها ولو كانت آصرة القرابة أو الأبوة أو الوطن، هذا الذي قررته الشريعة ليس مثاليًّا ولا نظريًّا لا أثر له في عالم الحقيقة والواقع، إنما طبقه المسلمون بصور عديدة لا حصر لها، وما حصل من عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول يؤكد هذا، لقد كان موقفه ترجمة عملية سليمة للموقف الإيماني المطلوب، فحين رأى من أبيه صدودًا عن دين الله، وحقدًا على رسول الله ﷺ، وإيذاء لأصحابه رضوان الله عليهم، فاصل أباه، وانعقد قلبه على قتله إن كان في ذلك مصلحة تقتضيها عقيدته، وأمره رسول الله ﷺ بذلك، تأمل قوله لرسول الله ﷺ: **يَا رَسُولَ الله، إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُرِيدُ قَتْلَ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ فِيمَا بَلَغَك عَنْهُ، فَإِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ فَاعِلًا فَمُرْنِي بِهِ، فَأَنَا أَحْمِلُ إِلَيْكَ رَأْسَهُ، فَوَالله لَقَدْ عَلِمَتِ الخَزْرَجُ مَا كَانَ لَهَا مِنْ رَجُلٍ أَبَرَّ بِوَالِدِهِ مِنِّي، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَأْمُرَ بِهِ غَيْرِي فَيَقْتُلَهُ، فَلَا تَدَعْنِي نَفْسِي أَنْظُرُ إِلَى قَاتِلِ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ يَمْشِي فِي النَّاسِ فَأَقْتُلَهُ، فَأَقْتُلَ رَجُلًا مُؤْمِنًا بِكَافِرٍ، فَأَدْخُلَ النَّارَ**.

ألا ترى أخي القارئ الكريم أن الولد الصالح يحب كل مؤمن أكثر من أبيه فكيف بقائده وحبيبه ورسوله ومنقذه من النار ﷺ.

وفي هذا درس لكل داعية رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا أن يُحَكِّم دينه في كل أمر من أمور حياته وعلاقاته، ينبغي أن يُحَكِّم الإسلام في علاقته مع أمه وأبيه وأخته وأخيه وقريبه وولده والناس أجمعين.

وليكن قدوة المسلم في هذا الموقف عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول حين وقف مع أبيه الموقف المنسجم مع عقيدته، التي استحوذت على قلبه، وأخذت عليه كل مأخذ، لقد وقف الولد موقفًا حقق القيم الإيمانية المستعلية في النفوس، وأسقط من حسابه القيم الأرضية والتفكير الأرضي.

وتلك لعمر الحق نعمة وفضل من الله، يؤتيها الله من يشاء من عباده، نسأله سبحانه وتعالى أن يلهمنا السداد والرشاد والإخلاص في القول والعمل». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٤٤-٤٦].

ويقول د/ قريبي: «ومجموع هذه الروايات المختلفة للموقف يبرز لنا موقفًا صلبًا قويًّا من مواقف العقيدة الإسلامية إذا تمكنت من قلب المسلم ورسخت فيه؛ ذلك لأن بناء الشخصية الإسلامية على هذه العقيدة يُخرج للبشرية نمطًا فريدًا من الناس يتحدون جميع الروابط والأواصر التي عهدها البشر في أعرافهم وتقاليدهم ومذاهبهم الاجتماعية، وتكون الآصرة الوحيدة في حياة المسلم هي آصرة العقيدة وحدها، ومن هنا نفهم ما ورد في التاريخ الإسلامي من رسوخ المسلم وثباته في وجه أبيه وأخيه الكافرين ولو أدى به ذلك إلى قتلهما؛ لأن أغلى شيء يملكه المسلم هو عقيدته، فإذا وقف في سبيل الدعوة إليها عُرْفٌ اجتماعي أو رابطة قبلية أو مذاهب تقليدية، تحداها المسلم بعزم وإصرار.

ومن ذلك هذا الموقف المشرف الذي وقفه عبد الله بن عبد الله بن أُبي ﷺ من أبيه عبد الله بن أُبي ابن سلول، حتى وصل به الأمر إلى مراودة الرسول ﷺ واستئذانه في قتله إن كان يحب ذلك.

وليس في الدنيا مذهب يخلق هذا النوع الفريد من التفاني في سبيل المبدأ أو العقيدة، وتلك معجزة عقيدة الإسلام التي يفتقر إليها الناس في كل زمان ومكان، وهي وحدها الكفيلة بسعادة البشرية ووحدتها وقوتها، فما أحوجها إلى مصل هذا الغرس الطيب لينشأ جيل فريد في تصوره الإسلامي، وسلوكه العملي في واقع الحياة؛ لانتشال شباب الأمة الإسلامية من وهدة الضلال إلى قمة العقيدة الإسلامية واستعلائها». [مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٢٦٧-٢٦٨].

ويقول د/ زيدان: «ذكرنا قول المنافق ابن أبي بن سلول: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾[المنافقون:٨] يريد بالأعز نفسه وأتباعه، والأذل من أعزه الله وهو رسول ﷺ، وإن هذه المقالة الخبيثة بلغت عبد الله ابن هذا المنافق، وكان هذا الابن الصالح من خيار أصحاب رسول الله ﷺ، فأغاظته وأغضبته؛ لأن رسول الله ﷺ أحبُّ إليه من أبيه، ورباطه أعظم وأقوى من رباطه النسبي بأبيه؛ لأن رباطه برسول الله ﷺ رابطة إيمان وهي تعلو على ما سواه من الروابط ولو كانت رابطة الأبوة؛ ولهذا استأذن رسول الله ﷺ أن يقتل أباه، فأبى ذلك ﷺ.

ولما رجع النبي ﷺ إلى المدينة وقف عبد الله على مداخل المدينة، فلما قدم أبوه ليدخل منعه ابنه، وأقسم بالله أن لا يدخل حتى يعلن بأن رسول الله هو العزيز وأنه هو الذليل، فقالها الأب، ثم لم يأذن له ابنه حتى يأذن له رسول الله ﷺ بالدخول، فلم يسمح له بالدخول حتى أذن له رسول الله ﷺ.

فعلى الدعاة أن يربوا أنفسهم ومن يدعوهم على هذا الولاء لله ولرسوله وللإسلام والمسلمين، وأن يكون ولاؤهم وبراؤهم على هذا الأساس، فالقريب منهم الولي لهم هو كل مؤمن، والبعيد منهم من كان عدوًا لله تعالى ولرسوله وللمؤمنين وإن كان قريب منهم نسبًا». [المستفاد لزيدان ٢/ ٣٠٢].

٩ ـ التجرد:

يقول د/ فيض الله: «أشارت قصة إرجاف ابن أُبَيٍّ؛ لمحاولة تفريق المسلمين، والمحادثات التي نبتت في جوانبها، إلى أن المسلم مُجَنَّد في الدين، ممتثل لأمر الإسلام، ينفذه تلقائيًّا، ولو في أحب الناس إليه، وآثرهم عنده.

فهذا عبد الله المؤمن، ابن عبد الله بن أُبَي المنافق، يعرض على النبي ﷺ استعداده لقتل أبيه، وحَمْل رأسه إليه، وأنه ينفذ الأمر كما صدر إليه، وكان بارًّا بوالده، كأشد ما يكون البر، يَعرف منه ذلك كلُّ الناس، لكن بر الرسول ﷺ أولى؛ وإنه ليخشى إن تُوُلِّيَ غيرُهُ قتلَ أبيه، أن تطغى عليه نفسه وشحنةُ العاطفة الأبوية الثرة، فيقتلَ قاتلَ أبيه، فيدخل النار لقتله نفسًا مؤمنة.

فأي شيء هذا الإيمان، وما أعمق جذوره في نفوس المؤمنين الصادقين! إنه يملك عليهم كل شيء، حتى ليصبحون أداةً طَيِّعَةً لتنفيذ تعاليمه وأوامره...

ومع ذلك فقد جاء الشرع باعتبار المنافق مسلمًا بحسب ظاهره، ويُعَامَل بهذا الظاهر معاملةَ المسلمين، ما دام معهم؛ ولهذا أضرب النبي ﷺ عما عرضه عليه عبد الله، وقال ﷺ: «**بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا**».

ومن مظاهر طاعة المسلم المطلقة لأمر الله ودينه، في حادثة ابن أُبَيٍّ أيضًا، أن عبد الله ابنه، تصدى له عندما وصلوا المدينة، وقال له: «**قِفْ! فَوَ اللهِ لا تَدْخُلُهَا حَتَّى يَأْذَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي ذَلِكَ**، فلما أذن له تركه يدخلها.

أرأيت إلى هذه الطاعة المثلى، أرأيت إلى التأهب الكامل لتنفيذ الأوامر الدينية العليا، بدون تحريف ولا تأويل ولا تعطيل، ولا دس حظوظ الهوى والنفس خلالها...؟

إن هذا لهو الإيمان المثالي والحب المثالي، كما يريده الدين نفسه، في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾[التوبة].

إن هذا لهو التطبيق الصحيح المثالي المطلوب لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾[المجادلة].

اللهم عمق الإيمان في قلوبنا، حتى لا يكون فيها شيء أرسخ ولا أثبت منه، وأغلِ وأعلِ حب شرعك ودينك في أنفسنا، فلا يكون شيء في الدنيا أغلى منه ولا أعلى، وارزقنا الأهلية الكاملة لحمل شريعتك، وتطبيق تعاليمك، يا رب العالمين». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٠٣-٢٠٤].

ويقول د/ أبو شهبة: «وقد تجلى في هذه الحادثة موقف بطولي إيماني، سما عن الرحم والعاطفة، وعزَّ في تاريخ الدنيا بَلْه سير الصحابة، ذلك أن المؤمن الصادق عبد الله بن عبد الله بن أُبي أتى رسول الله فقال: **يَا رَسُولَ الله، إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُرِيدُ قَتْلَ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ فِيمَا بَلَغَك عَنْهُ، فَإِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ فَاعِلًا فَمُرْنِي بِهِ فَأَنَا أَحْمِلُ إِلَيْكَ رَأْسَهُ، فَوَالله لَقَدْ عَلِمَتِ الخَزْرَجُ مَا كَانَ لَهَا مِنْ رَجُلٍ أَبَرَّ بِوَالِدِهِ مِنِّي، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَأْمُرَ بِهِ غَيْرِي فَيَقْتُلَهُ، فَلَا تَدَعْنِي نَفْسِي أَنْظُرُ إِلَى قَاتِلِ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ يَمْشِي فِي النَّاسِ فَأَقْتُلَهُ، فَأَقْتُلَ رَجُلًا مُؤْمِنًا بِكَافِرٍ، فَأَدْخُلَ النَّارَ!**

ماذا ترى يكون جواب الرسول الكريم ﷺ؟ إنه لموقف محرج حقًّا أيوافق الرسول ﷺ؟ إنه إن فعل فسيستريح من شر مستطير طالما نال من النبي ﷺ والمسلمين، وأضرَّ بالدعوة الإسلامية، ولكن كيف؟ ونبينا محمد ﷺ إنسان بشر قبل أن يكون نبيًّا، وإنسانيته فاقت كل ما يتصور في عقله وخبرته بالنفوس البشرية وغرائزها في المحل الذي لا يطاول، وهو يعلم يقينًا أن الابن في مأساة نفسية وعاطفية تغلَّب عليها بقوة إيمانه، وسمو نفسه، وحبِّه لله ولرسوله!

لقد ضرب الابن أروع مثل الإيمان والتضحية بعاطفة الأبوة، فليضرب النبي ﷺ الإنسان ذو القلب الكبير والخلق العظيم أروع المثل في العفو والرحمة وحسن الصحبة، فيقول ﷺ: «**بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا**»!

يا لروعة العفو، ويا لجلال العظمة الإنسانية!

ويسمو الإيمان ثم يسمو، فلا يرضى الابن المؤمن الصادق من الأب بالاعتذار أو إنكار ما قال، بل يقف لأبيه وهم آيبون عند مدخل المدينة، وبيده سيفه قائلًا له: **قِفْ! فَوَ اللهِ لا تَدْخُلُهَا حَتَّى يَأْذَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي ذَلِكَ**، فلما أذن له تركه يدخل وقد أشاح عنه بوجهه». [السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٥٦-٢٥٧].

ويقول عميد فرج: «إن موقف عبد الله بن عبد الله بن أبي أليس هو موقف بطولي فيه عظمة الإسلام ورجولة المسلمين، أليس هو موقف يتغلب فيه الإيمان بالله وبالرسول وبالدعوة على أسمى عاطفة أنبتها الله تبارك وتعالى في نفوس البشر وهي عاطفة البنوة، إن عبد الله ﷺ ـ كما قال ـ أبر الناس بوالده، ولكنه في ذات الوقت يؤكد أنه أكثر برًا بالإسلام، وإذا كان قتل أبيه فيه مصلحة للإسلام، فليقتل هو أباه بيده، ويقدم رأسه لرسول الله ﷺ، ويقدم بيده حياة أبيه فداء للدين والدعوة، هذه هي روح الإسلام الخالدة التي تمثلت في كل رجل مسلم آمن بالله وبالرسول، لا يقيم وزنًا للعاطفة مهما كانت، وللأفراد مهما قربت الصلة بهم إذا ما تعارضت هذه العاطفة وتلك الصلة مع مصلحة الإسلام وأمن المسلمين.

إن موقف عبد الله بن عبد الله بن أبي يقدم أعظم المثل على ما بلغته قوة الإيمان في نفوس أصحاب الرسول ﷺ، قوة أعظم من رابطة الدم التي تصل الابن وأبيه، قوة استبدلت بتلك الرابطة وغيرها من روابط القرابة والمصاهرة وتبادل المصالح، رابطة روحية عميقة، رابطة التآلف والتآخي في العقيدة، والتفاني في سبيلها.

إن موقف عبد الله بن عبد الله بن أبي حسنة من حسنات الإسلام، وثمرة ناضجة من ثمرات الإيمان، وفضل من الله تبارك وتعالى على البشر». [العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٢٧٣].

المطلب الثاني
الدروس التربوية والأخلاقية

١ ـ المؤمن الداعية لا يكون إلا عزيزًا:

يقول د/ زيدان: «العزة تعني الغلبة والقوة، وهي لله أصلًا فهو القوي الذي لا يُغلب، ولمن اتصل به وأيده وأعزه من رسوله وللمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

والعزة غير الكِبر، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه، العزة معرفة المسلم بحقيقة نفسه وبقيمة وعظيم قدر ما يحمله من معاني الإسلام؛ ولذلك فهو يكرمها ولا يضعها لأي غرض من أغراض الدنيا، كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه وإنزالها فوق منزلها.

فعلى الدعاة أن يربوا نفوسهم وأتباعهم على معاني العزة؛ لأنهم موصولون بالقوي العزيز الذي أعزهم بالإسلام، فلا يجوز أن يذلوا أو يشعروا بمهانة لضعفهم وقوة خصومهم، فإن الأسد يبقى شاعرًا بأسديته ولو وقع في أسر الصياد، فلا يجوز أن يكون المؤمن أقل إحساسًا من هذا الحيوان.

إن على الدعاة أن يحسوا بقدر وعظم ما يحملونه من معاني الإسلام التي لا قيمة ولا قدر للإنسان بدونها، فلا تتضعضع ذاتيتهم أمام الكافر إذا قدر وآلت السلطة إليه، فإن الخنزير يبقى خنزيرًا، ويُرَى على أنه خنزير وإن وقف على مكان عالٍ.

إن على الدعاة أن يُذكِّروا المسلمين بأنهم أعزاء ما أعزوا الإسلام، وإن الذلة والهوان من حق ونصيب الكافر.

وليعلم الدعاة بأن دعوتهم لا يمكن أن يحملها الذليل الذي لا يستشعر في قلبه عزة الإيمان».

[المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٣٠٣].

٢ ـ كيفية التعامل مع المنكر:

يقول د/ الزيد: «حكمة الرسول ﷺ في التعامل مع المنكر الذي وقع من كبير المنافقين عبد الله بن أُبي بن سلول، فمع وجود القرائن على مقالته تلك لم يوافق الرسول ﷺ على طلب عمر ابن الخطاب ﷺ في قتله، ومن ذلك يتقرر أن المنكر لا يُزال بمنكر مثله أو أكبر منه، ولكن عند عدم التمكن من إزالته بالكلية نلجأ إلى إزالة القدر المستطاع إزالته مع مراعاة المصلحة الراجحة في ذلك». [ينظر: **الدروس الدعوية في غزوة بني المصطلق لمحمد سعيد القرافي ص ٣٤ (بحث غير منشور)**]. [**فقه السيرة للزيد ٤٧٨**].

ويقول أ/ باشميل: «وكان عبد الله بن أُبي سيدًا في قومه الخزرج، وما كانت عداوته للنبي ﷺ وبغضه للمسلمين لتخفى على النبي ﷺ، ولكنه ﷺ لم يشأ التوسع في الموضوع، بل حاول إسدال الستار عليه خوف الفتنة.

وعندما طلب عمر بن الخطاب ﷺ من رسول الله ﷺ أن يسمح له بضرب عنق رأس النفاق عبد الله بن أُبي ـ وهم لما يزالوا في ديار بني المصطلق ـ رفض النبي ﷺ هذا الطلب قائلًا: «**فَكَيْفَ يَا عُمَرُ إِذَا تَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ!**»، فقال عمر ﷺ: **إن كرهت أن يقتله مهاجري فأمر أنصاريًّا يقتله**، فلم يوافق النبي ﷺ على ذلك، بل رفض هذا الاقتراح أيضًا قائلًا لعمر ﷺ: **ترعد له (إذن) أُنُف كثيرة بيثرب**، يعني النبي ﷺ بقوله هذا إن قتل عبد الله بن أُبي على هذه الصورة قد يكون سببًا في إثارة حرب أهلية بين المسلمين؛ لأنه كان يتوقع غضب رجال كثيرين من الخزرج لقتل زعيمهم عبد الله بن أُبي، لا سيما وأن كثيرًا منهم لا يعلمون حقيقة نفاقه.

ولم يشأ النبي ﷺ أن يجري أي تحقيق فيما نُسب إلى رأس النفاق من قول خطير أو يتخذ أي إجراء ضده للمقالة القبيحة التي قال، إلا أن وجوه قوم ابن أُبي من الخزرج جاؤوا إليه وقالوا له: يا أبا الحباب، إن كنت قلت ما نقل عنك فأخبر به النبي ﷺ فليستغفر لك ولا تجحده فينزل فيك ما يكذبك، وإن كنت لم تقله فائت رسول الله ﷺ فاعتذر له.

فحلف لقومه بالله العظيم أنه ما قال من ذلك شيئًا، ثم مشى إلى رسول الله ﷺ وأخذ يحلف له بالله أنه لم يقل شيئًا مما نقل إليه زيد بن أرقم ﷺ.

وكان لهذا الموقف الحكيم الذي وقفه النبي ﷺ من رأس النفاق أثر كبير في الحد من شرور هذا المنافق، فكان قومه ـ بعد ذلك ـ إذا أحدث الحدث هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه».

[غزوة الأحزاب لباشميل ٩٠-٩٤].

ويقول د/ البوطي: «تدلنا معالجة النبي ﷺ للمشكلة التي استغلها عبد الله بن أُبي بن سلول بالشكل الذي رأيناه، على مدى ما قد آتاه الله من براعة فائقة في سياسة الأمور وتربية الناس والتغلب على مشاكلهم، لقد كان ما سمعه ﷺ من كلام ابن أُبي مسوغًا كافيًا لأن يأمر بقتله بحسب الظاهر، ولكنه ﷺ استقبل الأمر بصدر أرحب من ذلك، وسمع عن اللغط الذي جرى، والتناوش الذي وقع، والجيش فيه عدد كبير من المنافقين الذين يبحثون عن شيء مثل هذا ليقوموا ويقعدوا به، فلم يعالج الأمر بعاطفة متأثرة، وإنما ترك الحكمة وحدها هي التي تدبر، فكان أن أمر القوم بالمسير في وقت لم يكونوا يعتادونه، حتى يشغلهم السير عن الاجتماع والمحادثة والكلام، وظل يسير بهم بقية اليوم والليل كله وصدرًا من اليوم التالي، لا يدع لهم مجالًا يفرغ فيه المنافقون للخوض فيما يريدونه من باطل، فلما انحطوا بعد ذلك على الأرض لم يدع لهم التعب فرصة الحديث عن شيء، وذهب الجميع في سبات عميق.

وانتظر الناس أن يجدوا من الرسول ﷺ إذا وصل المدينة شدة على المنافقين لا ريب أنها تتجلى في قتل عبد الله بن أُبي بن سلول؛ فلذلك جاءه ابنه عبد الله ﷺ يعرض على الرسول ﷺ أن يتولى هو قتل

أبيه إذا كان الرسول ﷺ يريد أن يحكم بذلك، ولكنه فوجئ من رسول الله ﷺ بما لم يكن متوقعًا حينما قال: **بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا**، وانظر إلى التعليل فيما قاله لعمر ﷺ: «**فَكَيْفَ يَا عُمَرُ إِذَا تَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ!**».

ولقد كان من نتيجة هذه الحكمة أن انحسر عن عبد الله بن أُبي ابن سلول قومه فكانوا هم الذين يعنِّفونه ويفضحون أمره إذا ما أراد أن يحدث شيئًا، وأنت خبير أن المنافق يعتبر في الأحكام القضائية الدنيوية مسلمًا مع وجوب الحيطة والحذر منه.

وقبل أن تستغرق في التأمل فيما كان يتصف به ﷺ من البراعة في الحكمة والسياسة وتدبير الأمور، ينبغي أن أذكرك مرة أخرى بأن كل هذه الصفات إنما تأتي من وراء صفة النبوة فيه، فهي كلها متفرعة عن كونه نبيًا ورسولًا إلى الناس، ومن الخطأ الفادح أن يعمد باحث فيحلل مثل هذه الصفات في حياته ﷺ دون أن يربطها بمصدره الأساسي الأول وهو نبوته ﷺ ورسالته.

وتلك خطة ـ كما بينا ذلك سابقًا ـ يختارها محترفو الغزو الفكري لشغل المسلمين عن التأمل في نبوته ﷺ، ويتلقفها منهم أولئك الذين فاقوا حتى القردة في إتقان فن التقليد الأعمى».

[فقه السيرة للبوطي ٢٢١-٢٢٢].

٣ ـ كانت غزوة بني المصطلق كنانة سهام مسمومة أفرغها المنافقون ليكيدوا المجتمع المسلم:

يقول الشيخ عرجون: «كانت غزوة (المريسيع) كنانة سهام مسمومة لأحداث جسام، ووقائع خطيرة، دبرها أهل النفاق وفجارهم، لم يقع مثلها في غزوة من الغزوات المسعورة في القتال.

وقد جعل الله ترياق سموم أحداثهم في قيادة النبي ﷺ لمجتمعه المسلم، كلما أُبطل منها مفعول حادثة من حوادثها بسياسته الحكيمة المحكمة التي أمده الله بها في مقابلة الأخطار لوأدها في مهدها كشرت عن أنيابها حادثة أعتى منها، وأشرس وأضرى.

وكل حادثة من تلك الحوادث العاتية العاصفة كانت كافية لتذرية رياح تسعرها بلهيب الفتن القواصم وحدة المجتمع المسلم التي كانت تكمن فيها قوته وصوارم عزائمه، والتي يستمد منها انتصاراته الساحقة لقوى أعدائه وأعداء نبيه ﷺ، وأعداء دعوته ورسالته.

ولكن الله تعالى كان لهم بالمرصاد، كلما جاؤوا من سوء مكرهم بواحدة أتاهم الله بحكمة تدبيره على يدي نبيه ﷺ بما يبطل كيدهم، ويرغم أنوفهم، ويذل غرورهم، ويفسد عليهم تدبيرهم المتدسس وراء جُدُر النفاق والفجور.

وهذه الغزوة كانت بأحداثها التي دبرها المنافقون امتحانًا قاسيًا متتابع الحلقات لصلابة قناة المجتمع المسلم، واختبارًا لقوة شكيمته وتماسك عرى وحدته الإيمانية، وابتلاء لصبره في وجه النوازل، ومقابلة الكوارث، واستبانة لحكمة قيادة القائد الأعظم ممثلة في النبي ﷺ في مواجهة الأحداث مهما كان خطرها بأعداد أمثالها لمقاومتها وإطفاء تسعرها وإفشال تدبير من دبروها من أعداء هذا المجتمع المسلم، وإبطال سيء كيدهم ولئيم مكرهم لتدمير هذا المجتمع واستئصاله لوقف تيار دعوته ونشر رسالته».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٣٦-٢٣٧].

٤ ـ أول سهام الفتنة في هذه الغزوة سهم كاد يقضي على وحدة المجتمع المسلم:

يقول الشيخ عرجون: «بدأت هذه الغزوة بُعيد وصول كتائب المجاهدين بقيادة النبي ﷺ إلى (المريسيع) ـ ماء بني المصطلق ـ وقد تزاحمت حوله جموعهم ومن انضوى إليهم من شراذم المتربصين الذي كان صغوهم معهم في عداوة الإسلام، وعداوة حامل أمانة رسالته ﷺ، وعداوة المجتمع المسلم في تركيبه الجديد من المهاجرين والأنصار، ومن آمن معهم ـ بحادثة جهجاه بن مسعود الغفاري أجير عمر بن الخطاب ﷺ، وسنان بن وبر الأنصاري اللذين ازدحما على الماء، فاشتبكا وتقاتلا، فتناديا بدعوى الجاهلية، فقال جهجاه: يا للمهاجرين، وصرخ سنان: يا للأنصار، فاستجاب لهما سراع الناس، وكادت تقع بين دعامتي المجتمع المسلم فتنة عمياء جائحة مدمرة، أشعل نارها خبيث النفاق، ورأس المنافقين عبد الله بن أُبي بن سلول ـ لعنه الله ـ لولا حكمة رسول الله ﷺ وسياسته في إطفاء لهيبها، حيث اجتمع من المهاجرين جموع، ومن الأنصار آخرون، وهموا بالاقتتال، فلم يزل بهم رسول الله ﷺ يخفضهم حتى فاؤوا إلى رحمة الله، وانكمد ابن أُبي غيظًا بحقده، وهدأ الناس.

ثم ما لبث الناس فواق شاة حتى أقبلت الفتنة الصماء بجحافل ظلماتها، فاغرة فاهها لتلتهم حياة المجتمع المسلم بين طواحين أضراسها، وضراوتها الشرسة». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٣٧].

٥ ـ القضاء على الفتنة:

ويقول د/ قريبي: «وهكذا قضى رسول الله ﷺ على هذه الفتنة التي كادت تفكك وحدة المسلمين وتمزق شملهم وتجعلهم شيعًا وأحزابًا، فتقر بذلك أعين المنافقين وأعداء الدين، لكن الإيمان الذي ربى رسول الله ﷺ أصحابه عليه، كان أقوى من مكيدة المنافقين، فما أن سمع المسلمون كلام الرسول ﷺ بأمرهم بترك دعوى الجاهلية، حتى خمدت الفتنة التي أوقد المنافقون نارها، ثم اتخذ الرسول الكريم التدابير التي تقضي على آثارها وتعيد الإخاء والمودة إلى نفوس المسلمين».

[مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٢٥٦].

٦ ـ تجنب المسلم ما يجعله عرضة لحديث الناس:

يقول د/ الزيد: «حكمة الرسول ﷺ في عدم قتله لعبد الله بن أبي وقوله: «**إذًا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**» ومنه نأخذ مشروعية الدفع عن العِرض، فالمسلم لا يُعرِّض عِرضه للحديث فيه، ولو كان القائل مخطئًا، بل عليه أن يجتنب ما استطاع تلك المواقف التي تجعله عُرضة لحديث الناس، ويشبه هذا قول الرسول ﷺ للرجلين لما رأياه في الليل في الطريق ومعه امرأة قال لهما: «**عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ**»، فَقَالَا: سُبْحَانَ الله! يَا رَسُولَ الله، وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنْ الْإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا**».

[البخاري في الاعتكاف (٢٠٣٥)، ومواضع أخرى، ومسلم في السلام (٢١٧٥)].

قال ابن حجر ﷺ: «وَفِيهِ التَّحَرُّزُ مِنَ التَّعَرُّضِ لِسُوءِ الظَّنِّ وَالِاحْتِفَاظُ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ وَالِاعْتِذَارِ، قَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ: وَهَذَا مُتَأَكِّدٌ فِي حَقِّ الْعُلَمَاءِ وَمَنْ يُقْتَدَى بِهِ، فَلَا يَجُوز لَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا فِعْلًا يُوجِبُ سُوءَ الظَّنِّ بِهِمْ وَإِنْ كَانَ لَهُمْ فِيهِ مَخْلَصٌ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ سَبَبٌ إِلَى إِبْطَال الِانْتِفَاع بِعِلْمِهِمْ، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ بَعْض الْعُلَمَاء: يَنْبَغِي لِلْحَاكِمِ أَنْ يُبَيِّنَ لِلْمَحْكُومِ عَلَيْهِ وَجْهَ الْحُكْمِ إِذَا كَانَ خَافِيًا نَفْيًا لِلتُّهْمَةِ، وَمِنْ هُنَا يَظْهَرُ خَطَأُ مَنْ يَتَظَاهَرُ بِمَظَاهِرِ السُّوءِ وَيَعْتَذِر بِأَنَّهُ يُجَرِّبُ بِذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ، وَقَدْ عَظُمَ الْبَلَاءُ بِهَذَا الصِّنْفِ، وَاَللهُ أَعْلَمُ».

[فتح الباري لابن حجر ٤/ ٢٨٠]. [فقه السيرة للزيد ٤٨٣].

٧ ـ خطورة الفراغ:

يقول د/ قريبي: «والحكمة ظاهرة من أمره ﷺ بالرحيل في وقت غير معتاد، وهي إشغال الناس عن الحديث في هذه المقالة التي قالها عبد الله بن أُبيٍّ؛ لأن ترك مثل هذا الخبر ينتشر في الجيش يسبب بلبلة في الأفكار، ويثير القيل والقال مما يصرف أذهان الجند الإسلامي إلى مهاترات كلامية، لا تُحمد عقباها، فكانت مسيرة الجيش المتصلة ليلًا ونهارًا، مما أجهدهم حتى وقعوا نيامًا، فشُغلوا بالنوم عن الحديث في هذا الموضوع الذي يريد الرسول ﷺ صرفهم عن الحديث فيه، ومسح النوم العميق بعد النصب الشديد آثار الفتنة.

وهذا منهج في سياسة الأمور ينبغي أن يسلكه القادة الراشدون في كل زمان ومكان».

[مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٢٦٢، فقه السيرة للزيد ٤٨٣].

٨ ـ ملامح من معالم منهج رسالة الخلود في هذه الغزوة:

يقول الشيخ عرجون: «لقد جمعت غزوة بني المصطلق من معالم منهج الرسالة الخالدة الخاتمة أحداثًا تشريعية ووقائع حربية، وحوادث اجتماعية، وأحكامًا فقهية، وآدابًا سياسية، وسياسةً قيادية كتمت أنفاس النفاق، وفضحت كيد المنافقين، وكشفت عن دسائسهم، وملأت قلوبهم غيظًا وحقدًا على

المجتمع المسلم، وشددت من قوة تماسك هذا المجتمع الذي أشجاهم حتى ماتوا بغيظهم لم ينالوا منه ما أقامته لهم شياطينهم من سيء الطبع والمكر، وأخبث الغدر، وأكذب الفِرى والبهتان.

وحسب هذه الغزوة فضلًا، وحسب الناظرين في أحداثها أن ينظروا فيها تفقهًا وتعمقًا يغنيانها عن التعليقات والتحليلات التي تنبه على ما في طواياها من دروس تربوية ومناهج سلوكية؛ لأنها آيات بينات من الهدى والنور؛ ولأن خصائصها في أحداثها كانت سطورًا من الحكمة، كتبها الله تعالى بقلم الغيب، وجرت بها تصاريف الأقدار بما شاء الله من تمحيص للمجتمع المسلم وإظهار لفضله في تربية رسول الله ﷺ له تربية عملية تكمن عناصرها في الأحداث والوقائع؛ ليكون في تطبيقها رفعًا لذكره ﷺ ونشرًا لهدايته في آفاق الحياة». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٥١-٢٥٢].

٩ ـ ترك مؤاخذة كبراء القوم:

قال ابن حجر: «وَفِي الْحَدِيثِ مِنْ الْفَوَائِدِ: تَرْكُ مُؤَاخَذَةِ كُبَرَاءِ الْقَوْمِ بِالْهَفَوَاتِ لِئَلَّا يَنْفِرَ أَتْبَاعُهُمْ وَالِاقْتِصَارُ عَلَى مُعَاتَبَاتِهِمْ، وَقَبُولُ أَعْذَارِهِمْ، وَتَصْدِيقُ أَيْمَانِهِمْ، وَإِنْ كَانَتْ الْقَرَائِنُ تُرْشِدُ إِلَى خِلَافِ ذَلِكَ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ التَّأْنِيسِ وَالتَّأْلِيفِ». [فتح الباري ٨/ ٥١٤ كتاب التفسير (٤٩٠٠)].

وَفِيهِ جَوَازُ تَبْلِيغِ مَا لَا يَجُوزُ لِلْمَقُولِ فِيهِ، وَلَا يُعَدُّ نَمِيمَةً مَذْمُومَةً إِلَّا إِنْ قَصَدَ بِذَلِكَ الْإِفْسَادَ الْمُطْلَقَ، وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ فِيهِ مَصْلَحَةٌ تُرَجَّحُ عَلَى الْمَفْسَدَةِ فَلَا». [فتح الباري ٨/ ٥١٤ كتاب التفسير (٤٩٠٠)].

المطلب الثالث

الدروس الفقهية

١ ـ مشروعية خروج النساء مع أزواجهن في الحروب والمعارك:

يقول د/ أبو فارس: «أخذ من فعل الرسول ﷺ، وتصرفاته دليل شرعي كأقواله، والمسلم مأمور بالتأسي به، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].

ولعل خروج المرأة مع زوجها في سفر كهذا يحقق فائدة له، فقد يحتاج الزوج إلى زوجته في أمر لا يُستحسن أن يطلع عليه غيرها». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٥٩، ينظر : فتح الباري ٥/ ٢٧٠، وقد سبق تفصيل الحديث في هذا في المرحلة الثانية من غزوة أُحُد].

ويقول د/ الفنيسان: «كان رسول الله ﷺ إذا خرج في سفر أقرع بين نسائه، وفي غزوة الخندق ضُربت له خيمة من أدم، فكانت عائشة تمكث عنده أيامًا، ثم تعقبها أم سلمة، ثم زينب وهكذا...». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٠].

٢ ـ عقوبة الجاسوس الكافر القتل:

«ويؤخذ هذا الحكم من فعل الرسول ﷺ إذ قبض على جاسوس أرسله الحارث قائد بني المصطلق وقتله». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٤٧].

٣ ـ حكم إنذار العدو قبل بدئه بالقتال [(١)]:

يقول د/ قريبي: «قبل الحديث عن إنذار الرسول ﷺ لبني المصطلق أو عدم إنذاره لهم، يحسن أن نبدأ ببيان حكم الدعوة إلى الإسلام عمومًا، وما هي الخطوات التي كان يتبعها الرسول الله ﷺ مع المدعوين إلى الإسلام، وبيان الأدلة على وجوب إنذار العدو أو عدم وجوبه، وذكر الخلاف الوارد بين أهل العلم في ذلك باختصار؛ ليكون ذلك تمهيدًا لما نحن بصدده، حيال غزوة بني المصطلق، وفيما يأتي أقوال العلماء:

(أ) ذهب بعض العلماء إلى وجوب الدعوة إلى الإسلام مطلقًا، سواء أكان عند المدعوين علم بالإسلام أم لا، وإليه ذهب مالك وجماعة من العلماء. [منهم علي بن أبي طالب، وعمر بن عبد العزيز، والهادوية. ينظر: المدونة الكبرى لمالك ٢/ ٣، نيل الأوطار للشوكاني ٧/ ٢٤٤].

(ب) وذهب أكثر العلماء إلى التفصيل بين مَنْ بلغتهم الدعوة وعلموا بها، فلا يجب في حقهم الإنذار، وبين من لم تبلغهم الدعوة ولا علموا بها، فيجب الإنذار في حقهم، وإليه ذهب الأئمة الثلاثة وأتباعهم.

(ج) وهناك قول ثالث بعدم وجوب الإنذار مطلقًا، حكاه المازري، والقاضي عياض. [ينظر هذه المذاهب: في الاعتبار للحازمي ص ٢١١-٢١٢، شرح مسلم للنووي ٤/ ٣٣٠، فتح الباري ٧/ ٤٧٨].

استدل الفريق الأول بأحاديث منها:

(١) ما رواه مسلم وأبو داود وغيرهما من حديث بُرَيْدَةَ بْنِ الحَصِيبِ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى الله وَمَنْ مَعَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: **«اغْزُوا بِاسْمِ الله فِي سَبِيلِ الله، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِالله، اغْزُوا وَلا تَغُلُّوا، وَلا تَغْدِرُوا، وَلا تَمْثُلُوا، وَلا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلاثِ خِصَالٍ أَوْ خِلالٍ، فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ**... [مسلم في الجهاد والسير (١٧٣١)، وأبو داود في الجهاد (٢٦١٢ و ٢٦١٣)، والترمذي في السير (١٦١٧)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٥٨)...].

---

(١) ينظر للتفصيل: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية ـ د/ محمد خير هيكل ١/ ٧٧٩-٧٩٢، والقيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ ـ د/ عبد الله محمد الرشيد ٩٢-٩٨، وفقه السرايا ـ د/ محمود خلف جَراد العيساوي ٢١-٢٧، وفقه الغزوات ـ د/ العيساوي ١٨٨-١٩١، وأضواء على دراسة السيرة للشامي ص ٤٣-٤٧.

(٢) ما رواه البخاري عَنْ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ ـ وهو محاصرها ـ: «**لأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا، يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ**»، قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ (أي يموجون ويخوضون فيمن يعطاها) لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا [يُعْطَى]، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ ﷺ: «**أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟**»، فَقِيلَ: هُوَ يَا رَسُولَ الله يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، قَالَ: «**فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ [فَأْتُونِي بِهِ]**»، فَأُتِيَ بِهِ [فَلَمَّا جَاءَ]، فَبَصَقَ رَسُولُ الله ﷺ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ عَلِيٌّ ﷺ: «**يَا رَسُولَ الله! أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟**» فَقَالَ ﷺ: «**انْفُذْ** (أي انفصل وامض سالمًا) **عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ الله فِيهِ، فَوَالله لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**». [البخاري في المغازي (٤٢١٠)، وفي الجهاد والسير (٢٩٤٢، ٣٠٠٩)، وفي المناقب (٣٧٠١)، ومسلم في فضائل الصحابة ﷺ (٢٤٠٦)، ومسند أحمد ٣٧/ ٤٧٧ رقم ٢٢٨٢١].

ووجه الدلالة من الحديثين قوله: «**ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ**» وهو أمر، والأمر يقتضي الوجوب ما لم يكن هناك صارف، وهو صريح في وجوب الدعوة قبل القتال.

واستدل الفريق الثاني بما يأتي:

(١) ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ شَقِيقٍ أَخْبَرَنَا عَبْدُ الله أَخْبَرَنَا ابْنُ عَوْنٍ قَالَ: كَتَبْتُ إِلَى نَافِعٍ فَكَتَبَ إِلَيَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَغَارَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ، وَأَنْعَامُهُمْ تُسْقَى عَلَى الْمَاءِ، فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ وَسَبَى ذَرَارِيَّهُمْ، وَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ جُوَيْرِيَةَ. حَدَّثَنِي بِهِ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْجَيْشِ.

ولفظ مسلم: عَنْ ابْنِ عَوْنٍ قَالَ: كَتَبْتُ إِلَى نَافِعٍ أَسْأَلُهُ عَنْ الدُّعَاءِ قَبْلَ الْقِتَالِ؟ قَالَ: فَكَتَبَ إِلَيَّ: إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، قَدْ أَغَارَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ، وَأَنْعَامُهُمْ تُسْقَى عَلَى الْمَاءِ، فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ، وَسَبَى سَبْيَهُمْ، وَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ ـ قَالَ يَحْيَى أَحْسِبُهُ قَالَ ـ جُوَيْرِيَةَ، أَوْ قَالَ: الْبَتَّةَ ابْنَةَ الْحَارِثِ.

وقَالَ أَبُو دَاوُد بعد إيراده: هَذَا حَدِيثٌ نَبِيلٌ، رَوَاهُ ابْنُ عَوْنٍ عَنْ نَافِعٍ، وَلَمْ يُشْرِكْهُ فِيهِ أَحَدٌ.

[البخاري في العتق (٢٥٤١)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٣٠)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٣٣)...].

وعن ابْنُ عَوْنٍ قَالَ: كَتَبْتُ إِلَى نَافِعٍ أَسْأَلُهُ: مَا أَقْعَدَ ابْنَ عُمَرَ ﷺ عَنْ الْغَزْوِ، وعَنْ الْقَوْمِ إِذَا غَزَوْا بِمَا يَدْعُونَ الْعَدُوَّ قَبْلَ أَنْ يُقَاتِلُوهُمْ؟، وَهَلْ يَحْمِلُ الرَّجُلُ إِذَا كَانَ فِي الْكَتِيبَةِ بِغَيْرِ إِذْنِ إِمَامِهِ؟ فَكَتَبَ إِلَيَّ: إِنَّ ابْنَ عُمَرَ قَدْ كَانَ يَغْزُو وَلَدُهُ، وَيَحْمِلُ عَلَى الظَّهْرِ، وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّ أَفْضَلَ الْعَمَلِ بَعْدَ الصَّلَاةِ الْجِهَادُ فِي

سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى، وَمَا أَقْعَدَ ابْنَ عُمَرَ عَنْ الْغَزْوِ إِلَّا وَصَايَا لِعُمَرَ، وَصِبْيَانٌ صِغَارٌ، وَضَيْعَةٌ كَثِيرَةٌ، وَقَدْ أَغَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ، يَسْقُونَ عَلَى نَعَمِهِمْ، فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ، وَسَبَى سَبَايَاهُمْ، وَأَصَابَ جُوَيْرِيَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ.

قَالَ: فَحَدَّثَنِي بِهَذَا الْحَدِيثِ ابْنُ عُمَرَ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْجَيْشِ، وَإِنَّمَا كَانُوا يُدْعَوْنَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، وَأَمَّا الرَّجُلُ فَلَا يَحْمِلُ عَلَى الْكَتِيبَةِ إِلَّا بِإِذْنِ إِمَامِهِ.

[مسند أحمد ٨/ ٤٧٧ رقم (٤٨٧٣)، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح].

(٢) ما رواه البخاري ومسلم عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَى خَيْبَرَ لَيْلًا، وَكَانَ إِذَا أَتَى قَوْمًا بِلَيْلٍ لَمْ يُغِرْ [(١)] بِهِمْ حَتَّى يُصْبِحَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ خَرَجَتْ الْيَهُودُ بِمَسَاحِيهِمْ (جمع مسحاة وهي المجرفة من الحديد) وَمَكَاتِلِهِمْ (جمع مكتل وهو الزنبيل الكبير)، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: مُحَمَّدٌ وَاللهِ، مُحَمَّدٌ وَالْخَمِيسُ [(٢)]، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ** (الناحية وفضاء بين دور الحي) **قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ**».

وفي لفظ: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا غَزَا قَوْمًا لَمْ يُغِرْ حَتَّى يُصْبِحَ، فَإِنْ سَمِعَ أَذَانًا أَمْسَكَ، وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ أَذَانًا أَغَارَ بَعْدَ مَا يُصْبِحُ، فَنَزَلْنَا خَيْبَرَ لَيْلًا...**».

وفي لفظ: «**صَبَّحْنَا خَيْبَرَ بُكْرَةً، فَخَرَجَ أَهْلُهَا بِالْمَسَاحِي...**».

[البخاري في الجهاد (٢٩٤٥)، وفي المغازي (٤١٩٧ و ٤١٩٨)، ومسلم في النكاح (١٣٦٥)، والترمذي في السير (١٥٥٠)، ومالك في الموطأ كتاب الجهاد (١٠٢٠)، وأحمد عن أنس ﷺ (١٣١٦٣)].

ووجه الدلالة من هذين الحديثين قوله: «أَغَارَ» أي أخذهم على غِرة، ويدل على هذا صراحة لفظ: «وَهُمْ غَارُّونَ» أي غافلون.

أما المذهب الثالث القائل بعدم الإنذار مطلقًا، فهو مذهب ضعيف ترفضه الأحاديث المتقدمة.

وقد صرح بضعفه المازري والقاضي عياض وغيرهما من العلماء.

والراجح في هذه المسألة هو مذهب جماهير العلماء القائلين بالتفصيل بين من لم تبلغه الدعوة إلى الإسلام فتجب دعوته، وبين من بلغته الدعوة فلا تجب، وبه يمكن الجمع بين الأحاديث، ومتى أمكن الجمع فلا يُصار إلى غيره؛ لأن العمل بجميع الأحاديث أولى من رد بعضها.

---

(١) في حديث أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ أغار على أهل خيبر ليلًا، وتقدم في حديث سهل أن النبي ﷺ أمر عليًّا ﷺ أن يدعوهم إلى الإسلام قبل القتال. وأجاب ابن حجر: بأن حديث أنس ﷺ كان أول ما طرقهم رسول الله ﷺ وحديث علي ﷺ بعد ذلك، فتح الباري ٧/ ٤٨٧.

(٢) **الخميس**: الجيش العظيم؛ سمى بذلك لأنه مقسوم بخمسة أقسام، المقدمة، والساقة، والميمنة، والميسرة، والقلب. وقيل لأنه تخمس فيه الغنائم. ينظر: النهاية لابن الأثير ٧/ ٩٢.

[ينظر: الاعتبار للحازمي ص ٢١١-٢١٢، وشرح معاني الآثار للطحاوي ٣/ ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٠، وشرح مسلم للنووي ٤/ ٣٣٠، ٣٤٣، ونصب الراية للزيلعي ٣/ ٣٧٩، ٣٨٢، وفتح الباري ٦/ ١١٢، ٧/ ٤٧٨، وسبل السلام للصنعاني ٤/ ٤٥، ونيل الأوطار للشوكاني ٧/ ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٤٧].

وقد وردت السنة بجواز الإغارة على بلغته الدعوة إلى الإسلام، ومن فعل الرسول ﷺ:

(١) كما هو في حديث عبد الله بن عمر وأنس بن مالك المتقدمين.

(٢) ومن تقريره ﷺ كما في حديث الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ ﷺ قَالَ: مَرَّ بِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْأَبْوَاءِ أَوْ بِوَدَّانَ، وَسُئِلَ عَنْ أَهْلِ الدَّارِ يُبَيَّتُونَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ فَيُصَابُ مِنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ؟ قَالَ: «**هُمْ مِنْهُمْ**».

[البخاري في الجهاد والسير (٣٠١٣)].

وفي لفظ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ الذَّرَارِيِّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ يُبَيَّتُونَ فَيُصِيبُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ؟ فَقَالَ: «**هُمْ مِنْهُمْ**».

وعَنْ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! إِنَّا نُصِيبُ فِي الْبَيَاتِ مِنْ ذَرَارِيِّ الْمُشْرِكِينَ قَالَ: «**هُمْ مِنْهُمْ**».

وعنه ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قِيلَ لَهُ: لَوْ أَنَّ خَيْلًا أَغَارَتْ مِنْ اللَّيْلِ فَأَصَابَتْ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُشْرِكِينَ، قَالَ: «**هُمْ مِنْهُمْ آبَائِهِمْ**». [مسلم في الجهاد والسير (١٧٤٥)].

وفي لفظ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! إِنَّ خَيْلَنَا أُوطِئَتْ مِنْ نِسَاءِ الْمُشْرِكِينَ وَأَوْلَادِهِمْ، قَالَ: «**هُمْ مِنْ آبَائِهِمْ**». [الترمذي في السير (١٥٧٠)، وقَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ].

وفي لفظ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ أَهْلِ الدَّارِ مِنْ الْمُشْرِكِينَ يُبَيَّتُونَ فَيُصَابُ النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ؟ قَالَ: «**هُمْ مِنْهُمْ**». [ابن ماجه في الجهاد (٢٨٣٩)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

(٣) ومن قوله ﷺ كما هو في حديث أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ عَهِدَ إِلَيْهِ فَقَالَ: «**أَغِرْ عَلَى أُبْنَى** (بالضم ثم السكون وفتح النون والقصر بوزن حُبلى، موضع بالشام من جهة البلقاء. معجم البلدان ١/ ٧٩) **صَبَاحًا وَحَرِّقْ**».

حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بْنُ عَمْرٍو الْغَزِّيُّ سَمِعْتُ أَبَا مُسْهِرٍ قِيلَ لَهُ: أُبْنَى؟ قَالَ: نَحْنُ أَعْلَمُ هِيَ يُبْنَى فِلَسْطِينَ».

[أبو داود في الجهاد (٢٦١٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٤٣)، وضعفه الألباني [وأحمد عن أسامة ﷺ (٢١٢٧٨، ٢١٣١٧)] كلاهما من طريق صالح بن أبي الأخضر، قال فيه ابن حجر: «ضعيف يعتبر به» التقريب ١/ ٣٥٨، والحديث رواه الشافعي أيضًا في الأم ٤/ ١٧٤ من غير طريق صالح بن أبي الأخضر، ولفظه: قال الشافعي أخبرنا بعض أصحابنا عن عبد الله بن جعفر الأزهري، قال: سمعت ابن شهاب يحدث عن عروة عن أسامة بن زيد ﷺ قال: أمرني رسول الله ﷺ «أن أغزو صباحًا على أهل أبنى وأحرق»].

وخلاصة القول في هذا: أن الدعوة إلى الإسلام واجبة قبل القيام بالهجوم الحربي في حق من لم تبلغه الدعوة الإسلامية ولا علم بها؛ فإن الإسلام دين هداية وبيان وإرشاد، وليس له غرض في الحروب المدمرة، كما هو واضح من هدي هذا الدين الحنيف.

أما من بلغته الدعوة الإسلامية وعلم بها، فلا يجب في حقه تجديد الدعوة؛ لأن العلم بها حاصل لديه وخاصة إذا علم منه تبييت الشر للمسلمين، ومحاولة ضرب قلعة الإسلام، كما حصل من بني المصطلق.

ومن هنا يفهم الدارس لظروف وملابسات هذه الغزوة أن الرسول ﷺ لم يقم بالهجوم على هذه القبيلة إلا بعد أن علم أنها تحتشد لحربه وضرب دار الإسلام «المدينة المنورة».

وذلك لأن الرسول ﷺ كان قد تثبت في ذلك من بعض سفرائه حين بلغه خبر هذه القبيلة، كما سبق ذكره. [مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٩٨-١٠٥].

٤ ـ حكم الدعوة إلى الإسلام قبل بدء القتال[(١)]:

يقول د/ قريبي: «إن النصوص تدل بظاهرها على أن المدعوين قبل القتال على قسمين:

القسم الأول: قوم لم تبلغهم الدعوة، فهؤلاء تجب دعوتهم قبل قتالهم حتى تقوم عليهم الحجة.

ويدل لذلك حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «مَا قَاتَلَ رَسُولُ الله [النَّبِيُّ ﷺ] قَوْمًا قَطُّ حَتَّى يَدْعُوَهُمْ [إِلا دَعَاهُمْ]». [أحمد (٢٠٥٣، ٢١٠٥)، ومجمع الزوائد ٥/ ٥٥٢ كتاب الجهاد (٩٥٧٨)، وقال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح].

وحديثه أيضًا ﷺ في بعث معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ أَبُو بَكْرٍ: رُبَّمَا قَالَ وَكِيعٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ مُعَاذًا قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ الله ﷺ قَالَ: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ الله، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله حِجَابٌ**».

[البخاري في الزكاة (١٤٥٨، ١٤٩٦)، وفي المغازي (٤٣٤٧)، ومسلم في الإيمان (١٩) واللفظ له، وأبو داود في الزكاة (١٥٨٤)، والترمذي في الزكاة (٦٢٥)، والنسائي في الزكاة (٢٤٣٥، ٢٥٢٢)، وابن ماجه في الزكاة (١٧٨٣)، والدارمي في الزكاة (١٦١٤)، وأحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما (٢٠٧٢)].

---

(١) ينظر للتفصيل: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية ـ د/ محمد خير هيكل ١/ ٧٧٩-٧٩٢، والقيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ ـ د/ عبد الله محمد الرشيد ٩٢-٩٨، وفقه السرايا ـ د/ محمود خلف جَراد العيساوي ٢١-٢٧، وفقه الغزوات ـ د/ العيساوي ١٨٨-١٩١.

وأخرج عبد الرزاق عن علي ﷺ أن النبي ﷺ قال له: «**لَا تُقَاتِلُ قَوْمًا حَتَّى تَدْعُوَهُمْ**».

[خرجه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٢٦٤١ وصححه].

وروى ابن منده عن عبد الرحمن بن عائذ قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث بعثًا قال لهم: «**تَأَلَّفُوا النَّاسَ، وَتَأَنَّوهُمْ، وَلا تُغِيرُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى تَدْعُوَهُمْ ـ أي إلى الإسلام ـ فَمَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ مَدَرٍ وَلا وَبَرٍ إِلا تَأْتُونِي بِهِمْ مُسْلِمِينَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَأْتُونِي بِنِسَائِهِمْ وَأَوْلادِهِمْ وَتَقْتُلُوا رِجَالَهُمْ**».

[قال السيوطي: رواه ابن منده وابن عساكر عن عبد الرحمن بن عائذ ـ كنز العمال رقم ١١٣٠٠].

القسم الثاني: قوم بلغتهم الدعوة وعلموا بها، فهؤلاء تستحب دعوتهم من باب التأكيد وزيادة في إقامة الحجة عليهم، وتجوز الإغارة عليهم بغتة، بدون تجديد دعوة لهم اكتفاء بالدعوة السابقة التي قد بلغتهم، ويدل لذلك حديث ابن عمر رضي الله عنهما **أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَغَارَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ، وَأَنْعَامُهُمْ تُسْقَى عَلَى الْمَاءِ**.

وحديث الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ اللَّيْثِيَّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قِيلَ لَهُ: لَوْ أَنَّ خَيْلًا أَغَارَتْ مِنْ اللَّيْلِ فَأَصَابَتْ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُشْرِكِينَ، قَالَ: «**هُمْ مِنْهُمْ آبَائِهِمْ**»، وفي لفظ: «إِنَّا نُصِيبُ فِي الْبَيَاتِ مِنْ ذَرَارِيِّ الـمُشْرِكِينَ قَالَ: «**هُمْ مِنْهُمْ**»، وفي لفظ: سُئِلَ (السائل هو الصعب نفسه كما هي رواية الترمذي، ينظر: سنن الترمذي ٣/ ٦٦، كتاب السير ما جاء في النهي عن قتل النساء والصبيان) النَّبِيُّ ﷺ عَنْ الذَّرَارِيِّ مِنْ الـمُشْرِكِينَ يُبَيَّتُونَ فَيُصِيبُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ؟ فَقَالَ: «**هُمْ مِنْهُمْ**». [البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي في الكبرى، وتحفة الأشراف للمزي، وابن ماجه، الجميع في الجهاد، والترمذي، وأحمد ٤/ ٣٨، ٧١، ٧٢، ٧٣].

وقد تقدم ذلك مفصلًا في محله. [مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٤٢٥-٤٢٦].

ويقول د/ فيض الله: «رأينا كيف أن النبي ﷺ لما دنا من صفوف الكفار أمر عمر بن الخطاب ﷺ أن ينادي فيهم بأن يقولوا: لا إله إلا الله؛ ليمنعوا بها أنفسهم وأموالهم، وأن عمر ﷺ فعل ذلك، فلما رفضوا أن يقولوا كلمة الإسلام، حمل المسلمون عليهم حملتهم الشديدة، فهزموهم بإذن الله.

لقد كان عَرْض الإسلام على الكفار المقاتلين، قبل بدء القتال، مبدأ إسلاميًا مقررًا مطبقًا في كافة الحروب الإسلامية التي خاضها سلف هذه الأمة، في الدعوة إلى الله، وتوطيد نظام الإسلام ومنهاجه في هذه الأرض، ما كان منها في عهد النبوة، وما كان منها في عهد الخلافة الراشدة.

ويلاحظ أنه اكتفى بعرض كلمة التوحيد على المقاتلين، فقط، ولم تُعرض عليهم الجزية، بعد أن أبوا الإسلام؛ لأن هؤلاء من مشركي العرب، الذين لا يُقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، كما تقرره كتب الفقه، وأشرنا إليه من قبل». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٩٨].

٥ ـ في غزوة بني المصطلق ما يثبت أن منهج رسالة الإسلام أن لا يهاجم أحد قبل دعوته إلى الإسلام:

يقول الشيخ عرجون: «هذه الروايات في سبب هذه الغزوة مما اتفق عليه أهل السير والمغازي، وهي متفقة مع منهج الرسالة الذي فصلنا القول فيه تفصيلًا في صدر الكلام على غزوات النبي ﷺ لا يترك فيه مجالًا للشك، وقد سجلنا هذا المنهج في كتابنا (سماحة الإسلام) بأسانيده من السنة وأعمال الراشدين في صدر الكلام على مشروعية جهاد القتال في الإسلام.

وفي هذا التفصيل هنا وهناك أوضحنا أن النبي ﷺ لم يهاجم قومًا بالحرب قبل أن يعرض عليهم الإسلام عرضًا بينًا، فإن أَبَوه طُلبت منهم الجزية عربًا أو غير عرب على القول الصحيح، فإن لم يستجيبوا لها قوتلوا وهم يعلمون، فلا يغدر بهم ولا يؤخذون على غرة؛ إن مشروعية جهاد في الإسلام إنما كانت لدفع الذين يقفون في طريق الدعوة إلى الله، والذين يعوقون سير الرسالة في التبليغ بالقوة والحرب.

وقد ذكرنا ما روي في الصحيح من وصية النبي ﷺ لقواد بعوثه وسراياه ووصايا الصدِّيق، والفاروق من بعده ﷺ، وقد ذكرنا أن النبي ﷺ جيء إليه بقوم أسارى أُخذوا قبل أن يعرض عليهم الإسلام فأطلقهم وردهم إلى مأمنهم.

وقد اتخذ ولاة الأمر الصالحون هذا المنهج ديدنهم ودأبهم، فلم يهاجموا أحدًا إلا بعد إعذار يقطع حجته بعرض الإسلام عليه وإعطائه فرصة الاختيار ليسلم أو يستسلم.

بيد أن البخاري ومسلمًا ذكرا في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عون ما يدل على خلاف ما بيناه هنا في أصل مشروعية الجهاد لحماية الدعوة إلى الله، ونشر رسالة الإسلام من أن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون ـ أي غافلون ـ فأوقع بهم وقتل من رجالهم من قتل، وأسر سائرهم، وسبى نساءهم وذراريهم وغنم أموالهم من النعم والشاء ومتاع المنازل.

روى البخاري ومسلم وغيرهما: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ شَقِيقٍ أَخْبَرَنَا عَبْدُ الله أَخْبَرَنَا ابْنُ عَوْنٍ قَالَ: كَتَبْتُ إِلَى نَافِعٍ فَكَتَبَ إِلَيَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَغَارَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ، وَأَنْعَامُهُمْ تُسْقَى عَلَى الْمَاءِ، فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ وَسَبَى ذَرَارِيَّهُمْ، وَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ جُوَيْرِيَةَ، حَدَّثَنِي بِهِ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما، وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْجَيْشِ.

ولفظ مسلم: عَنْ ابْنِ عَوْنٍ قَالَ: كَتَبْتُ إِلَى نَافِعٍ أَسْأَلُهُ عَنْ الدُّعَاءِ قَبْلَ الْقِتَالِ؟ قَالَ: فَكَتَبَ إِلَيَّ: إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، قَدْ أَغَارَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ، وَأَنْعَامُهُمْ تُسْقَى عَلَى الْمَاءِ، فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ، وَسَبَى سَبْيَهُمْ، وَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ ـ قَالَ يَحْيَى أَحْسِبُهُ قَالَ ـ جُوَيْرِيَةَ، أَوْ قَالَ: الْبَتَّةَ ابْنَةَ الْحَارِثِ.

وقَالَ أَبُو دَاوُد بعد إيراده: هَذَا حَدِيثٌ نَبِيلٌ، رَوَاهُ ابْنُ عَوْنٍ عَنْ نَافِعٍ، وَلَمْ يُشْرِكْهُ فِيهِ أَحَدٌ.

[سبق تخريجه].

قال اليعمري في (العيون): وقد أشار ابن سعد إلى هذه الرواية، وقال: الأول أثبت.

وابن سعد بعد أن ساق كلام أهل المغازي قال: وكان ابن عمر يحدِّث أن النبي ﷺ أغار عليهم وهم غارون ونعمهم تستقي على الماء، فقتل مقاتلتهم، وسبى ذراريهم، والأول أثبت ـ أي قول أهل المغازي ـ وهو أن بني المصطلق، وكان رأسهم وسيدهم الحارث بن أبي ضرار، فسار في قومه ومن قدر عليه من العرب فدعاهم إلى حرب رسول الله ﷺ فأجابوه، وتهيؤوا للمسير معه إليه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث بريدة بن الحصيب الأسلمي يعلم علم ذلك، فأتاهم ولقي الحارث بن أبي ضرار وكلمه، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبرهم، فندب رسول الله ﷺ الناس إليهم، وسار بهم حتى بلغ (المريسيع)، فضرب عليه قبته، وتهيأ الفريقان للقتال، وتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر رسول الله ﷺ أصحابه فحملوا عليهم حملة رجل واحد، فما أفلت منهم إنسان.

وعبارة ابن إسحاق: فَتَزَاحَفَ النَّاسُ وَاقْتَتَلُوا، فَهَزَمَ اللهُ بَنِي المصْطَلِقِ، وَقُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ، وَنَفَّلَ رَسُولُ الله ﷺ أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَفَاءَهُمْ عَلَيْهِ.

ويقول ابن حجر: وَالَّذِي فِي الصَّحِيح مِنْ حَدِيث اِبْن عُمَر يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَغَارَ عَلَيْهِمْ عَلَى حِين غَفْلَة مِنْهُمْ فَأَوْقَع بِهِمْ، وَلَفْظه «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَغَارَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِق وَهُمْ غَارُّونَ وَأَنْعَامهمْ تُسْقَى عَلَى المَاء، فَقَتَلَ مُقَاتِلَتهمْ وَسَبَى ذَرَارِيَّهمْ».

محاولة ابن حجر التوفيق بين رواية أهل السير والمغازي ورواة الصحيح، وهم أثبت وأوثق:

ثم أخذ ابن حجر في محاولة التوفيق بين رواية أهل المغازي، ورواية الصحيحين فقال: يحتمل أن يكون حين الإيقاع بهم ثبتوا قليلًا، فلما كثر فيهم القتل انهزموا، بأن يكون لما دهمهم وهم على الماء ثبتوا وتصافوا ووقع القتال بين الطائفتين، ثم بعد ذلك وقعت الغلبة عليهم.

ثم أشار ابن حجر إلى كلام اليعمري في (العيون) وذكره لحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من صحيح مسلم فقال: وَالْحُكْم بِكَوْنِ الَّذِي فِي السِّيَر أَثْبَت مِمَّا فِي الصَّحِيح مَرْدُود، وَلَا سِيَّمَا مَعَ إِمْكَان الْجَمْع.

وفي طريقة ابن حجر للجمع تعسف في التأويل.

وأحسن طريق للجمع بين ما ذكره أصحاب السير والمغازي، وما جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من أن النبي ﷺ أوقع ببني المصطلق وهم غارون، وأنعامهم تسقى على الماء: أن معنى غارون غافلون، أي مشغولون بسقي نعمهم حين وصول النبي ﷺ بكتائب المجاهدين إليهم، وهذا لا

ينافي أنهم كانوا متأهبين لحربه ﷺ بجموعهم التي جمعوها واستعدوا بها لمهاجمته ﷺ، ولكنهم لم يبدؤوا السير لهذا الهجوم، ومن كان على مثل حالهم لا تجدد له الدعوة، وإنما يؤخذ بالحرب والقتال على أي صورة يوجد عليها وتُمَكِّن من هزيمته.

أما الدعوة التي زعم نافع رحمه الله أنها كانت في أول الإسلام ثم نسخت، فلم يثبت قط في رواية صحيحة أو عمل من جهاد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين وصالحي ولاة الأمر في أمته نسخها، بل ظلت باقية في كل جهاد قتالي قامت به جيوش المسلمين في عصور الاستقامة والعدل وقصد إعلاء كلمة الله.

والذي قاله نافع رحمه الله في رده على ابن عون من أن الدعوة قبل القتال كانت في أول الإسلام إنما هو اجتهاد لم يَذكر له نصًّا يدل عليه، فلا يقاوم النصوص الثابتة عن رسول الله ﷺ وعن خليفتيه أبي بكر الصديق، وعمر الفاروق رضي الله عنهما، وقد جرى الأمر من بعدهما على ما جريا عليه.

وقول نافع رحمه الله: إن الدعاء قبل القتال كان في أول الإسلام يقتضي أن الدعاء قبل القتال كان منصوصًا ثم نُسخ، ولم يثبت له نص ناسخ، فادعاء النسخ غير صحيح إلا إذا ثبت الناسخ، وليس ثمة ناسخ، فالدعاء قبل القتال ثابت باق في الإسلام لكل من لم تبلغه دعوة هذا الدين، بلاغًا بينًا.

وقد قدمنا أنه ثبت في بعض روايات القصة أن النبي ﷺ أمر عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه أن ينادي في بني المصطلق بقوله: «**قولوا: لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم**»، وهذا توكيد لشرعة الدعاء قبل القتال، وليس دعاء مبتدأ؛ لأن بني المصطلق كانوا ممن بلغتهم دعوة الإسلام، فتأهبوا لمهاجمته بما جمعوه من شراذم القبائل التي انضوت إليهم، ثم لم يلبثوا لأول ما ذاقوا طعم الموت في حد السيوف وطعنات السنان أن فروا منهزمين، فأخذوا فلم يفلت منهم أحد.

صدق نافع في روايته عن مولاه ابن عمر ووجوب تأويل كلامه:

وقول نافع: وحدثني بهذا الحديث ابن عمر ـ وكان في ذلك الجيش ـ قول صدق لا يرد على نافع؛ لأنه في روايته ثقة صدوق، ولا سيما عن مولاه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ولكن الكلام له احتمال لا ينافي صدق نافع في روايته عن مولاه ابن عمر، ولا ينافي أن الدعاء قبل القتال باقٍ لم ينسخ، وأن بني المصطلق بلغتهم دعوة الإسلام وعرفوه معرفة ترفع وجوب دعائهم إليه إلا من باب التوكيد، ولكنهم كذبوا به واستكبروا في الأرض بغير الحق عنادًا وكفرًا، وأعدوا لحرب رسول الله ﷺ الجموع التي جمعوها وتأهبوا للهجوم، فسار إليهم رسول الله ﷺ بكتائب المجاهدين قبل أن يسيروا إليه، ففاجأهم على ماء (المريسيع)، فلما وصل إليهم زاحفوا أصحابه ورموه بالنبال، وقاتلوهم، فأمر رسول الله ﷺ كتائب الجهاد أن يحملوا عليهم حملة رجل واحد، فهزموهم، وقتلوا منهم بعضهم، وأسروا سائرهم.

وقد ذكرنا الاحتمال الذي يتم به التوفيق بين روايات أصحاب السير والمغازي، وظاهر حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وهو أن المعنى: غارون، أي غافلون مشغولون في سقي أنعامهم على الماء، ولم يتوهموا قط أن أخبار تجمعاتهم بلغت النبي ﷺ، وأنه ﷺ تحرك بكتائب المجاهدين في وجههم، فلقي جموعهم على ماء (المريسيع) فزاحفوهم وتراموا بالنبال، وحمل عليهم أصحاب رسول الله ﷺ فصدقوا الحملة وأصابوهم فلم يفلت منهم إنسان.

والغفلة التي هي معنى الغرة كانت حين شغلهم بسقي نعمهم وشائهم، ولم تكن غفلة عن الإسلام ودعوته؛ لأنهم كانوا على علم به، وبرسالته، ولكنهم أخذوا في تجميع الجموع لحرب رسول الله ﷺ ومجتمعه المسلم ليستأصلوهم، فبادرهم ﷺ بعد أن تأكد من أخبارهم وأخبار تجمعاتهم والتقى بهم بجيشه، وقاتلهم وقاتلوه، بيد أنهم لم يصبروا على عض السيوف وطعن الرماح، فانهزموا أمام حملة المجاهدين، وقتل منهم عشرة رجال، وأخذ سائرهم أسرى، فالغرة التي في حديث ابن عمر كانت غفلة طارئة شغلوا بها في سقي أنعامهم، وفي فترة هذه الغفلة كانت الإغارة عليهم».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢١١-٢١٥].

٦ ـ هل كان هناك إنذار لبني المصطلق بالحرب على وجه الخصوص:

يقول د/ قريبي: «أما ما يتعلق بشأن بني المصطلق فللعلماء في ذلك قولان:

(أ) ذهب فريق من العلماء إلى أن رسول الله ﷺ، دعاهم قبل القتال، ولكنهم امتنعوا عن قبول الإسلام، وثبتوا للقتال، ودارت المعركة بين الفريقين، وكان النصر حليف المسلمين، وعلى رأس القائلين بهذا:

(١) ابْنُ إِسْحَاقَ: قَالَ حَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ وَعَبْدُ الله بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى ابْنِ حِبَّانَ، كُلٌّ قَدْ حَدَّثَنِي بَعْضَ حَدِيثِ بَنِي المُصْطَلِقِ، قَالُوا: بَلَغَ رَسُولَ الله ﷺ أَنَّ بَنِي المُصْطَلِقِ يَجْمَعُونَ لَهُ... الحديث.

وفيه: «فَلَمَّا سَمِعَ رَسُولُ الله ﷺ بِهِمْ خَرَجَ إِلَيْهِمْ حَتَّى لَقِيَهُمْ عَلَى مَاءٍ لَهُمْ يُقَالُ لَهُ المَرَيْسِيعُ، مِنْ نَاحِيَةِ قَدِيدٍ إِلَى السَّاحِلِ فَتَزَاحَفَ النَّاسُ وَاقْتَتَلُوا، فَهَزَمَ اللهُ بَنِي المُصْطَلِقِ وَقُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ».

[سيرة ابن هشام ٢/ ٢٩٠].

والحديث رجاله ثقات رجال الصحيح، ولكنه مرسل. (١)

---

(١) قال الألباني في تعليقه على فقه السيرة للغزالي ص ٣٠٨: «رواه بنحوه ابن جرير في تاريخه من طريق بن إسحاق بسنده مرسلًا، وكذلك رواه ابن هشام في «السيرة» وهذا الإسناد مع ضعفه ليس فيه أمر لعمر رضي الله عنه بعرض الإسلام، وقد أشار الزرقاني في شرحه على المواهب إلى ضعف هذه الزيادة، وحق له ذلك، فقد صح عنه ﷺ ما يقتضي ضعفها ثم ساق ما قاله ابن القيم في ذلك. انظر قول ابن القيم ص ١٠٩».

(٢) الواقدي: ذكر الحديث مطولًا وفيه: «انْتَهَى رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الْمُرَيْسِيعِ،... وَقَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى الْمَاءِ وَأَعَدُّوا وَتَهَيَّؤُوا لِلْقِتَالِ، فَصَفَّ رَسُولُ الله ﷺ أَصْحَابَهُ وَدَفَعَ رَايَةَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ﷺ وَرَايَةَ الأَنْصَارِ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ ﷺ ... ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ، فَنَادَى فِي النَّاسِ: **قُولُوا: لا إِلَهَ إِلا اللهُ تَمْنَعُوا بِهَا أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ**، فَفَعَلَ عُمَرُ ﷺ، فَأَبَوْا فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ رَمَى رَجُلٌ مِنْهُمْ بِسَهْمٍ فَرَمَى الْمُسْلِمُونَ سَاعَةً بِالنَّبْلِ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَحْمِلُوا، فَحَمَلُوا حَمْلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ...».

ثم قال: «وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يُحَدِّثُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَغَارَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ، وَهُمْ غَارُّونَ وَنَعَمُهُمْ تُسْقَى عَلَى الْمَاءِ فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ وَسَبَى ذَرَارِيَّهُمْ. وَالْحَدِيثُ الأَوَّلُ أَثْبَتُ عِنْدَنَا». [المغازي للواقدي ١/ ٤٠٤ـ٤٠٧].

(٣)(٤) وتابعه في هذا ابن سعد وابن سيد الناس، فقد ساقا القصة بدون إسناد وأشارا إلى حديث ابن عمر، ثم قالا: الأول أثبت. [طبقات ابن سعد ٢/ ٦٣، ٦٤ وعيون الأثر ٢/ ٩١- ٩٢].

(٥) أما ابن جرير الطبري فقد ساق حديث ابن إسحاق من طريقه [تاريخ الطبري ٢/ ٦٠٤]، ولكنه لم يتعرض لذكر حديث ابن عمر.

(٦) وساق ابن الأثير نحو قول ابن إسحاق بدون إسناد [الكامل ٢/ ١٩٢]، ولم يذكر حديث ابن عمر أيضًا.

وسكوت الطبري وابن الأثير وعدم إيرادهما حديث ابن عمر، قد يُفهم منه موافقتهما لابن إسحاق في رأيه.

(ب) وذهب الفريق الثاني من العلماء إلى أن رسول الله ﷺ أغار عليهم دون دعوة، وعلى رأسهم:

(١) ابن عبد البر: فقد صرح بأن رسول الله ﷺ أغار عليهم وهم غارون.

ثم قال: «وقيل إن بني المصطلق جمعوا لرسول الله ﷺ فلما بلغه ذلك خرج إليهم، فلقيهم على ماء يقال له المريسيع، فاقتتلوا فهزمهم الله». ثم عقب بقوله: «والقول الأول أصح: أنه أغار عليهم وهم غارون». [الدرر في اختصار المغازي والسير ص ٢٠٠].

(٢) ابن حزم فقد صرح بذلك أيضًا. [جوامع السيرة ص ٢٠٣].

(٣) ابن القيم: فقد ساق نحو قول ابن إسحاق وموافقيه.

ثم قال: هكذا قال عبد المؤمن [١] بن خلف في سيرته وغيره، وهو وهم، فإنه لم يكن بينهم قتال، وإنما أغار عليهم، على الماء فسبى ذراريهم وأموالهم، كما في الصحيح: «أَغَارَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ». [زاد المعاد ٢/ ١٢٥].

---

(١) هو الإمام العلامة الحافظ الحجة الفقيه النسابة، شيخ المحدثين، شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي، الشافعي، صاحب التصانيف (ت ٧٠٥هـ). تذكرة الحفاظ للذهبي ٤/ ١٤٧٧- ١٤٧٩، والشوكاني في البدر ١/ ٤٠٣-٤٠٤.

(٤) ابن كثير: فقد أورد رواية ابن إسحاق والواقدي بإسنادهما ثم عقب بقوله: وثبت في الصحيحين من حديث عبد الله بن عون قال: كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال، فقال قد أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهو غارون. الحديث. [البداية والنهاية ٤/ ١٥٦].

(٥) ابن حجر: فإنه بعد أن ساق قول ابن إسحاق، قال: هكذا ذكر ابن إسحاق بأسانيد مرسلة، والذي في الصحيح من حديث ابن عمر يدل على أنه أغار عليهم على حين غفلة منهم، فأوقع بهم، وساق الحديث.

ثم رام الجمع بينه وبين رواية ابن إسحاق بقوله: ويحتمل أن يكون حين الإيقاع بهم ثبتوا قليلًا، فلما كثر فيهم القتل انهزموا، بأن يكون لما دهمهم وهم على الماء ثبتوا وتصافُّوا، ووقع القتال بين الطائفتين ثم بعد ذلك وقعت الغلبة عليهم.

ثم قال: وقد ذكر هذه القصة ابن سعد نحو ما ذكر ابن إسحاق، وأن الحارث كان جمع جموعًا وأرسل عينًا تأتيه بخبر المسلمين فظفروا به فقتلوه فلما بلغه ذلك هلع (أشد الجزع والضجر)، وتفرق الجمع وانتهى النبي ﷺ إلى الماء هو المريسيع فصف أصحابه للقتال ورموهم بالنبل ثم حملوا عليهم حملة واحدة فما أفلت منهم إنسان، بل قتل منهم عشرة وأسر الباقون رجالًا ونساء.

ثم قال: وساق ذلك اليعمري في «عيون الأثر «ثم ذكر حديث ابن عمر ثم قال: أشار ابن سعد إلى حديث ابن عمر، ثم قال: الأول أثبت.

قال ابن حجر: قلت: والحكم بكون الذي في السير أثبت مما في الصحيح مردود، ولا سيما مع إمكان الجمع. [فتح الباري ٧/ ٤٣٠-٤٣١، وشرح المواهب اللدنية للزرقاني ٢/ ٩٨].

والصواب في هذا مع القائلين بأن رسول الله ﷺ أغار عليهم وهم غارون ذلك لما يلي:

(١) صحة حديث ابن عمر وصراحته في ذلك، وهو ثابت في الصحيح والسنن والمسانيد وغيرها.

(٢) صرَّح كثير من العلماء بأن من بلغته الدعوة العامة إلى الإسلام، أو قربت داره أو حاول النيل من المسلمين، أنه يجوز مباغتته على غرة.

[ينظر: شرح صحيح مسلم للنووي ٤/ ٣٤٣، وفتح الباري ٦/ ١١٢، ٧/ ٣٤٠، ٤٤٥، ٤٧٨، وشرح معاني الآثار للطحاوي ٣/ ٢٠٧- ٢١٠، والمدونة الكبرى لمالك ٢/ ٢، وتحفة الأحوذي ٥/ ١٥٥-١٥٦].

وهذه الأوصاف تنطبق على بني المصطلق، فقد بلغتهم الدعوة العامة وكانوا ضمن المتألبين مع قريش في معركة أحد، ضد المسلمين ولم يكتفوا بهذا بعد عودتهم إلى بلادهم بل أخذوا يجمعون الجموع ويَعِدون بضرب المسلمين، مما يدل على أنهم علم وبصيرة بالدعوة الإسلامية، ومثل هؤلاء لا تجب الدعوة في حقهم.

(٣) إن مستند القائلين، بأن رسول الله ﷺ أنذرهم هو حديث ابن إسحاق (علمًا بأن قول ابن إسحاق ليس صريحًا في إنذارهم، وإنما فيه مجرد وجود القتال بين الفريقين. وقد جمع ابن حجر بين ذلك)، والواقدي وكلا الحديث مرسل، والمرسل معدود في قسم الحديث الضعيف عند جمهور العلماء، وذلك للجهل بحال الراوي المحذوف؛ لأنه يحتمل أن يكون غير صحابي، وبالتالي يحتمل أن يكون ضعيفًا.

وإن اتفق أن المرسِل لا يروي إلا عن ثقة، فالتوثيق مع الإبهام غير كاف ولأنه إذا كان المجهول المسمى لا يقبل، فالمجهول عينًا وحالًا أولى. [ينظر: مقدمة صحيح مسلم ١/ ٢٤، ورسالة أبي داود إلى أهل مكة ص ٢٤، والكفاية للخطيب البغدادي ص ٥٥٠-٥٥٥، ومقدمة التمهيد لابن عبد البر ١/ ٥- ٦، ومقدمة ابن الصلاح ص ٧٣- ٧٥، والتبصرة والتذكرة للعراقي ١/ ١٤٨، والتقييد والإيضاح له ص ٧٣- ٧٥، والتقريب للنووي ص١١٩، «تدريب الراوي» وشرح مسلم له ١/ ٢٣، تدريب الراوي للسيوطي ص ١١٩، فتح المغيث للسخاوي ١/ ١٣٣، ١٣٥- ١٣٦].

(٤) إن الظاهر من صنيع القائلين بحجيته، فيما لو لم يوجد في الباب غيره كما صرح بذلك أبو داود وغيره، خلافًا للمالكية.

[رسالة أبي داود إلى أهل مكة ص ٢٥، وفتح المغيث للسخاوي ١/ ١٣٣، ومقدمة التمهيد لابن عبد البر ١/ ٦].

(٥) على فرض صحته فلا يقاوم الحديث المسند.

(٦) ذكر الدكتور أكرم العمري أنه: «لا يمكن معارضة آية قرآنية أو حديث صحيح برواية من كتب التاريخ والأدب».

وقال في موضع آخر: ولا شك أن مادة السيرة، في كتب الحديث موثقة يجب الاعتماد عليها وتقديمها على روايات كتب المغازي والتواريخ العامة.

وخاصة إذا أوردتها كتب الحديث الصحيحة؛ لأنها ثمرة جهود جبارة، قدمها المحدثون عند تمحيص الحديث ونقده سندًا ومتنًا، وهذا التدقيق والنقد الذي حظي به الحديث، لم تحظ به الكتب التاريخية.

[ينظر: نظرة في مصادر ودراسة السيرة النبوية لأكرم ضياء العمري ص ١، ٣].

[مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ١٠٦-١١٢].

٧ ـ جواز استرقاق العرب:

يقول د/ قريبي: «إن الأحاديث الواردة في ذلك من الكثرة والشهرة بمكان، وهو أمر معلوم في عهد رسول الله ﷺ وصحابته من بعده.

وسأقتصر على إيراد الأحاديث الواردة في غزوة بني المصطلق وهي:

١ـ حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عند البخاري ومسلم وغيرهما، وهذا سياق مسلم: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ يَحْيَى التَّمِيمِيُّ حَدَّثَنَا سُلَيْمُ بْنُ أَخْضَرَ عَنْ ابْنِ عَوْنٍ قَالَ: كَتَبْتُ إِلَى نَافِعٍ أَسْأَلُهُ عَنْ الدُّعَاءِ قَبْلَ الْقِتَالِ؟ قَالَ:

فَكَتَبَ إِلَيَّ: إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، قَدْ أَغَارَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ، وَأَنْعَامُهُمْ تُسْقَى عَلَى الْمَاءِ، فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ، وَسَبَى سَبْيَهُمْ، وَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ ـ قَالَ يَحْيَى أَحْسِبُهُ قَالَ ـ جُوَيْرِيَةَ، أَوْ قَالَ: الْبَتَّةَ [1] ابْنَةَ الْحَارِثِ.

وَحَدَّثَنِي هَذَا الْحَدِيثَ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ، وَكَانَ فِي ذَاكَ الْجَيْشِ.

وحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عَدِيٍّ عَنْ ابْنِ عَوْنٍ بِهَذَا الْإِسْنَادِ مِثْلَهُ، وَقَالَ: جُوَيْرِيَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ وَلَمْ يَشُكَّ. [مسلم في الجهاد والسير (١٧٣٠)].

٢ـ وفي حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فَأَصَبْنَا سَبْيًا مِنْ سَبْيِ الْعَرَبِ، فَاشْتَهَيْنَا النِّسَاءَ، فَاشْتَدَّتْ عَلَيْنَا الْعُزْبَةُ، وَأَحْبَبْنَا الْعَزْلَ...

[سيأتي تخريجه في حكم العزل].

٣ ـ حديث عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ ﵂ قَالَتْ: لـمَّا قَسَمَ رَسُولُ الله ﷺ سَبَايَا بَنِي الـمُصْطَلِقِ وَقَعَتْ جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ فِي السَّهْمِ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ، أَوْ لِابْنِ عَمٍّ لَهُ، وَكَاتَبَتْهُ عَلَى نَفْسِهَا... الحديث.

وفيه: «فَلَقَدْ أَعْتَقَ بِتَزْوِيجِهِ إِيَّاهَا مِائَةَ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فَمَا أَعْلَمُ امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَى قَوْمِهَا مِنْهَا». [أبو داود ٢/ ٣٤٧ كتاب العتق، وأحمد ٦/ ٢٧٧، والبيهقي ٩/ ٧٤ وأصله في الصحيحين من حديث ابن عمر ﵄].

وبهذه الأحاديث وغيرها قال جمهور العلماء بجواز استرقاق العرب كغيرهم من سائر الكفار من الأعاجم من يهود ونصارى وغير ذلك.

وقد بوب البخاري بقوله «باب من ملك من العرب رقيقًا فوهب وباع وجامع وفدى وسبى الذرية» ثم أورد جملة أحاديث منها حديث عبد الله بن عمر وحديث أبي سعيد. [البخاري ٣/ ١٢٩ كتاب العتق].

قال ابن حجر: هذه الترجمة معقودة لبيان الخلاف في استرقاق العرب، وهي مسألة مشهورة، والجمهور على أن العربي إذا سبي جاز أن يسترق، وإذا تزوج أمة بشرطه كان ولدها رقيقًا.

وخلاصة القول في هذا هو جواز استرقاق العرب لا فرق بين ذكورهم وإناثهم، وهو قول جمهور العلماء. [ينظر: شرح النووي على مسلم ٣/ ٦١٤، ٤/ ٣٣١، وفتح الباري ٥/ ١٧٠ - ١٧٣، وسبل السلام للصنعاني ٤/ ٤٥، ونيل الأوطار ٧/ ٢٤٦، ٨/ ٧- ٨]. [مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٤٤٧-٤٥٥].

---

(١) قال النووي: في شرحه على صحيح مسلم ٤/ ٣٣٠: أما قوله أو ألبتة فمعناه: أن يحيى بن يحيى قال: أصاب يومئذ بنت الحارث، وأظن شيخي سليم بن أخضر سماها في روايته: جويرية، أو أعلم ذلك، وأجزم به، وأقول ألبتة، وحاصلة أنها جويرية فيما أحفظه إما ظنًّا وإما علمًا.

٨ ـ إبطال الشبهة التي أثيرت حول الرق في الإسلام [(١)]:

يقول اللواء عون: «الرقيق في الأصل ناشئ من أسرى الحروب، والحروب لا تنتهي بين الأمم، فالرقيق معروف لديها جميعًا، وقد كان العبد في أقدم الشرائع وهي شريعة موسى عليه السلام، يُسترَق ست سنوات، ثم يعتق بعدها ويُعامل بالحسنى، كما جاء في الكتاب المقدس: «**إذا اشتريت عبدًا عبرانيًّا فستُّ سنين يخدم، وفي السابعة يخرج حرًّا مجانًا**». [العهد القديم، إصحاح ٢١ من سفر الخروج].

وجاء فيه أن إبراهيم عليه السلام، كان صاحب إماء وعبيد، وأن زوجته هاجر كانت في الأصل أَمَة مصرية، وأن يوسف عليه السلام بِيع عبدًا لحاكم مصر [ينظر: سفر التكوين: آيات ١٤، ١٥، ١٦، ٢٣]، كما قرر القرآن في قصته، ومن تلك القصة القرآنية، ومن الإصحاح الذي ذكرها، يفهم المرء أن الشرائع القديمة كانت تجازي السارق بالاسترقاق: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ [يوسف: ٧٥]، وقد نُفِّذ الحكم بأن أخذ يوسف عليه السلام أخاه لنفسه، في نظير مكياله الذي سرقه، دون أن يجد على ذلك اعتراضًا.

وقد كانت الدولة البيزنطية تعطي السيد حق التصرف المطلق في عبده، فيميته أو يبيعه كما يشاء [الإسلام والحضارة العربية ـ محمد كرد علي ١/ ٩٤، وفون كريمر ص ٣٣٢]، وقد زاد الرقيق فيها زيادة تلفت النظر، لعدم الرغبة في عتقه، حتى بلغ عدد العبيد في بعض عصورها، ثلاثة أرباع الأحرار من أبنائها، وظل العبيد يلقَون شر المعاملات، حتى جاء الإمبراطور العادل «**كلوديوس**» فأمر بإعتاقهم جميعًا، حتى احتلوا الوظائف الإدارية وصاروا ينافسون حكام روما، ولكن سرعان ما عادت معاملتهم إلى سابق عهدها، فصار العبد يباع بيْع السلع، ويُحرم من كثير من الحقوق المدنية والتعليمية، ولم تستطع الكنيسة إصلاح حاله، أو رفع الظلم عنه. [نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية ـ تعريب مؤنس وزايد ط ١٩٥٠م ص ٧٥].

بل إن تلك الدولة كانت تعد تجارة الرقيق من أهم مواردها، فكانت تحصِّل مكوسًا على العبيد والغلمان والخصيان [نورمان بينز ص ١٦٣]؛ لتضاعف ميزانيتها، ومع ذلك كانت تمنعه من تعلم القراءة والكتابة، وتعاقب من يخالف ذلك منهم عقابًا شديدًا، وذلك لاستفادة السادة من جهل عبيدهم. [وسترمارك، نقلًا عن الإسلام والحضارة العربية ١/ ٤٩].

أما الإسلام: فقد عامل الرقيق باللطف والعدالة، وكثيرًا ما كان الرسول ﷺ يعمل على الإقلال منه، بالعفو عن الأسرى أو قبول فدائهم، فكتُب المغازي تروي أنه بعد انتصاره على «**بني المصطلق**» وتوزيع السبي بين الجند، تزوج بنت زعيمهم، السيدة **جُويرية بنت الحارث** رضي الله عنها ليبادر أصحابه إلى

---

(١) للتوسع في هذا الموضوع ينظر: موسوعة الفقه الإسلامي المعاصر ـ د/ عبد الحليم عويس ٣/ ٣١٣-٣٣٣ ـ دار الوفاء ـ المنصورة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

إطلاق أهلها، الذين أصبحوا أصهار رسولهم، وفعلًا أعتق المسلمون ـ إكرامًا لها ـ أهلَ مائة بيت من قبيلتها. [السيرة الحلبية ٢/ ٢٩٨، ومحاضرات الخضري في السيرة ص ١٢٤].

ومرة أخرى جاءه وفد «**هوازن**» يطلبون سباياهم بعد توزيعها، ويتركون له أموالهم فأوحى إليهم سرًّا أن يستشفعوا به لدى المسلمين، عقب انصرافه من الصلاة، فلما كلموه أطلق لهم أسراهم، ووعد المتمسك بحقه من الجند، أن يدفع له ست نياق لقاء أسيره الذي يطلقه [الماوردي في الأحكام السلطانية ص ١٢٩ إلى ١٣٢ وكتب السيرة المختلفة]، فأي تحايل شريف على منح الحرية للناس كذلك التحايل؟!

والرسول ﷺ كثيرًا ما أوصى أصحابه بحسن معاملة الرقيق، فأمرهم ألا يُكلفوا عبيدهم فوق طاقتهم من الأعمال، وأن يساعدوهم إذا كلفوهم، وأمرهم أن يطعموهم مما يَطعمون، ويكسوهم مما يلبسون، وشجع العبيد على حضور مجالس العلم، والتزود من المعرفة، وكان أصحابه ينفذون تعليماته بكل دقة، فكانوا يؤثرون الأسير على أنفسهم بجيِّد الطعام، لدرجة كانت تجعله يشعر بالخجل[ابن هشام بهامش الروض الأنف ص ٧٨]، وكان الأسرى ينالون قسطهم وافيًا من الطعام والمعاملة الحسنة [الخضري: تاريخ الدولة العباسية ص ٢١٢]، في حين يلقى الأسرى في القرن العشرين، ما تشيب لهوله الولدان من التعذيب والحرمان. (قلت: ما بالك بما يحدث في القرن الواحد والعشرين، وعلى سبيل المثال أسرى «**جوانتانامو**» ولا عزاء لحقوق الأسرى واتفاقية جنيف...!).

وفي الوقت الذي نرى فيه الروم يجعلون للسيد حق إهلاك عبده، ومنعه من التعليم، نسمع عمر بن الخطاب ﷺ يقول في جواز أمان العبد المسلم إذا أمَّن أحد الأعداء: «**عبد المسلمين من المسلمين، وذمته من ذمتهم، يجوز أمانه**». [أبو يوسف: الخراج ص ١٢٦].

فأي سموٍّ بالرقيق ذلك السموُّ، الذي يجعل كلمته محترمة، سارية على سادته في حال القتال؟

هذا وقد حرص الإسلام الحرص كله، على تحرير الأرقاء وفك الرقاب، فقد جعل عتق العبد أحد أبواب ثمانية، من مصارف الزكاة، فالعبد يساعَد من أموالها في سداد أقساطه لسيده، ليصير بعد أدائها حرًّا، قال تعالى في مصارف الزكاة: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [التوبة] [الآيات بترتيب ذكرها في سورة البقرة ١٧٧، والنساء ٩٢، والمجادلة ٣، والتوبة ٦٠، والبلد ١٣]، فجعل للعبد الحق في أن يشتري نفسه من سيده، بمال يتفقان على قدره ومواعيد دفعه، وفتح للأَمَة سبيل الحرية إذا أولدها سيدها، وجعل عتق الرقبة كفارة كثير من المخالفات التي يرتكبها المسلم، وما أكثر المخالفات من النفوس البشرية، فجعل العتق كفارة القتل الخطأ: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾[النساء: ٩٢]، وجعله

بالتخيير في كفارة اليمين، إذا حنث فيه صاحبه: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩]، وجعله كذلك كفارة الظهار ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المجادلة: ٣].

بل إنه رغَّب في العتق لغير تلك المخالفات، فجعله طريقًا من طرق شكر الله على نعمته، قال تعالى يخاطب الإنسان: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ [البلد].

حقيقة إن الإسلام جعل العبد نصف الحر، في المعاملات الاجتماعية والشهادة وغيرها، ولكن هذا الفارق قد يكون هو الوحيد بين العبد وسيده، ومع هذا فقد رأينا السادة الروم يستفيدون من جهل عبيدهم، ورأينا السادة المسلمين يُعنون بتعليم عبيدهم وإمائهم حتى لمع نجم الكثير منهم في ميدان العلوم والفنون، ويكفي أن نعرف أنه من بين الأرقاء المسلمين، العلامة «**ياقوت**» صاحب معجم البلدان والمؤلفات القيمة، الذي طار ذكره في الناس [بتلر في فتح العرب لمصر ص ٣١]، كما كان من بين الإماء المثقفات من حذَقت الغناء، وأجادت الموسيقى والأدب، ودرست علوم الشرع المختلفة، حتى جذبت لها أنظار الأمراء، وزاحمت الحرائر في قصور الخلفاء، وبخاصة في الدولة العباسية، التي كان معظم خلفائها أبناء الجواري المملوكات.

هذه معاملة الإسلام للأسير بعد استرقاقه، وقد رأينا معاملة الرسول ﷺ له حتى في الميدان، وهذا لا يمنع المرء من ذكر بعض المعاملات القاسية، التي كانت تبدر من بعض القادة للأسرى، وهم القادة الذين كانوا معروفين بالإسراع إلى سفك الدماء **كخالد بن الوليد** ﷺ الذي قال فيه الفاروق: «**إن في سيف خالد لرهَقًا**»، والذي أقسم يومًا، لئن نصره الله على أعدائه لَيُجرين النهر بدمائهم، **وكيزيد بن المهلب** ﷺ الذي يُروى عنه أنه أعاد فتح «جُرجان فأخذ أسراهم»، وصلبهم فرسخين، إلى يمين الطريق ويساره، وقاد منهم ١٢٠٠٠ إلى وادي جرجان، وقال: مَنْ طلبهم بثأر فليقتل، فكان الرجل من المسلمين، يقتل الأربعة والخمسة، وقيل: إنه قتل منهم ٤٠٠٠٠ من الأسرى. [**ابن الأثير: الكامل ٥/ ١٤**].

وإذا كنا ندافع عن هؤلاء القادة بأنهم كانوا يريدون إرهاب عدوهم القوي، فكيف الدفاع عن غيرهم؟ لقد لوحظ السرف في الدماء أيضًا على **الحجاج بن يوسف** وكان إسرافه ظاهرًا في قتل أسرى «**دير الجماجم**» التي انتصر فيها على الثائر **محمد بن الأشعث** لدرجة أن **الخليفة عبد الملك** لامه بقوله: «**أما بعد، فقد بلغ أمير المؤمنين سَرَفُكَ في الدماء وتبذيرك في الأموال، ولا يحتمل هاتين الخصلتين لأحد من الناس**». [**المسعودي في مروج الذهب ٣/ ١٤١**].

ويظهر أن بعض القادة الأمويين والعباسيين، كانت تلعب بهم الأهواء السياسية والنزعات النفسية، لبعدهم عن زمن الرسالة، وعهد الخلافة فرأيناهم يُنكلون بالأسرى، ويخلفون الوعد والأمان اللذيْن أوجب الإسلام احترامهما.

فهذا «**ابن الأشعث**» يسلك سبيل أستاذه الحجاج، عندما ثار به بعض قادته (١٤٧هـ/ ٧٦٥م) فإنه حاربه حتى قتله وهرب عنه أصحابه، ولكن ابن الأشعث أعطاهم الأمان ليعودوا، فلما عادوا قتلهم جميعًا [**الكامل ٥/ ١٢١**]، وهل الغدر شيء غير هذا؟

بل إن آخر خلفاء بني أمية **مروان بن محمد** «عُرف عنه في الناس أنه كان يقتل أسراه جميعًا إلا العبيد، فكان الكثير منهم يدَّعون أنهم عبيد [**الكامل ٥/ ١٤٥، ١٤٩**]؛ ليَخلصوا من ظلمه.

وأيًّا ما كان الأمر، فهذه أمثلة فردية، تشهد بمخالفتها للتشريع الإسلامي العام، والقواعد التي جرى العمل بها في صدر الإسلام، وإنما ذُكرت إحقاقًا للحق؛ وليظهر للناس أن المسلمين كغيرهم، فيهم الفاتك وفيهم المقتصد، وإن كان الفاتك فيهم، لم يبلغ ما بلغه المسرفون في الدماء من الرومان، أو المغول أو الأتراك أو البيزنطيين.

ونهاية القول: إن الإسلام كان يرعى حق الأسير، فلا يلقيه في المعتقلات حتى يموت جوعًا وعريًا، ولا يكلفه من الأعمال ما يقصم ظهره، على النحو الذي تعامل به الأسرى، في عصر النور والمدنية، وعلى أيدي المثقفين من أبناء الأمم الغربية، التي تدَّعي أنها حامية الحضارة في العالمين، ثم تَسترِق الشعوب والأفراد، وتعترف في قوانينها بالتفرقة بين السود والبيض، وتخص الزنوج في بلادها بمعاملة يأباها الطبع السليم، والذوق الإنساني الكريم.

وهكذا نرى الإسلام في فجره يفك الرقيق، والعصر الحاضر في حضارته يسترق الأحرار، سواء أكانوا أفرادًا أو جماعات». [**الفن الحربي في صدر الإسلام لعون ٢٩٩-٣٠٤**].

ويقول د/ يونس: «يحمل المغرضون حملة شعواء على الإسلام من جهة أنه لم يبطل أمر الرق بالكلية، بل أقره وجعل له أحكامًا وتشريعات ذات أصول وفروع فيه.. مع أن المسلمين يقولون إنه دين الحرية والمساواة واحترام حقوق الإنسان، فأي مساواة بين مَنْ هو حر طليق وبين مَنْ هو كالسلعة التي تُعرض في الأسواق للبيع والشراء وتتداولها الأيدي المتعددة... إلى آخر ما شنعوا به من أمور حسبوا أنها توصلهم إلى ما يريدون من خداع الناس وغشهم وإلباس الحق بالباطل عليهم، وفتنتهم عن دين الله، وصرفهم عن سبيله القويم.

والإسلام بحججه وقوة أدلته وحِكم شرائعه كالطود الأشم لا يتأثر بهذه الأقوال المموهة والأباطيل المكشوفة وهم بالنسبة إليه:

كَنَاطِحٍ صَخْرَةً يَوْمًا لِيُوهِنَهَا فَلَمْ يَضِرْهَا وأَوْهَى قَرْنَهُ الوَعِلُ

وقليل من النظر المنصف يظهر أن هذه الشبهة: ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾[النور: ٣٩]، فالرق أمر قديم بقدم الإنسان، ومعروف من أول عصور التاريخ، وكانت له أسباب متعددة دفعت إليه، فالقوي كان يسترق الضعيف معتمدًا على قوته ليسخره في عمله، وكانت النفوس مطبوعة على المحاربة وشن الغارات لسبب أو لغير سبب، فكان الغالب يتسلط على كل من في ولايته من نساء وأطفال فيجعلهم أرقاء، وقد أدى فساد الأخلاق والجهالة بالحقوق إلى سرقة الأطفال وبيعهم في أسواق النخاسة.

حتى بعد أن وُجدت القوانين كان للرق فيها أسباب بالغة منتهى العسف والتجبر، فقد كان في روما أن المدين إذا أفلس ولم يستطع قضاء ما عليه كان رقيقًا للدائن، وقد أقرت الديانتان اليهودية والنصرانية أمر الرق وشرعتا له الأحكام، كما يدل على ذلك كتب العهدين القديم والجديد اللذين يعترف بهما مثيرو هذه الشبهة من النصارى.

وكان العرب قد فُطروا على شن الغارات وإقامة المعارك، وكانوا يسترق بعضهم بعضًا في هذه الحروب، ويشترون الأرقاء من هذه البلاد التي يتجرون فيها، ولم تكن لهم عقارات يستغلونها ولا أرض يزرعونها، فكانت معيشتهم تقوم على رعاية الماشية، فكان وجود الأرقاء لخدمتهم ورعاية ماشيتهم من ضرورات حياتهم، فبعث الله تعالى نبيه ﷺ بالإسلام والناس كما وصفنا وحال الرق بينهم كما أوضحنا، فلو جاء الإسلام بإبطاله مرة واحدة، لتعرض أولًا لهدم حياة الأمة العربية التي بُعث فيها نبيهم ﷺ، وبالتالي إلى شدة مخالفتهم له واجتماعهم على مقاومة دعوته بقدر ما يملكون من قوة، فإن التعرض للأرقاء هو أشد ما يدفع الأمة العربية إلى المقاومة والمناضلة دفاعًا عن حياتها.

يدلك على ذلك أن قادة الإنجليز عندما فتحوا السودان ونادوا بإبطال الرق ما كاد الأرقاء يسمعون بهذا الأمر حتى خرجوا من بيوت سادتهم لا يملكون أية وسيلة يكتسبون بها عيشهم، فلم يمض غير أسبوع واحد حتى لم يجدوا ما يأكلون، وكانوا يفتشون في أرواث الدواب عن بعض حبات من الشعير ليغسلوها ويأكلوها ففشت فيهم الأمراض والأوبئة، وتعطلت مصالح سادتهم الذين كانوا يأنفون العمل بأنفسهم، فبارت الأرض وساءت الحال، فبادرت الحكومة بأمر الأرقاء إلى العودة إلى بيوت ساداتهم، ثم عملت على إبطاله على التدريج كما هي سياسة الإسلام وشريعته الحكيمة الحقة، فلو أن

رسول الله ﷺ جاء بإبطاله دفعة واحدة لخرج الأرقاء لا يجدون أي مصدر للرزق، فإما أن يرجعوا إلى سادتهم فينضموا إليهم في محاربة دعوته، وإما أن يطالبوا الرسول ﷺ بأرزاقهم فيضطر النبي ﷺ إلى أن يشتغل بالإغارة والنهب ـ وما هو بفاعل ـ بدل أن يشتغل بنشر دين الله والدعوة إلى الحق والخير؛ لهذا كله سلك النبي ﷺ سبيل تضييق الرق إلى أقصى حد ممكن، فحصر أسبابه الكثيرة في سبب واحد، وهو الحرب بين الكفار والمسلمين لإعلاء كلمة الله.

فيعرض المسلمون عليهم الإسلام أو الجزية قبل الشروع في قتالهم، فإذا اختاروا أحدهما كان لهم ما للمسلم وعليهم ما عليهم، وإن أبوا قاتلهم المسلمون، فإن أسروهم كانوا أرقاء للمسلمين بعد اختيار الإمام رقهم، وهم الذين جنوا على أنفسهم باعتدائهم على الحق وأهله فيستحقون أن يجازوا من جنس ما اقترفوا.

وجعل الإسلام للإمام حق تخليصهم من الرق بالمن أو الفداء، فإذا صاروا أرقاء لم ينسد عليهم باب الحرية بل جعل لحريتهم أسبابًا كثيرة نذكر منها ما يأتي:

أولًا: جعل لإعتاق الأرقاء وإعانة المكاتبين سهمًا في مصارف الزكاة، فقال تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾[التوبة].

ثانيًا: جعل الإسلام إعتاق الرقاب كفارة للجرائم والأخطاء التي يرتكبها المسلم، مثل كفارة القتل والظهار والإيلاء واليمين والجماع في نهار رمضان عامدًا.

ثالثًا: ومن أسباب تحرير الرقاب الكتابة، وهي عقد بين السيد ورقيقه على أن يؤدي عملًا أو مالًا على نجمين أو أكثر، فإذا أداه فهو حر، وقد ندب السيد وغيره إلى إعطائه شيئًا من المال يعينه على أداء النجوم، وندب السيد إلى أن يحط عنه شيئًا منها إذا لم يعطه قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾[النور: ٣٣].

رابعًا: إذا نذر السيد العتق نذرًا منجزًا لزم في الحال أو معلقًا لزمه عند حصول ما علق عليه.

خامسًا: إذا أتت الأَمَةُ بولد من سيدها كانت حرة بعد موته، وتبعها أولادها من سيدها، كما يدل لذلك ما جاء عن عبد الله بن عمر من رواية مالك قال: **نهى عمر** ﷺ **عن بيع أمهات الأولاد، لا تباع ولا تُوهب ولا تُورَّث، يستمتع بها ما بدا له، فإذا مات فهي حرة**، ولا يقول ذلك عمر ﷺ إلا بتوقيف من رسول الله ﷺ، فليس مما يقال فيه بالرأي والاجتهاد.

سادسًا: وقد رغب الإسلام في تحرير الرقاب ترغيبًا عظيمًا فجعله سببًا في العتق من النار.

روى البخاري ومسلم عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيُّمَا امْرِئٍ مُسْلِمٍ أَعْتَقَ امْرَأً مُسْلِمًا اسْتَنْقَذَ اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ**».

[مسلم في العتق (١٥٠٩)، والترمذي في النذور والأيمان (١٥٤٧)، وأحمد عن أبي هريرة ﷺ (١٠٤٢٢)].

وروى أحمد وابن حبان والبيهقي عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي عَمَلًا يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، فَقَالَ: «**لَئِنْ كُنْتَ أَقْصَرْتَ الْخُطْبَةَ لَقَدْ أَعْرَضْتَ الْمَسْأَلَةَ، أَعْتِقِ النَّسَمَةَ، وَفُكَّ الرَّقَبَةَ**»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَوَلَيْسَتَا بِوَاحِدَةٍ؟ قَالَ: «**لَا، إِنَّ عِتْقَ النَّسَمَةِ أَنْ تَفَرَّدَ بِعِتْقِهَا، وَفَكَّ الرَّقَبَةِ أَنْ تُعِينَ فِي عِتْقِهَا، وَالْمِنْحَةُ الْوَكُوفُ، وَالْفَيْءُ عَلَى ذِي الرَّحِمِ الظَّالِمِ، فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذَلِكَ فَأَطْعِمِ الْجَائِعَ، وَاسْقِ الظَّمْآنَ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذَلِكَ فَكُفَّ لِسَانَكَ إِلَّا مِنَ الْخَيْرِ**».

[مسند أحمد عن البراء ﷺ (١٨١٧٣)، وصححه الإمام ابن حجر في الفتح كتاب العتق باب في العتق وفضله].

وجعل فك الرقبة في أول الخصال التي يكون بها العبد المسلم شاكرًا نعم الله عليه في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ [البلد].

سابعًا: ولاستشراف الإسلام إلى العتق جعل عتق أي جزء من العبد ساريًا إلى عتق الكل، وعتق الشريك لنصيبه ساريًا إلى أنصباء باقي الشركاء إن كان عنده من المال ما يفي بقيمتها التي يجب عليه أن يؤديها إليهم.

ثم إن الإسلام لم يجعل الرق دليلًا على المهانة والحقارة كما عند الأمم الأخرى، بل حفظ للرقيق حرمته وكرامته حتى كان المسلمون يعاملون أرقاءهم معاملة أفراد الأسرة، فيخالطونهم ويؤاكلونهم كما تقدم ذلك...». [الآيات والعبر الكبرى ليونس ١٨٦-١٩٠].

وتحت عنوان «**كلمة لا بد منها**» يقول د/ أبو فارس: «إن الإسلام لم يحرم الرق حتى هذه الساعة، ولا يوجد نص من كتاب ربنا تبارك وتعالى، وسنة نبينا محمد ﷺ يدل من قريب أو بعيد بأي نوع من الدلالات أن الرق مُحَرَّم في الإسلام، بل النصوص من القرآن والسنة تدل بجميع أنواع الدلالات وفي مقدمتها دلالة العبارة أن الرق حلال، فقد ورد في سورة المؤمنون: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾ [المؤمنون].

فالمسلم لا يصرف شهوته إلا من طريق الزواج أو التسري بالإماء كما نصت الآية، والآيات التي تحدثت عن الرق كثيرة لسنا بصدد إحصائها والتعليق عليها.

والسنة النبوية القولية والفعلية وعمل الصحابة ﷺ يدل على أن الرق والاسترقاق مباح، فقد استرق رسول الله ﷺ واسترق الصحابة ﷺ في غزوة بني قريظة وغزوة حنين، وظل المسلمون

يتعاملون بالرقيق بيعًا وشراءً قرونًا عديدة، فلم ينكر عليهم أحد، بل إنك لا تكاد تجد بابًا من أبواب الفقه إلا وفيه حديث عن الرق، سواء كان في الحدود أو القصاص أو العبادة أو الزكاة أو المعاملات.

وقد يتحرج بعض الناس من ذكر هذا الحكم، وإذا ذكر أمامه يتعسف في الدفاع عنه، ويتجاوز النصوص، وهذا في تقديري ليس صوابًا ولا صحيحًا، إن المسلم ينبغي ألا يخجل من دينه، وأحكام شريعته، سواء استطاع العقل الإنساني أن يدرك حِكم الأحكام أو لم يستطع.

إن الناس لا يَحكمون في شرع الله، وليس لهم ذلك، بل الله هو الذي يَحكم في الناس بشرعه، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون عما يفعلون، فالبشر يعتريهم النقص فكيف يستدرك الناقص على الكامل، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى].

إن الإسلام لا يحرم شيئًا إلا لمفسدة فيه، وقد يتوصل الإنسان إلى معرفة هذه المفسدة، وقد لا يتوصل، فإذا لم يهتد الإنسان لاكتشاف هذه المفسدة في وقت من الأوقات فلا يعني أن الحكم غير صحيح، وإنما يدل على جهل هذا الإنسان وعدم معرفته، والإسلام لا يبيح شيئًا من الأشياء إلا لمصلحة تتحقق للناس، وقد يتوصل الناس إلى اكتشاف هذه المصلحة وقد لا يتوصلون، وسواء توصلوا أو لم يتوصلوا فإن الحكم صحيح وباقٍ لا يؤثر فيه جهلهم بهذه المصلحة (إن الإسلام منع الطرق الظالمة في الاسترقاق وحرَّمها، كاسترقاق المدين إذا عجز عن الوفاء بدينه للدائن أو سرقة الأطفال واسترقاقهم ثم بيعهم، أو غير ذلك، أما الأسر فهو طريق مشروع في الاسترقاق منذ عهده ﷺ، ولم يأت نص يمنعه لا من الكتاب ولا من السنة).

نعم إن الإسلام شجع على تحرير الرق، فشرع الكفَّارات الكثيرة التي يتحرر قسم من الرقيق بواسطتها، ككفارة الظِّهار، وكفارة اليمين، وكفارة النذر، وكفارة الاعتداء على حرمة رمضان، وكفارة قتل الخطأ.

وكون الإسلام يشجع على تحرير الرق عن هذه الطرق فلا يعني أنه يحرم الرق أصلًا.

وأقول أيضًا: إن ما يكتبه بعض العلماء والباحثين في عالمنا المعاصر، عن الرق ويغالي في كتابته وحديثه حتى يصرح بأن الإسلام حرم الرق، ولا يوجد في الشريعة ما يحله، حتى يقنع الناس، أو الأعداء الذين لا هَمَّ لهم إلا توجيه الافتراءات والطعون للإسلام، يدفعهم حقدهم وحسدهم وبغضهم لهذا الدين ولرسوله ﷺ ولأصحابه رضي الله عنهم وفق منهج خبيث غير موضوعي ولا علمي.

إن هذه العاطفة، عاطفة الدفاع عن الإسلام جيدة ـ رغم أن الإسلام ليس ضعيفًا يحتاج إلى دفاع المدافعين عنه، فهو صادر عن الله الذي يعلم والناس لا يعلمون ـ ومأجورون عليها إن شاء الله، ولكن هذه العاطفة ينبغي أن تتقيد بالأحكام الشرعية والمستنبطة من النصوص من الكتاب والسنة، وألا تتجاوز حدودها، ولا تغالي ولا تشتط، فتطغى على الشرع وتنفي أحكامًا شرعية».

[المدرسة النبوية العسكرية لأبي فارس ٢٥٩-٢٦٠].

٩ ـ جواز التيمم والتنويه بشأن الصلاة:

يقول د/ فيض الله: «نزلت آية التيمم في هذه الغزوة، تنويهًا بشأن الصلاة، وتنبيهًا على عظيم شأنها، وأنه لا يحول دون أدائها فقد الماء، وهو وسيلة الطهارة التي هي أعظم شروطها، كما لا يحول الخوف وفقد الأمن من إقامتها». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢١٠-٢١١].

١٠ ـ يمن عائشة ﵂ وبركتها في نزول تشريع التيمم:

يقول الشيخ عرجون: «وفي هذه الغزوة المباركة نزلت آية التيمم، وهي من تشريع الرحمة ورفع الإصر عن هذه الأمة الإسلامية.

اختلاف العلماء في تعيين آية التيمم التي نزلت بسبب قلادة عائشة ﵂:

وللتيمم آيتان في القرآن، إحداهما في سورة النساء، والأخرى في سورة المائدة وقد اختلف العلماء من السلف في أي آيتيه هي التي نزلت في غزوة بني المصطلق، فقال ابن بطال: هي آية النساء أو المائدة، ولم يرجح آية على آية في سبق النزول.

وقال القرطبي: هي آية النساء، ووجَّه قوله بأن آية المائدة تُسمى آية الوضوء، أي أن ذكر التيمم فيها جاء بعد ذكر الوضوء، وعدم إمكانه حقيقة أو حكمًا، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾[المائدة].

قال القرطبي: وآية النساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾[النساء] لا ذكر فيها للوضوء.

وذهب هذا المذهب الواحدي حيث ذكر الحديث في آية النساء في كتابه أسباب النزول، وقال ابن حجر: وخفي على الجميع ما ظهر للبخاري من أنها آية المائدة بلا تردد لرواية عمرو بن الحارث إذ صرح فيها بقوله: فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [المائدة: ٦].

فرح المسلمين بنزول رخصة التيمم وثناؤهم على حفاوة الله تعالى بها:

وقد اغتبط المسلمون وفرحوا فرحًا شديدًا بفضل الله عليهم إذ فرَّج عنهم ضائقتهم ببركة عائشة ﵂، وجاءها أبوها الصديق بعد هذا العتاب الشديد، وقد رأى غبطة المسلمين بحفاوة الله تعالى

بهم حفاوة عامة في كل زمان ومكان ببركتها وإكرامًا لها، وإظهارًا لفضلها وتشريفًا لمقامها، فقال لها ووجهه يتبلج بنور المحبة الأبوية: **إنك لمباركة**.

وفي رواية للطبراني ذكرها اليعمري في (العيون) أن أبا بكر ﷺ قال لعائشة ﵂: **والله يا بنية، إنك كما علمت لمباركة**، وذكر الزرقاني عن القتبي في تفسيره أن النبي ﷺ قال لها: «**ما كان أعظم بركة قلادتك**».

وقال أسيد بن حضير ﷺ: **ما هي بأول بركاتكم يا آل أبي بكر**، وفي رواية أنه قال لعائشة: **جزاك الله خيرًا، فو الله ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله لك منه مخرجًا، وجعل للمسلمين فيه بركة**».

[**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢١٦-٢١٨**].

١١ ـ حكم العزل [(١)]:

يقول د/ قريبي: «ورد في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ من طريق ابْنِ مُحَيْرِيزٍ أَنَّهُ قَالَ: دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَرَأَيْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ ﷺ، فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ فَسَأَلْتُهُ عَنْ الْعَزْلِ؟ (هو نزع الذكر بعد الإيلاج لينزل خارج الفرج، خشية أن تحمل المرأة)، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فَأَصَبْنَا سَبْيًا مِنْ سَبْيِ الْعَرَبِ، فَاشْتَهَيْنَا النِّسَاءَ، وَاشْتَدَّتْ عَلَيْنَا الْعُزْبَةُ، وَأَحْبَبْنَا الْعَزْلَ، فَأَرَدْنَا أَنْ نَعْزِلَ، وَقُلْنَا: نَعْزِلُ وَرَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا قَبْلَ أَنْ نَسْأَلَهُ، فَسَأَلْنَاهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «**مَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَفْعَلُوا، مَا مِنْ نَسَمَةٍ** (النفس والروح) **كَائِنَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا وَهِيَ كَائِنَةٌ**». [**البخاري في المغازي(٤١٣٨)، وفي العتق(٢٥٤٢)، ومالك في الموطأ كتاب الطلاق(١٢٦٢)، وأبو داود في النكاح(٢١٧٢)، وأحمد عن أبي سعيد الخدري ﷺ (١١٦٤٧)**].

وفي كتاب النكاح: عَنْ ابْنِ مُحَيْرِيزٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: أَصَبْنَا سَبْيًا فَكُنَّا نَعْزِلُ، فَسَأَلْنَا رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: «**أَوَإِنَّكُمْ لَتَفْعَلُونَ**»، قَالَهَا ثَلَاثًا «**مَا مِنْ نَسَمَةٍ كَائِنَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا هِيَ كَائِنَةٌ**». [**البخاري في النكاح (٥٢١٠)**].

وفي كتاب القدر عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مُحَيْرِيزٍ الْجُمَحِيُّ أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ ﷺ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ: بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ جاءَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا نُصِيبُ سَبْيًا وَنُحِبُّ الْمَالَ، كَيْفَ تَرَى فِي الْعَزْلِ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَوَإِنَّكُمْ لَتَفْعَلُونَ ذَلِكَ، لَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَفْعَلُوا، فَإِنَّهُ لَيْسَتْ نَسَمَةٌ كَتَبَ اللهُ أَنْ تَخْرُجَ إِلَّا هِيَ كَائِنَةٌ**». [**البخاري في القدر(٦٦٠٣)، وبنحوه في البيوع (٢٢٢٩)**].

وحديث أبي سعيد هذا أورده مسلم بألفاظ متعددة. [**صحيح مسلم ٤/ ١٥٧ ـ ١٦٠ كتاب النكاح**].

---

(١) هناك بحث قيم عن هذا الموضوع بعنوان: **العزل عن المرأة: دراسة شرعية وطبية** ـ د/ طارق محمد الطواري ـ المكتبة الشاملة، ومكتبة المصطفى، على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت).

وهو أيضًا عند أبي داود والنسائي وابن ماجه وأحمد. [ينظر: سنن أبي داود ١/ ٥٠٠- ٥٠١، والنسائي ٦/ ٨٩، وابن ماجه ١/ ٦٢٠ الجميع في كتاب النكاح باب العزل، وأحمد ٣/ ٦٣ و ٦٨ و ٧٢].

وفي حديث جَابِرٍ ﷺ قَالَ: «**كُنَّا نَعْزِلُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْقُرْآنُ يَنْزِلُ**».

[البخاري في النكاح (٥٢٠٩)، وابن ماجه في النكاح (١٩٢٧)، وأحمد عن جابر ﷺ (١٣٩٠٦)].

وزاد مسلم: عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا نَعْزِلُ وَالْقُرْآنُ يَنْزِلُ، زَادَ إِسْحَقُ: قَالَ سُفْيَانُ: لَوْ كَانَ شَيْئًا يُنْهَى عَنْهُ لَنَهَانَا عَنْهُ الْقُرْآنُ.

وفي لفظ عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا نَعْزِلُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ، فَبَلَغَ ذَلِكَ نَبِيَّ الله ﷺ فَلَمْ يَنْهَنَا.

وفي لفظ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي جَارِيَةً لِي، وَأَنَا أَعْزِلُ عَنْهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ ذَلِكَ لَنْ يَمْنَعَ شَيْئًا أَرَادَهُ اللهُ**»، قَالَ: فَجَاءَ الرَّجُلُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! إِنَّ الْجَارِيَةَ الَّتِي كُنْتُ ذَكَرْتُهَا لَكَ حَمَلَتْ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَنَا عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ**».

[مسلم في النكاح (١٤٤٠)].

وهذه الأحاديث التي ظاهرها جواز العزل، ورد ما يعارضها، فعند مسلم وأحمد عَنْ جُدَامَةَ بِنْتِ وَهْبٍ أُخْتِ عُكَّاشَةَ قَالَتْ: حَضَرْتُ رَسُولَ الله ﷺ فِي أُنَاسٍ وَهُوَ يَقُولُ: «**لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنْ الْغِيلَةِ**[1]، **فَنَظَرْتُ فِي الرُّومِ وَفَارِسَ فَإِذَا هُمْ يُغِيلُونَ أَوْلَادَهُمْ فَلَا يَضُرُّ أَوْلَادَهُمْ ذَلِكَ شَيْئًا**»، ثُمَّ سَأَلُوهُ عَنْ الْعَزْلِ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**ذَلِكَ الْوَأْدُ الْخَفِيُّ**» زَادَ عُبَيْدُ الله فِي حَدِيثِهِ عَنْ الْمُقْرِئِ: «وَهِيَ ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ[2] سُئِلَتْ ﴿٨﴾﴾ [التكوير]. [مسلم في النكاح (١٤٤٢)، وأبو داود في الطب (٣٨٨٢)، والترمذي في الطب (٢٠٧٧)، والنسائي في النكاح (٣٣٢٦)، ومالك في الموطأ كتاب الرضاع (١٢٩٢)، والدارمي في النكاح (٢٢١٧)، وأحمد عن جدامة بنت وهب ﷺ (٢٦٤٩٤، ٢٦٤٩٥، ٢٦٩٠١)].

وبسبب هذه الأحاديث التي ظاهرها التعارض اختلف العلماء في حكم العزل، فذهب ابن حبان وابن حزم إلى تحريمه أخذًا بحديث جدامة هذا وما في معناه.

وعلل ابن حزم ذلك بأن الأحاديث الدالة على الإباحة، متمشية مع أصل الإباحة، وحديث جدامة دال على التحريم، فصح أن حديثها ناسخ لجميع الإباحات المتقدمة التي لا شك في أنها قبل البعث وبعد البعث، وهذا أمر متيقن؛ لأنه إذا أخبر ﷺ أنه الوأد الخفي، والوأد محرم، فقد نسخ الإباحة المتقدمة بيقين،

---

(١) **الغيلة**: بالكسر الاسم من الغيل بالفتح، وهو أن يجامع الرجل زوجته وهي مرضع، وكذلك إذا حملت وهي مرضع. النهاية لابن الأثير ٣/ ٤٠٢.

(٢) **الموؤودة**: هي البنت كان في الجاهلية إذا ولد لأحدهم بنت دفنها في التراب وهي حية. يقال وأدها يئدها وأدًا فهي موؤودة. النهاية لابن الأثير ٥/ ١٤٣، ومختار الصحاح ص ٧٠٥، والقاموس المحيط ١/ ٤٣٢-٤٣٣.

فمن ادعى أن تلك الإباحة المنسوخة قد عادت، وأن النسخ المتيقن قد بطل فقد ادعى الباطل وقفي ما لا علم له به، وأتى بما لا دليل عليه.

وأيد ذلك بما ورد في حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ ـ عند مسلم [في النكاح (١٤٣٨)] ـ قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ الْعَزْلِ؟ فَقَالَ: «**لَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَفْعَلُوا ذَاكُمْ، فَإِنَّمَا هُوَ الْقَدَرُ**»، قَالَ مُحَمَّدٌ بن سِيرِينَ: وَقَوْلُهُ «لَا عَلَيْكُمْ» أَقْرَبُ إِلَى النَّهْيِ. [المحلى لابن حزم ١١/ ٢٩٠-٢٩٢].

وذهب الجمهور إلى جواز العزل عن الزوجة الحرة بإذنها وعن السرية بدون إذن، والخلاف في الزوجة المملوكة، هذا أقرب الأقوال في هذه المسألة والخلاف طويل بين العلماء، واستدل الجمهور على الجواز بالأحاديث المتقدمة التي ظاهرها الجواز.

وأجابوا عن حديث جدامة وما في معناها بأن النهي فيها محمول على كراهة التنزيه ـ وأجيب عن قوله في حديث جدامة «**ذَلِكَ الْوَأْدُ الخَفِيُّ**» أنه ليس صريحًا في التحريم؛ لأن التحريم للوأد المحقق الذي هو قطع حياة محققة، والعزل وإن شبهه ﷺ به فإنما هو قطع لما يؤديه إلى الحياة والمشبه دون المشبه به، وإنما سماه وأدًا لما تعلق به من قصد منع الحمل.

وهناك أجوبة أخرى فيها أخذ ورد، فلا نطيل الكلام فيها ونكتفي بالإشارة إلى أماكنها لمن أراد الوقوف عليها. [**ينظر: معاني الآثار للطحاوي ٣/ ٣٠-٣٥، وشرح مسلم للنووي ٣/ ٦١٢، وزاد المعاد لابن القيم ٤/ ٢٠-٢٣، وتهذيب السنن له ٦/ ٢١٤ «عون المعبود»، وفتح الباري ٩/ ٣٠٥-٣١٠، وسبل السلام للصنعاني ٣/ ١٤٥-١٤٦، ونيل الأوطار للشوكاني ٦/ ٢٢٢- ٢٢٤، وشرح ثلاثيات مسند أحمد لمحمد السفاريني ١/ ٢٩٧- ٣٠٢**].

وخلاصة القول في هذا الباب هو جواز العزل، وأحاديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما على اختلاف ألفاظها صريحة في جواز ذلك وأصرح منها حديثه عند مسلم وأبي داود ولفظه: عَنْ جَابِرٍ ﷺ أَنَّ رَجُلًا أَتَى رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: إِنَّ لِي جَارِيَةً هِيَ خَادِمُنَا وَسَانِيَتُنَا (أي التي تسقي لنا شبهها بالبعير في ذلك، وفي لفظ أحمد «سايستنا»، وهي بنفس المعنى)، وَأَنَا أَطُوفُ عَلَيْهَا، وَأَنَا أَكْرَهُ أَنْ تَحْمِلَ، فَقَالَ: «**اعْزِلْ عَنْهَا إِنْ شِئْتَ، فَإِنَّهُ سَيَأْتِيهَا مَا قُدِّرَ لَهَا**»، فَلَبِثَ الرَّجُلُ ثُمَّ أَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّ الْجَارِيَةَ قَدْ حَبِلَتْ، فَقَالَ: «**قَدْ أَخْبَرْتُكَ أَنَّهُ سَيَأْتِيهَا مَا قُدِّرَ لَهَا**». [**مسلم في النكاح (١٤٣٩)، وأبو داود في النكاح (٢١٧٣)، وأحمد عن جابر ﷺ (١٣٩٣٦، ١٤٧٢٠)**].

ففيه التصريح من رسول الله ﷺ لهذا السائل بالإذن بفعل العزل إن أحب ذلك، ثم بين له أن فعله هذا لا يرد شيئًا قدره الله ﷻ وأنه إذا أراد شيئًا كان ولا محالة».

[**مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٤٥٩-٤٦٤**].

ويقول البوطي: «ويتبع ذلك إسقاط النطفة أو العلقة قبل نفخ الروح فيها، كما يتبع ذلك عموم ما يُسمى اليوم بتحديد النسل.

والحديث الذي ذكرناه في هذا صريح بجواز العزل، فقد قال لهم حينما استفتوه في ذلك: **مَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَفْعَلُوا**، وفي رواية لمسلم: «**مَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَفْعَلُوا، مَا مِنْ نَسَمَةٍ كَائِنَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا وَهِيَ كَائِنَةٌ**»، أي ليس عليكم أن تتركوا العزل؛ لأن ما قد قدَّر الله واقع لا ريب فيه، فلا يمكن أن يمتنع المقدر بعملكم.

وأصرح من هذا الحديث ما رواه الشيخان عن جابر ﷺ أنه قال: «كُنَّا نَعْزِلُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْقُرْآنُ يَنْزِلُ».

وقد ذهب جمهور الأئمة بناءً على هذا إلى جواز ممارسة العزل، ولكنهم اشترطوا لذلك موافقة الزوجة؛ لما قد يكون من الضرر بها، غير أنه يكره ذلك إذا كان سببه خشية النفقة وقلة ذات اليد.

وخالف ابن حزم الجمهور، فذهب إلى حرمة العزل مطلقًا، مستدلًا بما رواه مسلم أن النبي ﷺ سئل عن العزل، فقال: «**ذَلِكَ الْوَأْدُ الْخَفِيُّ**»، واستدل بأحاديث أخرى كلها موقوفة على الصحابة، فمن ذلك ما رواه بسنده عن نافع أن ابن عمر ﷺ كان لا يعزل، وقال: لو علمت أحدًا من ولدي يعزل لنكَّلته، ومنه ما رواه من طريق الحجاج ابن منهال أن عليَّ بن أبي طالب ﷺ كان يكره العزل.

وأجاب ابن حزم عن حديث جابر الذي استدل به الجمهور بأنه منسوخ.

[ينظر: المحلى لابن حزم ١٠/ ٨٧].

وذكر ابن حجر في فتح الباري رأي ابن حزم ثم قال: وهذا معارض بحديثين أحدهما أخرجه الترمذي والنسائي وصححه من طريق معمر عن يحيى ابن كثير عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله! إِنَّا كُنَّا نَعْزِلُ، فَزَعَمَتِ الْيَهُودُ أَنَّهَا الْمَوْؤُودَةُ الصُّغْرَى، فَقَالَ ﷺ: «**كَذَبَتِ الْيَهُودُ، إِنَّ الله إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَهُ لَمْ يَمْنَعْهُ**». **[الترمذي في النكاح (١١٣٦)، قَالَ الترمذي: وَفِي الْبَابِ عَنْ عُمَرَ وَالْبَرَاءِ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ، وقال الشيخ الألباني: صحيح].**

قال: و الحديث الثاني في النسائي من وجه آخر عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة ﷺ.

[ينظر: فتح الباري ٩/ ٢٤٥].

أقول: وواضح أن قول الرسول ﷺ عن العزل: الوأد الخفي، لا يعني التحريم، بل الأظهر أن يحمل كلامه هذا ـ على ضوء الأحاديث الثابتة الأخرى ـ على النهي التنزيهي كما ذهب إلى ذلك الجمهور، ودعوى ابن حزم أن الأحاديث المبيحة للعزل منسوخة، يردها ما رواه الستة خلا أبا داود من حديث جابر: كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ والقرآن ينزل، زاد مسلم: فبلغ ذلك النبي ﷺ فلم ينهنا.

فلولا أن حكم إباحة العزل ظل مستمرًّا إلى وفاته ﷺ لما قال جابر ﷺ ذلك، ولأوضح آخر ما استقر عليه الحكم الشرعي.

وحكم إسقاط النطفة قبل نفخ الروح فيها يتبع ما ذكرنا من حكم العزل، إلا أن بعضًا من الجماهير الذين أفتوا بالعزل حرموا الإسقاط، ولعلهم تحرجوا عن القياس في ذلك، واعتبروا المضغة أقرب إلى التخلق والذات الإنسانية من النطفة قبل العلوق، وهو تحرج لا يتضح سببه، اللهم إلا أن يكون ضررًا صحيًّا للحامل.

إذا علمت هذا، علمت الحكم الشرعي الذي يتعلق بتحديد النسل وهو إتباع وسيلة علاجية لمنع الحمل بدلًا من العزل فهو جائز إذا اتبعت الوسائل التي أجازها جمهور الأئمة، بشرط أن لا يظن فيه أي ضرر للزوجة وبشرط أن يكون ذلك برغبة متفقة من الزوجين، ولست أعلم ما يخالف هذا الحكم عند أحد من الأئمة الفقهاء رحمهم الله، إلا ما روى من ذلك الحافظ ولي الدين العراقي، عن الشيخ عماد الدين بن يوسف والشيخ عز الدين بن عبد السلام، فقد روي عنهما القول بحرمة استعمال المرأة دواء ما من شأنه أن يمنع الحمل، قال ابن يونس: ولو رضي به الزوج.

[ينظر: طرح التثريب وشرحه للحافظ العراقي ٨/ ٦٢].

أقول: وهذا الرأي محجوج بمقتضى دلالة السنة، وبما ذهب إليه بناء على ذلك الجمهور.

غير أن من أهم ما ينبغي تعلمه في هذا الصدد، أن الحكم بإباحة العزل أو عموم ما يسمى اليوم: تحديد النسل، منوط برضى الزوجين أنفسهما دون أن يكون عليهما سلطان أو توجيه من الخارج، إذ أن ما يجوز ممارسته للفرد صاحب العلاقة، قد لا يجوز تشريعه بشكل إلزامي للجماعة، وهذه قاعدة من القواعد الفقهية المتفق عليها.

فالطلاق مما يجوز للفرد المتزوج ممارسته عند الحاجة أو المصلحة التي يراها، ولكن ليس للحاكم أن يأمر الناس أمرًا إلزاميًّا أو أدبيًّا أو توجيهيًّا، بأن يمارسوا هذا الحق، فيطلقوا زوجاتهم، وتحديد النسل شأنه في ذلك شأن الطلاق تمامًا، وهذه القاعدة الهامة لابد من أن تعيها وتفهمها جيدًا، كي لا يلبَّس عليك أحد ممن يحترفون اليوم صناعة الفتوى قائلين: لقد أباحت السنة تحديد النسل، وهذا دليل على أن للدولة أن تحمل الناس ـ بما تراه من السبل ـ على ذلك.

والحقيقة أنه لا علاقة إطلاقًا بين ذلك الدليل وهذا المدلول إلا علاقة التلبيس والتمويه.

فالخلاصة أن أمر العزل أو تحديد النسل، إذا نُظر إليه من حيث علاقة الزوجين ببعضهما وما تشيع بينهما من حقوق ويجمعهما من مصالح، أمر سهل لا مشكلة فيه كما قد رأيت.

ولكنه إذا نُظر إليه على أساس أن يكون مبدأ يُدعى إليه دعوة عامة ويُغرى الناس به بناءًا على فلسفة توجيهية تنشط وسائل الإعلام والتوجيه في بثها، فإنه يغدو حينئذ أمرًا على جانب كبير من الأهمية والخطورة وهو يستدعي حينئذ من المسلمين أن ينشطوا في محاربته محاربة واعية فعالة: تقوم على أساس

فهم الخطط الماكرة المختلفة التي يبيتها أعداء المسلمين للإجهاز عليهم، وعليهم أن لا ينخدعوا بما يُشاع من مشاكل الإنتاج والاقتصاد فذلك جزء من التخطيط نفسه». [فقه السيرة للبوطي ٢١٩-٢٢١].

ويقول د/ فيض الله: «روي في الصحيح أن الصحابة ﭫ استفتوا رسول الله ﷺ بعد أن قَسَّم بينهم السبي ـ في العزل، فَعَنْ ابْنِ مُحَيْرِيزٍ قَالَ: رَأَيْتُ أَبَا سَعِيدٍ ﭬ فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فَأَصَبْنَا سَبْيًا مِنْ سَبْيِ الْعَرَبِ، فَاشْتَهَيْنَا النِّسَاءَ، فَاشْتَدَّتْ عَلَيْنَا الْعُزْبَةُ، وَأَحْبَبْنَا الْعَزْلَ، فَسَأَلْنَا رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: «**مَا عَلَيْكُمْ أَنْ لا تَفْعَلُوا، مَا مِنْ نَسَمَةٍ كَائِنَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلا وَهِيَ كَائِنَةٌ**». [سبق تخريجه قريبًا].

وهذا يشير إلى نفور الدين من الحيلولة دون الإنجاب، بوجه عام.

وهذا البحث مستوفى في كتب الفقه، وفي باب الحظر والإباحة عند الحنفية على التخصيص، ومن أحسن مَنْ كتب وتوسع فيه الإمام حجة الإسلام الغزالي ﭬ في إحيائه العظيم، ومن أول مَنْ كتب فيه بعنوان (تحديد النسل) من المُحْدَثين الأستاذ الأكبر الشيخ الإمام محمود شلتوت.

وكتب فيه أخيرًا الزميل الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، لكنه لم يشر بإطلاق ـ سامحه الله ـ إلى ما كتبه قبله شيخنا شلتوت ﭬ». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢١١].

١٢ ـ بَيَانُ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْعَزْلِ وَأَنَّهُ الْوَأْدُ الْخَفِيُّ وَفِيمَا رُوِيَ مِنْ تَكْذِيبِهِ مَنْ قَالَ ذَلِكَ:

قال الإمام الطحاوي: «حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ يُونُسَ الْبَصْرِيُّ وَصَالِحُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَنْصَارِيُّ قَالَا: حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بْنُ يَزِيدَ الْمُقْرِئُ قَالَ: ثنا سَعِيدُ بْنُ أَبِي أَيُّوبَ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَوْفَلٍ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ ﭭ قَالَتْ: حَدَّثَتْنِي جُذَامَةُ قَالَتْ: ذُكِرَ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ الْعَزْلُ فَقَالَ: «**ذَاكَ الْوَأْدُ الْخَفِيُّ**».

حَدَّثَنَا الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْأَزْدِيُّ قَالَ: ثنا أَبُو زُرْعَةَ الْحَجَرِيُّ قَالَ: أَنْبَأَ حَيْوَةُ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ أَنَّهُ سَمِعَ عُرْوَةَ يُحَدِّثُ عَنْ عَائِشَةَ عَنْ جُذَامَةَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فَذَكَرَ مِثْلَهُ.

وَحَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي دَاوُد قَالَ: ثنا سَعِيدُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ قَالَ: أَنْبَأَ يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْأَسْوَدِ، ثُمَّ ذَكَرَ بِإِسْنَادِهِ مِثْلَهُ.

وَمَا حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مَعْبَدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ إِسْحَاقَ قَالَ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ ثُمَّ ذَكَرَ بِإِسْنَادِهِ مِثْلَهُ، وَقَالَ فِيهِ جُدَامَةُ بِالدَّالِ.

فَقَالَ قَائِلٌ مَا فِي هَذِهِ الْآثَارِ الَّتِي رَوَيْتُمُوهَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ جَعَلَ الْعَزْلَ كَمَا قَدْ جَعَلَهُ فِيهَا، وَقَدْ رَوَيْتُمْ عَنْهُ مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ فَذَكَرَ:

مَا حَدَّثَنَا بَكَّارَ بْنُ قُتَيْبَةَ قَالَ: ثنا أَبُو دَاوُد (ح) وَمَا قَدْ حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مَرْزُوقٍ قَالَ: ثنا أَبُو دَاوُد عَنْ هِشَامِ بْنِ أَبِي عَبْدِ اللهِ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي رِفَاعَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: **يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ عِنْدِي جَارِيَةً وَأَنَا أَعْزِلُ عَنْهَا، وَأَنَا أَكْرَهُ أَنْ تَحْمِلَ، وَأَشْتَهِي مَا يَشْتَهِي الرِّجَالُ، وَإِنَّ الْيَهُودَ يَقُولُونَ هِيَ الْمَوْؤُودَةُ الصُّغْرَى**، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كَذَبَتْ يَهُودُ، لَوْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَهُ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَصْرِفَهُ**».

وَمَا قَدْ حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مَرْزُوقٍ قَالَ: ثنا هَارُونُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْخَزَّازُ قَالَ: ثنا عَلِيُّ بْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ يَحْيَى ابْنِ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي مُطِيعِ بْنِ رِفَاعَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرَ مِثْلَهُ.

وَمَا قَدْ حَدَّثَنَا يُونُسُ قَالَ: أَنْبَأَ ابْنُ وَهْبٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي عَيَّاشُ بْنُ عُقْبَةَ الْحَضْرَمِيُّ عَنْ مُوسَى بْنِ وَرْدَانَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: «بَلَغَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنَّ الْيَهُودَ يَقُولُونَ إِنَّ الْعَزْلَ هِيَ الْمَوْؤُودَةُ الصُّغْرَى، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كَذَبَتْ يَهُودُ**»، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَوْ أَفْضَيْتَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا بِقَدَرٍ**».

وَمَا قَدْ حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي دَاوُد قَالَ: ثنا عَيَّاشُ بْنُ الْوَلِيدِ الرَّقَّامُ قَالَ: ثنا عَبْدُ الْأَعْلَى بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَأَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: أَقَمْتُ جَارِيَةً لِي بِسُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ فَمَرَّ بِي يَهُودِيٌّ فَقَالَ: مَا هَذِهِ الْجَارِيَةُ؟ فَقُلْتُ: جَارِيَةٌ لِي، قَالَ: أَكُنْتَ تُصِيبُهَا؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ فَلَعَلَّ فِي بَطْنِهَا مِنْكَ سَخْلَةً (السَخْل: الولد المحبب إلى أبويه، وهو في الأصل ولد الغنم)، قَالَ: قُلْتُ: إِنِّي كُنْت أَعْزِلُهَا، قَالَ: تِلْكَ الْمَوْؤُودَةُ الصُّغْرَى، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «**كَذَبَتْ يَهُودُ كَذَبَتْ يَهُودُ**».

فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللهِ ﷻ وَعَوْنِهِ: أَنَّهُ قَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ مَا ذَكَرْنَا عَنْهُ فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذَا الْبَابِ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ اتِّبَاعِ الْيَهُودِ عَلَى شَرِيعَتِهِمْ مَا لَمْ يُخَالِفْ اللهُ فِي شَرِيعَتِهِ مَا يَنْسَخُ ذَلِكَ، إِذْ كَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ مُقْتَدِينَ بِالَّذِي جَاءَهُمْ بِكِتَابِهِمْ، وَإِذْ كَانَ اللهُ ﷻ أَنْزَلَ عَلَيْهِ فِيمَا أَنْزَلَ: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ يَعْنِي مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ أَنْبِيَائِهِ: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] إِنَّمَا كَانَ يَصِلُ إِلَى ذَلِكَ مِمَّا كَانَ يَجِدُهُ فِي التَّوْرَاةِ وَفِيمَا سِوَاهَا مِنْ كُتُبِ اللهِ ﷻ الَّتِي كَانَ أَنْزَلَ عَلَى أَنْبِيَائِهِ قَبْلَهُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ، فَجَازَ أَنْ يَكُونَ لَمَّا كَشَفَهُمْ عَنْ ذَلِكَ كَيْفَ هُوَ فِي كِتَابِهِمْ ذَكَرُوا لَهُ أَنَّهُ الْمَوْؤُودَةُ الصُّغْرَى وَكَذَّبُوهُ، فَقَالَ مَا قَالَ مِمَّا تَرْوِيهِ عَنْهُ جُدَامَةُ، ثُمَّ أَعْلَمَهُ اللهُ ﷻ بِكَذِبِهِمْ، وَأَنَّ الْأَمْرَ فِي الْحَقِيقَةِ بِخِلَافِ ذَلِكَ، كَمَا لَمَّا سَأَلَهُمْ عَنْ حَدِّ الزِّنَا فِي كِتَابِهِمْ ذَكَرُوا لَهُ أَنَّهُ الْجَلْدُ وَالْفَضِيحَةُ، وَأَنَّهُ لَا رَجْمَ فِيهِ، وَأَتَوْهُ بِالتَّوْرَاةِ فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ حَتَّى أَعْلَمَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوهُ، وَأَمَرَ ذَلِكَ الْيَهُودِيَّ رَفْعَ يَدِهِ عَنْ آيَةِ الرَّجْمِ فَرَفَعَهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِمْ الْحُجَّةُ بِأَنَّ الرَّجْمَ فِي كِتَابِهِمْ، فَرَجَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ مَنْ زَنَى مِنْهُمْ مِمَّنْ أَتَوْهُ بِهِ مُحَكِّمِينَ لَهُ فِيهِ.

فَمِثْلُ ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْهُمْ فِي الْعَزْلِ لَـمَّا بَيَّنَ اللهُ ﷻ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ كَذِبَهُمْ فِي ذَلِكَ بَيَّنَ لِأُمَّتِهِ ﷺ كَـذِبَهُمْ فِيهِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ مَا أَوْضَحَ لَهُ مَا يُسْتَعْمَلُ الْوَأْدُ فِيهِ، وَهُـوَ قَوْلُـهُ ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون]، فَأَعْلَمَـهُ اللهُ تَعَـالَى بِذَلِكَ الْوَقْتِ الَّذِي يَكُونُ الْمَخْلُوقُ مِنْ النُّطْفَةِ فِيهِ الْحَيَاةُ فَيَجُوزُ أَنْ يُوأَدَ حِينَئِذٍ فَيَكُونَ مَيِّتًا، وَأَمَّا قَبْـلَ ذَلِـكَ فَلَيْسَ بِحَيٍّ وَإِنَّمَا هِيَ كَسَائِرِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا حَيَاةَ فِيهَا، فَمُحَالٌ أَنْ يَكُونَ مَا كَانَ ذَلِـكَ مَـوْؤُودًا، وَقَـدْ كَـانَ مِنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ خِطَابٌ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ فِي هَذَا الْمَعْنَى مَا قَدْ ذَكَرْنَا.

كَمَا قَدْ حَدَّثَنَا صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: ثنا عَبْدُ اللهِ بْنُ يَزِيدَ الْمُقْرِئُ قَالَ: ثنا ابْنُ لَهِيعَةَ عَنْ يَزِيـدَ بْـنِ أَبِي حَبِيبٍ عَنْ مَعْمَرِ بْنِ أَبِي حُبَيْبَةَ قَالَ سَمِعْتُ عُبَيْدَ بْنِ رِفَاعَةَ الْأَنْصَارِيَّ قَالَ: تَذَاكَرَ أَصْـحَابُ رَسُـولِ اللهِ ﷺ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ الْعَزْلَ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ قَدْ اخْتَلَفْـتُمْ وَأَنْـتُمْ أَهْـلُ بَـدْرٍ الْخِيَـارُ فَكَيْـفَ بِالنَّاسِ بَعْدَكُمْ، إِذْ تَنَاجَى رَجُلَانِ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: مَا هَذِهِ الْمُنَاجَـاةُ؟ قَـالَ: إِنَّ الْيَهُـودَ تَـزْعُمُ أَنَّهَـا الْمَـوْؤُودَةُ الصُّغْرَى، فَقَالَ عَلِيٌّ ﷺ: إِنَّهَا لَا تَكُونُ مَوْؤُودَةً حَتَّى تَمُرَّ بِالتَّارَاتِ السَّـبْعِ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ، فَعَجِبَ عُمَرُ ﷺ مِنْ قَوْلِهِ، وَقَالَ: جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا.

وَكَمَا حَدَّثَنَا رَوْحُ بْنُ الْفَرَجِ قَالَ: ثنا يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُكَيْرٍ قَالَ: حَدَّثَنِي اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ حَـدَّثَنِي مَعْمَرُ بْنُ أَبِي حُبَيْبَةَ عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ الْخِيَارِ قَالَ: تَذَاكَرَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ عِنْـدَ عُمَـرَ ﷺ الْعَزْلَ ثُمَّ ذَكَرَ مِثْلَهُ سَوَاءً غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ فِيهِ قَوْلَهُ فَعَجِبَ عُمَرُ ﷺ مِنْ قَوْلِهِ، وَقَالَ: جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: فَهَذَا مِنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ اسْتِخْرَاجٌ صَحِيحٌ فِي هَذَا الْمَعْنَى.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ ﷺ هَذَا الْكَلَامُ أَيْضًا.

كَمَا قَدْ حَدَّثَنَا بَكَّارٌ قَالَ: ثنا مُؤَمَّلُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ قَالَ: ثنا سُفْيَانُ قَالَ: ثنا الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي الْوَدَّاكِ أَنَّ قَوْمًا سَأَلُوا ابْنَ عَبَّاسٍ ﷺ عَنْ الْعَزْلِ، فَذَكَرَ مِثْلَ كَلَامِ عَلِيٍّ فِي الْحَدِيثَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ سَوَاءً.

وَكَمَا حَدَّثَنَا فَهْدٌ قَالَ ثنا أَبُو نُعَيْمٍ قَالَ: ثنا مُحَمَّدُ بْنُ شَرِيكٍ قَالَ: سَمِعْت ابْنَ أَبِي مُلَيْكَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّهُ أَتَاهُ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ يَسْأَلُونَهُ عَنْ الْعَزْلِ وَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّهُ الْمَوْؤُودَةُ، فَقَالَ لِجَوَارِيهِ: أَخْبِرُوهُمْ كَيْفَ أَصْنَعُ، فَكَأَنَّهُنَّ اسْتَحْيَيْنَ، فَقَالَ: إِنِّي لَأَصُبُّهُ فِي الطَّسْتِ، ثُمَّ أَصُبُّ عَلَيْهِ الْمَاءَ، ثُمَّ أَقُولُ لِإِحْدَاهُنَّ انْظُرِي لَا تَقُولِينَ إِنْ كَانَ شَيْءٌ ثُمَّ، قَالَ: إِنَّهُ يَكُونُ نُطْفَةً، ثُمَّ دَمًا، ثُمَّ عَلَقَةً، ثُمَّ مُضْغَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَظْمًا، ثُمَّ يُكْسَى لَحْمًا، ثُمَّ يَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ حَتَّى يَنْفُخَ فِيهِ الرُّوحَ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: فَلَمَّا وَقَفَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى كَذِبِ الْيَهُودِ فِيمَا كَانُوا قَالُوهُ فِي الْعَزْلِ وَاسْتِحَالَتِهِ أَكْذَبَهُمْ فِيهِ وَأَعْلَمَ النَّاسَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ إِنْ عَزَلُوا أَوْ لَمْ يَعْزِلُوا إِلَّا مَا قَدَّرَ اللهُ ﷻ فِيهِ مِنْ كَوْنِ وَلَدٍ مِنْهُ أَوْ مِنْ انْتِفَاءِ ذَلِكَ مِنْهُ.

وَفِيمَا ذَكَرْنَا مِنْ هَذَا كِفَايَةٌ لِمَا احْتَجْنَا إِلَى هَذَا الْكَلَامِ مِنْ أَجْلِهِ وَاللهَ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ.

[تحفة الأخيار بترتيب شرح مشكل الآثار للطحاوي ٣/ ٦٢٢-٦٢٩].

وقد استفاض الإمام ابن حجر في شرح أحاديث العزل في الفتح كتاب النكاح باب العزل رقم ٥٢٠٧-٥٢١٠». [فتح الباري لابن حجر ٩/ ٢١٥-٢٢٠].

١٣ ـ حكم النظر إلى الإماء:

قال الإمام السهيلي: «وَأَمَّا نَظَرُهُ ﷺ لِجُوَيْرِيَةَ حَتَّى عَرَفَ مِنْ حُسْنِهَا مَا عَرَفَ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ لِأَنَّهَا كَانَتْ امْرَأَةً مَمْلُوكَةً، وَلَوْ كَانَتْ حُرَّةً مَا مَلَأَ عَيْنَهُ مِنْهَا؛ لِأَنَّهُ لَا يُكْرَهُ النَّظَرُ إِلَى الْإِمَاءِ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ نَظَرَ إِلَيْهَا؛ لِأَنَّهُ نَوَى نِكَاحَهَا، كَمَا نَظَرَ إِلَى الْمَرْأَةِ الَّتِي قَالَتْ لَهُ: إِنِّي قَدْ وَهَبْتُ نَفْسِي لَكَ يَا رَسُولَ الله، فَصَعَّدَ فِيهَا النَّظَرَ ثُمَّ صَوَّبَ، ثُمَّ أَنْكَحَهَا مِنْ غَيْرِهِ.

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ ﷺ الرُّخْصَةُ فِي النَّظَرِ إِلَى الْمَرْأَةِ عِنْدَ إِرَادَةِ نِكَاحِهَا، وَقَالَ لِلْمُغِيرَةِ ﷺ حِينَ شَاوَرَهُ فِي نِكَاحِ امْرَأَةٍ: «**لَوْ نَظَرْتَ إِلَيْهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا**»، وَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ لِمُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ ﷺ حِينَ أَرَادَ نِكَاحَ ثُبَيْتَةَ بِنْتَ الضَّحَّاكِ.

وَقَدْ أَجَازَهُ مَالِكٌ فِي إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْهُ ذَكَرَهَا ابْنُ أَبِي زَيْدٍ.

وَفِي مُسْنَدِ الْبَزَّارِ مِنْ طَرِيقِ أَبِي بَكْرَةَ: لَا حَرَجَ أَنْ يَنْظُرَ الرَّجُلُ إِلَى الْمَرْأَةِ إِذَا أَرَادَ تَزَوُّجَهَا، وَهِيَ لَا تَشْعُرُ.

وَفِي تَرَاجِمِ الْبُخَارِيِّ: النَّظَرُ إِلَى الْمَرْأَةِ قَبْلَ التَّزْوِيجِ، وَأَوْرَدَ فِي الْبَابِ قَوْلَهُ ﷺ لِعَائِشَةَ: «**أَرَيْتُكِ فِي الْمَنَامِ يَجِيءُ بِكِ الْمَلَكُ فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ، فَكُشِفَتْ عَنْ وَجْهِكِ، فَقَالَ: هَذِهِ امْرَأَتُكَ، فَقُلْتُ: إِنْ يَكُنْ مِنْ عِنْدِ الله يَمْضِهِ**» وَهَذَا اسْتِدْلَالٌ حَسَنٌ.

وَفِي قَوْلِهِ: «**إِنْ يَكُنْ مِنْ عِنْدِ الله**» سُؤَالٌ؛ لِأَنَّ رُؤْيَاهُ وَحْيٌ، فَكَيْفَ يُشَكُّ فِي أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ الله؟

وَالْجَوَابُ: أَنَّهُ لَمْ يَشُكَّ فِي صِحَّةِ الرُّؤْيَا، وَلَكِنَّ الرُّؤْيَا قَدْ تَكُونُ عَلَى ظَاهِرِهَا، وَقَدْ تَكُونُ لِمَنْ هُوَ نَظِيرُ الْمَرْءِ أَوْ سَمِيُّهُ، فَمِنْ هَاهُنَا تَطَرَّقَ الشَّكُّ مَا بَيْنَ أَنْ تَكُونَ عَلَى ظَاهِرِهَا، أَوْ لَهَا تَأْوِيلٌ كَذَلِكَ.

وَسَمِعْتُ شَيْخَنَا يَقُولُ فِي مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ: وَلِغَيْرِهِ فِيهِ قَوْلٌ لَا أَرْضَاهُ، فَلَا يَخْلُو نَظَرُهُ ﷺ إِلَيْهَا مِنْ أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ، أَوْ يَكُونُ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ الْحِجَابُ، وَإِلا فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾[النور: ٣٠] وَهُوَ إِمَامُ الْمُتَّقِينَ، وَقُدْوَةُ الْوَرِعِينَ ﷺ». [الروض الأنف للسهيلي ٦/ ٤٣٣-٤٣٤].

١٤ ــ صحة جعل العتق صداقًا [سيأتي تفصيله في غزوة خيبر]:

يقول د/ قريبي: «تقدم في حديث عَائِشَةَ أُمِّ الْـمُؤْمِنِينَ ﵂ قَالَتْ: لـمَّا قَسَمَ رَسُولُ الله ﷺ سَبَايَا بَنِي الـمُصْطَلِقِ وَقَعَتْ جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ فِي السَّهْمِ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ، أَوْ لِابْنِ عَمٍّ لَهُ، وَكَاتَبَتْهُ عَلَى نَفْسِهَا...، فَأَتَتْ رَسُولَ الله ﷺ تَسْتَعِينُهُ فِي كِتَابَتِهَا... فَقَالَ لها ﷺ: «**فَهَلْ لَكِ فِي خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ**»، قَالَتْ: وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**أَقْضِي كِتَابَتَكِ وَأَتَزَوَّجُكِ**»، قَالَتْ: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**قَدْ فَعَلْتُ**».

وعند الطحاوي: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ دَاوُدُ قَالَ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ حُمَيْدٍ قَالَ: ثنا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ قَالَ: ثنا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنِ ابْنِ عَوْنٍ قَالَ: كَتَبَ إِلَيَّ نَافِعٌ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَ جُوَيْرِيَةَ فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فَأَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا، وَجَعَلَ عِتْقَهَا صَدَاقَهَا.

أَخْبَرَنِي بِذَلِكَ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْجَيْشِ.

فَقَدْ رَوَى هَذَا ابْنُ عُمَرَ ﵄، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ كَمَا ذَكَرْنَا، ثُمَّ قَالَ: هُوَ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ ﷺ فِي مِثْلِ هَذَا، أَنَّهُ يُجَدِّدُ لَهَا صَدَاقًا.

حَدَّثَنَا بِذَلِكَ سُلَيْمَانُ بْنُ شُعَيْبٍ قَالَ: ثنا الْخَصِيبُ قَالَ: ثنا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عُبَيْدِ الله، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ مِثْلَ ذَلِكَ.

فَهَذَا عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ ﵄، قَدْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْحُكْمَ فِي ذَلِكَ بَعْدَ رَسُولِ الله ﷺ، عَلَى غَيْرِ مَا كَانَ لِرَسُولِ الله ﷺ.

فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ سَمَاعًا سَمِعَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ دَلَّهُ عَلَى ذَلِكَ الْمَعْنَى الَّذِي اسْتَدْلَلْنَا بِهِ نَحْنُ عَلَى خُصُوصِيَّةِ رَسُولِ الله ﷺ فِي ذَلِكَ [(١)]، بِمَا وَصَفْنَا دُونَ النَّاسِ.

[شرح معاني الآثار للطحاوي ٣/ ٢١ رقم ٤٣٠٠ - ٤٣٠١].

قلت: هذا الحديث الذي أيد به الطحاوي الخصوصية لا ينهض لفصل النزاع وذلك للاحتمال الموجود فيه، وحديثه الأول صريح في أن النبي ﷺ أعتق جويرية وجعل عتقها صداقها، والأصل في ذلك الاقتداء به ﷺ حتى تثبت الخصوصية، وهذا الحديث فيه الاحتمال المذكور يبطل الاستدلال، بخلاف جعل العتق صداقًا فإن الأحاديث صريحة في ذلك.

---

(١) استدل الطحاوي على الخصوصية بقوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

قال: فلما أباح الله لنبيه أن يتزوج بغير صداق، كان له أن يتزوج على العتاق الذي ليس بصداق، ومن لم يبح الله له أن يتزوج على غير صداق، لم يكن له أن يتزوج على العتاق، الذي ليس صداق.

وهذه الآية التي استدل بها الطحاوي على الخصوصية، استدل بها أيضًا ابن القيم على عدم الخصوصية.

فعند البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والطحاوي «أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَعْتَقَ صَفِيَّةَ وَجَعَلَ عِتْقَهَا صَدَاقَهَا». [البخاري في النكاح (٥٠٨٦، ٥١٦٩)، ومسلم في النكاح (١٣٦٥)، وأبو داود في النكاح (٢٠٥٤)، والترمذي في النكاح (١١١٥)، والطحاوي فيه ٣/ ٢٠].

وفي لفظ عند البخاري: «عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: سَبَى النَّبِيُّ ﷺ صَفِيَّةَ فَأَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا، فَقَالَ ثَابِتٌ لِأَنَسٍ: مَا أَصْدَقَهَا؟ قَالَ: أَصْدَقَهَا نَفْسَهَا فَأَعْتَقَهَا». [البخاري في المغازي (٤٢٠١)].

وفي لفظ عند مسلم: «تَزَوَّجَ صَفِيَّةَ وَأَصْدَقَهَا عِتْقَهَا». [مسلم في النكاح (١٣٦٥)].

وفي لفظ عندالبخاري من حديث أنس ﷺ أيضًا قَالَ: «صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ الصُّبْحَ قَرِيبًا مِنْ خَيْبَرَ بِغَلَسٍ، ثُمَّ قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ... الحديث.

وفيه: «وَكَانَ فِي السَّبْيِ صَفِيَّةُ، فَصَارَتْ إِلَى دَحْيَةَ الْكَلْبِيِّ، ثُمَّ صَارَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَجَعَلَ عِتْقَهَا صَدَاقَهَا، فَقَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ صُهَيْبٍ لِثَابِتٍ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ آنْتَ قُلْتَ لِأَنَسٍ: مَا أَصْدَقَهَا؟ فَحَرَّكَ ثَابِتٌ رَأْسَهُ تَصْدِيقًا لَهُ». [البخاري في المغازي (٤٢٠٠)].

ولفظ مسلم أن دِحْيَةَ ﷺ قَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَعْطِنِي جَارِيَةً مِنَ السَّبْيِ، فَقَالَ: «**اذْهَبْ فَخُذْ جَارِيَةً**»، فَأَخَذَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ، فَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ الله ﷺ فَقَالَ يَا نَبِيَّ الله، أَعْطَيْتَ دِحْيَةَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ سَيِّدِ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ، مَا تَصْلُحُ إِلَّا لَكَ، قَالَ: ادْعُوهُ بِهَا، قَالَ: فَجَاءَ بِهَا فَلَـمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «**خُذْ جَارِيَةً مِنَ السَّبْيِ غَيْرَهَا**»، قَالَ: وَأَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا، فَقَالَ لَهُ ثَابِتٌ: يَا أَبَا حَمْزَةَ (كنية أنس بن مالك ﷺ خادم رسول الله ﷺ) مَا أَصْدَقَهَا؟ قَالَ: نَفْسَهَا، أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا. [مسلم في النكاح (١٣٦٥)].

فهذه الألفاظ كلها صريحة في صحة جعل العتق صداقًا، ومع هذا كله فقد صرفها بعض العلماء عن ظاهرها وأولها بتأويلات بعيدة فيها تكلف، من تلك التأويلات: دعوى الخصوصية لرسوله الله ﷺ، كما تقدم في قول الطحاوي، ومنها أنه ﷺ لما أعتقها وجبت له عليها قيمتها فصح به العقد، ومنها أن هذا شيء قاله أنس بن مالك ﷺ من قِبَل نفسه، لما لم يعلم أن رسول الله ﷺ ساق صداقًا... إلخ.

والذي لا ينبغي العدول عنه في هذه المسألة بالذات هو العمل بما نصت عليه الأحاديث وهي صريحة في هذا؛ لأن الأصل عدم الخصوصية؛ ولأن الراوي أعرف بتأويل ما روى، فما كان لأنس ﷺ أن يقول شيئًا من قِبل نفسه، لا سيما أنه قد ورد عند الطبراني وأبي الشيخ عن صفية نفسها قالت: «**أعتقني وجعل عتقي صداقي**». [فتح الباري شرح صحيح البخاري ٩/ ١٢٩].

وهذا يوافق ما قاله أنس ﷺ، وصاحب القصة أدرى بها من غيره.

وقد تعرض لهذه المسألة ابن القيم في زاد المعاد أثناء كلامه على الأحكام الفقهية في غزوة خيبر، وأيد القول بصحة جعل العتق صداقًا، ورد على القائلين بغيره.

وهذا نص كلامه: «وَمِنْهَا (أي من الأحكام الفقهية المأخوذة من غزوة خيبر): جَوَازُ عِتْقِ الرَّجُلِ أَمَتَهُ، وَجَعْلِ عِتْقِهَا صَدَاقًا لَهَا، وَيَجْعَلُهَا زَوْجَتَهُ بِغَيْرِ إِذْنِهَا، وَلَا شُهُودٍ وَلَا وَلِيٍّ غَيْرِهِ، وَلَا لَفْظِ إِنْكَاحٍ وَلَا تَزْوِيجٍ، كَمَا فَعَلَ ﷺ بِصَفِيَّةَ، وَلَمْ يَقُلْ قَطُّ: هَذَا خَاصٌّ بِي، وَلَا أَشَارَ إِلَى ذَلِك، مَعَ عِلْمِهِ بِاقْتِدَاءِ أُمَّتِهِ بِهِ، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ: إِنَّ هَذَا لَا يَصْلُحُ لِغَيْرِهِ، بَلْ رَوَوْا الْقِصَّةَ وَنَقَلُوهَا إِلَى الْأُمَّةِ، وَلَمْ يَمْنَعُوهُمْ، وَلَا رَسُولُ الله ﷺ مِنْ الِاقْتِدَاءِ بِهِ فِي ذَلِكَ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ لَـمَّا خَصَّهُ فِي النِّكَاحِ بِالْمَوْهُوبَةِ، قَالَ: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، فَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ خَالِصَةً لَهُ مِنْ دُونِ أُمَّتِهِ، لَكَانَ هَذَا التَّخْصِيصُ أَوْلَى بِالذِّكْرِ لِكَثْرَةِ ذَلِكَ مِنْ السَّادَاتِ مَعَ إِمَائِهِمْ، بِخِلَافِ الْمَرْأَةِ الَّتِي تَهَبُ نَفْسَهَا لِلرَّجُلِ لِنُدْرَتِهِ وَقِلَّتِهِ، أَوْ مِثْلُهُ فِي الْحَاجَةِ إِلَى الْبَيَانِ، وَلَا سِيَّمَا وَالْأَصْلُ مُشَارَكَةُ الْأُمَّةِ لَهُ، وَاقْتِدَاؤُهَا بِهِ، فَكَيْفَ يَسْكُتُ عَنْ مَنْعِ الِاقْتِدَاءِ بِهِ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ الَّذِي لَا يَجُوزُ مَعَ قِيَامِ مُقْتَضَى الْجَوَازِ، هَذَا شِبْهُ الْمُحَالِ، وَلَمْ تَجْتَمِعْ الْأُمَّةُ عَلَى عَدَمِ الِاقْتِدَاءِ بِهِ فِي ذَلِكَ، فَيَجِبُ الْمَصِيرُ إِلَى إِجْمَاعِهِمْ. وَبِالله التَّوْفِيقُ.

وَالْقِيَاسُ الصَّحِيحُ: يَقْتَضِي جَوَازَ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَمْلِكُ رَقَبَتَهَا، وَمَنْفَعَةَ وَطْئِهَا، وَخِدْمَتِهَا، فَلَهُ أَنْ يُسْقِطَ حَقَّهُ مِنْ مِلْكِ الرَّقَبَةِ، وَيَسْتَبْقِيَ مِلْكَ الْمَنْفَعَةِ، أَوْ نَوْعًا مِنْهَا، كَمَا لَوْ أَعْتَقَ عَبْدَهُ، وَشَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ يَخْدِمَهُ مَا عَاشَ فَإِذَا أَخْرَجَ الْمَالِكُ رَقَبَةَ مِلْكِهِ، وَاسْتَثْنَى نَوْعًا مِنْ مَنْفَعَتِهِ، لَمْ يُمْنَعْ مِنْ ذَلِكَ فِي عَقْدِ الْبَيْعِ، فَكَيْفَ يُمْنَعُ مِنْهُ فِي عَقْدِ النِّكَاحِ، وَلَـمَّا كَانَتْ مَنْفَعَةُ الْبُضْعِ لَا تُسْتَبَاحُ إِلَّا بِعَقْدِ نِكَاحٍ أَوْ مِلْكِ يَمِينٍ، وَكَانَ إِعْتَاقُهَا يُزِيلُ مِلْكَ الْيَمِينِ عَنْهَا، كَانَ مِنْ ضَرُورَةِ اسْتِبَاحَةِ هَذِهِ الْمَنْفَعَةِ جَعْلُهَا زَوْجَةً، وَسَيِّدُهَا كَانَ يَلِي نِكَاحَهَا، وَبَيْعَهَا مِمَّنْ شَاءَ بِغَيْرِ رِضَاهَا، فَاسْتَثْنَى لِنَفْسِهِ مَا كَانَ يَمْلِكُهُ مِنْهَا، وَلَـمَّا كَانَ مِنْ ضَرُورَتِهِ عَقْدُ النِّكَاحِ مَلَكَهُ؛ لِأَنَّ بَقَاءَ مِلْكِهِ الْمُسْتَثْنَى لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهِ، فَهَذَا مَحْضُ الْقِيَاسِ الصَّحِيحِ الْمُوَافِقِ لِلسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ. وَاللهُ أَعْلَمُ». [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٣٤٩-٣٥٠][(١)]. [مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٤٣٠-٤٣٧].

١٥ ــ مشروعية قسمة الغنائم بين المقاتلين[(٢)]:

يقول د/ البوطي: «مشروعية تقسيم الغنائم بين المقاتلين، بعد استثناء السلب والخُمس من الغنيمة: فأما السلب فهو ما يكون مع المقتول من سلاح ونحوه، فيجوز أن يأخذه القاتل لقوله ﷺ: «**مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ**».

[البخاري في فرض الخُمس (٣١٤٢)، وفي المغازي (٤٣٢٢)، وفي الأحكام (٧١٧٠)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٥١)، وأبو داود في الجهاد (٢٧١٧)، والترمذي في السير (١٥٦٦٢)، ومالك في الموطأ كتاب الجهاد (٩٩٠)].

---

(١) ينظر: زاد المعاد ٢/ ١٦٠، ١/ ٤٣، ٤/ ٢٧، وسبل السلام للصنعاني ٣/ ١٤٨، ونيل الأوطار للشوكاني ٦/ ١٧٥-١٧٦، وشرح ثلاثيات مسند أحمد لمحمد السفاريني ١/ ٣٨٨- ٣٩٠.

(٢) سبق تفصيلها في الدروس المستفادة من المرحلة الثالثة من غزوة بدر، المبحث الثامن: الدروس المستفادة من قضية الأنفال.

وأما الخُمس فهو لمن ذكرهم الله تعالى في كتابه: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١]، وأما الأخماس الأربعة فتوزع على المقاتلين كما كان يفعل رسول الله ﷺ، وهذا متفق عليه بين الأئمة في الأموال المنقولة، أما الأرض فقد وقع الخلاف في أمر تقسيمها كما عرضنا له عند الحديث عن أمر بني النضير». [فقه السيرة للبوطي ٢١٨].

ويقول د/ قريبي: «ورد في حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قسم سبايا بني المصطلق وأن جويرية بنت الحارث وقعت في سهم ثابت بن شماس أو ابن عم له. الحديث.

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فَأَصَبْنَا سَبْيًا مِنْ سَبْيِ الْعَرَبِ، فَاشْتَهَيْنَا النِّسَاءَ، فَاشْتَدَّتْ عَلَيْنَا الْعُزْبَةُ، وَأَحْبَبْنَا الْعَزْلَ... [سبق تخريجه في حكم العزل].

وقد بينتْ الأحاديث الأخرى كيفية القسمة.

فعند البخاري عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ جَعَلَ لِلْفَرَسِ سَهْمَيْنِ وَلِصَاحِبِهِ سَهْمًا.

وفي لفظ: قَسَمَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ لِلْفَرَسِ سَهْمَيْنِ وَلِلرَّاجِلِ سَهْمًا.

قَالَ (القائل: فسره نافع هو: عبيد الله بن عمر العمري، الراوي عنه. قاله ابن حجر، فتح الباري ٧/ ٤٨٤): فَسَّرَهُ نَافِعٌ فَقَالَ: إِذَا كَانَ مَعَ الرَّجُلِ فَرَسٌ فَلَهُ ثَلَاثَةُ أَسْهُمٍ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فَرَسٌ فَلَهُ سَهْمٌ.

[البخاري في الجهاد (٢٨٦٣)، وفي المغازي (٤٢٢٨)].

وأورده مسلم بلفظ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَسَمَ فِي النَّفَلِ (بالتحريك: الغنيمة وجمعه أنفال، والنفل بالسكون وقد يحرك الزيادة. النهاية لابن الأثير ٥/ ٩٩، قلت: وهو في الحديث بالتحريك) لِلْفَرَسِ سَهْمَيْنِ وَلِلرَّجُلِ سَهْمًا.

[مسلم في الجهاد (١٧٦٢)].

وعند أبي داود: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَسْهَمَ لِرَجُلٍ وَلِفَرَسِهِ ثَلَاثَةَ أَسْهُمٍ: سَهْمًا لَهُ، وَسَهْمَيْنِ لِفَرَسِهِ.

[أبو داود (٢٧٣٣، ٢٧٣٤)، وابن ماجه (٢٨٥٤)، كلاهما في الجهاد، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

والأحاديث صريحة في أن للفرس سهمين ولصاحبه سهمًا، فيكون للفارس ثلاثة أسهم، سهم له وسهمان لفرسه، وللراجل سهم واحد.

وبهذا قال الجمهور من العلماء لهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة في ذلك، وخالف الأحناف فقالوا: للفارس سهمان فقط سهم له وسهم لفرسه، واحتجوا بما رواه أبو داود من حديث مُجَمِّعِ بْنِ جَارِيَةَ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «... أَعْطَى الْفَارِسَ سَهْمَيْنِ، وَأَعْطَى الرَّاجِلَ سَهْمًا».

[أبو داود في الجهاد (٢٧٣٦)، وقَالَ أَبُو دَاوُد: حَدِيثُ أَبِي مُعَاوِيَةَ أَصَحُّ وَالْعَمَلُ عَلَيْهِ. أي الحديث السابق].

وقد أجاب ابن حجر عن هذا الحديث بأن في إسناده ضعفًا (لأن فيه يعقوب بن مجمع بن يزيد بن جارية الأنصاري، المدني، مقبول من الرابعة. د. التقريب ٢/ ٣٧٧)، ثم قال: ولو ثبت فيكون معناه: أسهم للفارس بسبب فرسه سهمين، غير سهمه المختص به.

وقد رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ومسنده بهذا الإسناد فقال: «للفرس».

ثم قال ابن حجر: وللنسائي من حديث الزبير «أن النبي ﷺ ضرب له أربعة أسهم وسهمين لفرسه وسهمًا له وسهمًا لقرابته». (ينظر الحديث في سنن النسائي ٦/ ١٩٠ كتاب الخيل باب سهمان للخيل، ولفظه: «ضرب رسول الله ﷺ عام خيبر للزبير بن العوام أربعة أسهم: سهمًا للزبير وسهمًا لذي القربى، لصفية بنت عبد المطلب أم الزبير، وسهمين للفرس». والحديث حسن).

[فتح الباري ٦/ ٦٨، وينظر: سبل السلام للصنعاني ٤/ ٥٨، ونيل الأوطار للشوكاني ٧/ ٢٩٩- ٣٠٠].

والقول الراجح في هذا هو ما ذهب إليه الجمهور لقوة أدلتهم في ذلك.

[مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٤٢٧-٤٢٩].

١٦ ـ مشروعية دية قتل الخطأ:

يقول د/ أبو فارس: «أخذ هذا من دفع النبي ﷺ دية هشام بن صبابة الذي قتل خطأ لأخيه مقيس بن صبابة». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٤٦].

١٧ ـ عقوبة المرتد القتل:

يقول د/ أبو فارس: «هذا ما حكم به رسول الله ﷺ على مقيس حينما ارتد عن الإسلام وقتل غدرًا قاتل أخيه خطأ، إذ حكم النبي ﷺ بإهدار دمه، يوم فتح مكة وإن كان متعلقًا بأستار الكعبة».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٤٦].

١٨ ـ النهي عن طرق النساء ليلاً:

إذا كان الرجل في سفر وأراد العودة إلى بيته فلا يجوز للرجل أن يأتي أهله فجأة، وخاصة في هذا العصر الذي تطورت فيه وسائل الاتصال بين الناس، ولابد له أن يُعْلِمَهُم بوقت رجوعه إليه؛ لما ورد من قوله ﷺ وفعله، فقد نهى النبي ﷺ عن طروق النساء ليلًا، فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِذَا أَطَالَ أَحَدُكُمْ الغَيْبَةَ فَلا يَطْرُقَنَّ**[1] **[يَطْرُقْ] أَهْلَهُ لَيْلًا**».

[صحيح: (حم خ م) عن جابر رضي الله عنه ـ صحيح الجامع الصغير: ٣٥٦].

وقَالَ جَابِرٌ رضي الله عنه: **نَهَانَا رَسُولُ الله ﷺ عَنِ الطُّرُوقِ إِذَا جِئْنَا مِنَ السَّفَرِ**.

[صحيح: (حم: ١٥١٨٦م١) عن جابر رضي الله عنه].

وقال ﷺ: «**لا تَطْرُقُوا النِّسَاءَ لَيْلًا**». [صحيح: (طب) عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ صحيح الجامع الصغير: ٧٣٦٢].

---

(١) **الطروق بالضم**: المجيء بالليل من سفر أو من غيره على غفلة، ويقال لكل آت بالليل طارق ولا يقال بالنهار إلا مجازًا... وسمي الآتي بالليل طارقًا لأنه يحتاج غالبًا إلى دق الباب، وقيل: أصل الطروق السكون، ومنه أطرق رأسه، فلما كان الليل يسكن فيه سمي الآتي فيه طارقًا. فتح الباري ٩/ ٢٥٢.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ أقبل من غزوة فقال: «**أَيُّهَا النَّاسُ لا تَطْرُقُوا النِّسَاءَ لَيْلًا، وَلا تَعْتَرُوهُنَّ** (أي لا تتشددوا عليهم)»، وبعث راكبًا إلى المدينة بأن الناس داخلون بالغداة.

[إسناده صحيح: (الخرائطي في مساوئ الأخلاق٨٤٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما ـ وقال محققه: «أورده صاحب كنز العمال (١٧٦٠٢)، وعزاه لعبد الرزاق، وابن أبي شيبة في مصنفيهما، وجعلاه موقوفًا على ابن عمر»].

وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: **كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لا يَطْرُقُ أَهْلَهُ [لَيْلًا]، كَانَ [يَأْتِيهِمْ] لا يَدْخُلُ إلا غُدْوَةً أَوْ عَشِيَّةً.**

وفي رواية لأحمد عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: **كَانَ رَسُولُ الله ﷺ لا يَطْرُقُ أَهْلَهُ لَيْلًا، كَانَ يَقْدَمُ غُدْوَةً أَوْ عَشِيَّةً.** [صحيح: (حم خ م ن) عن أنس رضي الله عنه ـ صحيح الجامع الصغير: ٤٨٦٢].

وعن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: **كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَكْرَهُ أَنْ يَأْتِيَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ طُرُوقًا.**

[صحيح: (خ) عن جابر رضي الله عنه ـ كتاب النكاح باب لا يطرق أهله ليلًا إذا أطال الغيبة].

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ رَوَاحَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ لَيْلًا فَتَعَجَّلَ إِلَى امْرَأَتِهِ، فَإِذَا فِي بَيْتِهِ مِصْبَاحٌ، وَإِذَا مَعَ امْرَأَتِهِ شَيْءٌ، فَأَخَذَ السَّيْفَ، فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ: إِلَيْكَ إِلَيْكَ عَنِّي، فُلانَةُ تُمَشِّطُنِي، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، **فَنَهَى أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ لَيْلًا.** [إسناده صحيح: (الخرائطي في مساوئ الأخلاق٨٤٥) عن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، وقال محققه: إسناده صحيح، وأخرجه الحاكم ٤/ ٢٩٣ من طريق آخر مرسلًا، ورواه أحمد عن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه: مسند أحمد ٢٥/ ١١ رقم ١٥٧٣٦ ، وقال الشيخ الأرناؤوط: مرفوعه صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه].

وعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: **نَهَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَطْرُقَ أَهْلَهُ لَيْلًا.**

وعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: **إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ نَهَى أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ بَعْدَ صَلاةِ العِشَاءِ.**

وفي رواية: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: **نَهَى رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ لَيْلًا، أَوْ [أن] يُخَوِّنَهُمْ، أَوْ يَلْتَمِسَ عَثَرَاتِهِمْ.** [صحيح: (حم خ م مي) عن سعد بن أبي وقاص وجابر بن عبد الله وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم، وأورده الإمام الخرائطي عن جابر رضي الله عنه بلفظ: «نهانا رسول الله ﷺ أن نطرق أهلنا ليلًا إذا قدمنا من سفر». وحسن محققه إسناده برقم ٨٤٠].

يعني لا يفاجئهم تهمة وتخونًا.

وفي رواية لأحمد عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: **كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَنْهَى أَحَدَنَا إِذَا جَاءَ مِنْ سَفَرٍ أَنْ يَطْرُقَ أَهْلَهُ، قَالَ: فَطَرَقْنَاهُنَّ بَعْدُ.**

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ، قَالَ: فَاسْتَأْذَنْتُ أَتَعَجَّلُ، قُلْتُ: إِنِّي تَزَوَّجْتُ، قَالَ: **ثَيِّبًا أَمْ بِكْرًا؟** قَالَ: قُلْتُ: ثَيِّبًا، قَالَ: **فَأَلا كَانَتْ بِكْرًا تُلاعِبُهَا وَتُلاعِبُكَ؟** قَالَ: **انْطَلِقْ وَاعْمَلْ عَمَلًا كَيِّسًا،** قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَعْنِي لا تَطْرُقْهُنَّ لَيْلًا.

وفي رواية: قَالَ ﷺ: **أَصَبْتَ إِنْ شَاءَ اللهُ**، قَالَ: **أَمَا إِنَّا لَوْ قَدْ جِئْنَا صِرَارًا** (بئر قديمة على ثلاثة أميال من المدينة) **أَمَرْنَا بِجَزُورٍ فَنُحِرَتْ، وَأَقَمْنَا عَلَيْهَا يَوْمَنَا ذَلِكَ، وَسَمِعَتْ بِنَا فَنَفَضَتْ نَمَارِقَهَا**، قَالَ: قُلْتُ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا لَنَا مِنْ نَمَارِقَ، قَالَ: **إِنَّهَا سَتَكُونُ، فَإِذَا أَنْتَ قَدِمْتَ فَاعْمَلْ عَمَلًا كَيِّسًا**.

قَالَ: فَلَمَّا جِئْنَا صِرَارًا أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِجَزُورٍ فَنُحِرَتْ، فَأَقَمْنَا عَلَيْهَا ذَلِكَ اليَوْمَ، فَلَمَّا أَمْسَى رَسُولُ اللهِ ﷺ دَخَلَ وَدَخَلْنَا. [مسند أحمد ٢٣/ ١٧٢، ٢٧١ رقم ١٤٨٩٦، ١٥٠٢٦، وقال الشيخ الأرناؤوط: حديث صحيح، وقد زاد الإمام الخرائطي في بدايته «لا تأتي أهلك طروقًا»، وحسن محققه إسناده رقم ٨٤٤].

ويبين النبي ﷺ الحكمة من هذا النهي، ففي حديث جابر ﷺ قَالَ: «فَلَمَّا قَدِمْنَا ذَهَبْنَا لِنَدْخُلَ ـ أي المدينة ـ فَقَالَ ﷺ: «**أَمْهِلُوا حَتَّى تَدْخُلُوا لَيْلًا ـ أَيْ عِشَاءً ـ لِكَيْ تَمْتَشِطَ** (تسرح شعرها وتصلحه) **الشَّعِثَةُ** (منتفشة الشعر)، **وَتَسْتَحِدَّ** (الاستحداد: إزالة الشعر النابت حول العورة) **الْمُغِيبَةُ** (مَنْ غاب عنها زوجها)». [صحيح: (خ م د ن حب) عن جابر ﷺ ـ صحيح الجامع الصغير: ١٤٠٤، وجاء برواية: «إذا دخلت ليلًا فلا تدخل على أهلك حتى تستحد المغيبة وتمتشط الشعثة». (خ) عن جابر ﷺ ـ صحيح الجامع ٥٢٥، وبرواية: «إذا قدم أحدكم ليلًا فلا يأتين أهله طروقًا حتى تستحد المغيبة وتمتشط الشعثة». (حم م) عن جابر ﷺ ـ صحيح الجامع الصغير: ٧٢٥].

قال الحافظ ابن حجر: «وَقَوْلُهُ فِي طَرِيقِ عَاصِمٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْ جَابِرٍ ﷺ «**إِذَا أَطَالَ أَحَدُكُمُ الْغَيْبَةَ فَلَا يَطْرُقُ أَهْلَهُ لَيْلًا**» التَّقْيِيدُ فِيهِ بِطُولِ الْغَيْبَةِ يُشِيرُ إِلَى أَنَّ عِلَّةَ النَّهْيِ إِنَّمَا تُوجَدُ حِينَئِذٍ، فَالْحُكْمُ يَدُورُ مَعَ عِلَّتِهِ وُجُودًا وَعَدَمًا ، فَلَمَّا كَانَ الَّذِي يَخْرُجُ لِحَاجَتِهِ مَثَلًا نَهَارًا وَيَرْجِعُ لَيْلًا لا يَتَأَتَّى لَهُ مَا يَحْذَرُ مِنَ الَّذِي يُطِيلُ الْغَيْبَةَ كَانَ طُولُ الْغَيْبَةِ مَظِنَّةَ الأَمْنِ مِنَ الهُجُومِ، فَيَقَعُ الَّذِي يَهْجُمُ بَعْدَ طُولِ الْغَيْبَةِ غَالِبًا عَلَى مَا يُكْرَهُ، إِمَّا أَنْ يَجِدَ أَهْلَهُ عَلَى غَيْرِ أُهْبَةٍ مِنَ التَّنَظُّفِ وَالتَّزَيُّنِ الْمَطْلُوبِ مِنَ الْمَرْأَةِ، فَيَكُونَ ذَلِكَ سَبَبُ النَّفْرَةِ بَيْنَهُمَا، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ فِي حَدِيثِ البَابِ الَّذِي بَعْدَه بِقَوْلِهِ: «**كَيْ تَسْتَحِدَّ الْمُغِيبَةُ، وَتَمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ**».

وَيُؤْخَذُ مِنْهُ كَرَاهَةُ مُبَاشَرَةِ الْمَرْأَةِ فِي الحَالَةِ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا غَيْرَ مُتَنَظِّفَةٍ؛ لِئَلا يَطَّلِعَ مِنْهَا عَلَى مَا يَكُونُ سَبَبًا لِنَفْرَتِهِ مِنْهَا، وَإِمَّا أَنْ يَجِدَهَا عَلَى حَالَةٍ غَيْرِ مُرْضِيَةٍ، وَالشَّرْعُ مُحَرِّضٌ عَلَى السَّتْرِ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «**أَنْ يَتَخَوَّنَهُمْ وَيَتَطَلَّبَ عَثَرَاتِهِمْ**»، فَعَلَى هَذَا مَنْ أَعْلَمَ أَهْلَهُ بِوُصُولِهِ، وَأَنَّهُ يَقْدُمُ فِي وَقْتٍ كَذَا مَثَلًا لا يَتَنَاوَلُهُ هَذَا النَّهْيُ، وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ اِبْنُ خُزَيْمَةَ فِي صَحِيحِهِ ، ثُمَّ سَاقَ مِنْ حَدِيثِ اِبْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ غَزْوَةٍ فَقَالَ: **لا تَطْرُقُوا النِّسَاءَ**، وَأَرْسَلَ مَنْ يُؤَذِّنُ النَّاسَ أَنَّهُمْ قَادِمُونَ».

قَالَ اِبْنُ أَبِي جَمْرَةَ نَفَعَ اللهُ بِهِ: فِيهِ النَّهْيُ عَنْ طُرُوقِ الْمُسَافِرِ أَهْلَهُ عَلَى غِرَّةٍ مِنْ غَيْرِ تَقَدُّمِ إِعْلامٍ مِنْهُ لَهُمْ بِقُدُومِهِ ، وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا وَقَعَتْ إِلَيْهِ الإِشَارَةُ فِي الحَدِيثِ.

قَالَ: وَقَدْ خَالَفَ بَعْضُهُمْ فَرَأَى عِنْدَ أَهْلِهِ رَجُلًا، فَعُوقِبَ بِذَلِكَ عَلَى مُخَالَفَتِهِ. ا. هـ.

وَأَشَارَ بِذَلِكَ إِلَى حَدِيثٍ أَخْرَجَهُ اِبْنُ خُزَيْمَةَ عَنْ اِبْنِ عُمَر ﷺ قَالَ: «نَهَى رَسُولُ الله ﷺ أَنْ تُطْرَقَ النِّسَاءُ لَيْلًا، فَطَرَقَ رَجُلانِ، كِلاهُمَا وَجَدَ مَعَ اِمْرَأَتِهِ مَا يَكْرَهُ»، وَأَخْرَجَهُ مِنْ حَدِيثِ اِبْنِ عَبَّاس نَحْوَهُ وَقَالَ فِيهِ: «فَكِلاهُمَا وَجَدَ مَعَ اِمْرَأَتِهِ رَجُلًا». (١)

وَوَقَعَ فِي حَدِيثِ مُحَارِبٍ عَنْ جَابِرٍ ﷺ «أَنَّ عَبْدَ الله بْنَ رَوَاحَةَ ﷺ أَتَى اِمْرَأَتَهُ لَيْلًا وَعِنْدَهَا اِمْرَأَةٌ تُمَشِّطُهَا فَظَنَّهَا رَجُلًا، فَأَشَارَ إِلَيْهَا بِالسَّيْفِ، فَلَمَّا ذَكَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ نَهَى أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ لَيْلًا». أَخْرَجَهُ أَبُو عَوَانَةَ فِي صَحِيحِهِ. [وقد سبق تخريجه عن أحمد في مسنده].

وَفِي الحَدِيثِ الحَثُّ عَلَى التَّوَادِّ وَالتَّحَابِّ خُصُوصًا بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ؛ لأَنَّ الشَّارِعَ رَاعَى ذَلِكَ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ مَعَ اِطِّلاعِ كُلٍّ مِنْهُمَا عَلَى مَا جَرَتِ العَادَةُ بِسِتْرِهِ، حَتَّى إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لا يَخْفَى عَنْهُ مِنْ عُيُوبِ الآخَرِ شَيْءٌ فِي الغَالِبِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَنَهَى عَنِ الطُّرُوقِ لِئَلا يَطَّلِعَ عَلَى مَا تَنْفِرُ نَفْسُهُ عَنْهُ، فَيَكُون مُرَاعَاةُ ذَلِكَ فِي غَيْرِ الزَّوْجَيْنِ بِطَرِيقِ الأَوْلَى، وَيُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ الاسْتِحْدَادَ وَنَحْوَهُ مِمَّا تَتَزَيَّنُ بِهِ المَرْأَةُ لَيْسَ دَاخِلًا فِي النَّهْيِ عَنْ تَغْيِيرِ الخِلقَةِ، وَفِيهِ التَّحْرِيضُ عَلَى تَرْكِ التَّعَرُّضِ لِمَا يُوجِبُ سُوءَ الظَّنِّ بِالْمُسْلِمِ». [فتح الباري ٩/ ٢٥٢].

ويعلق صاحب الظلال على قوله ﷺ: «**أَمْهِلُوا حَتَّى تَدْخُلُوا لَيْلًا ـ أَيْ عِشَاءً ـ لِكَيْ تَمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ، وَتَسْتَحِدَّ الْمُغِيبَةُ**» بقوله: «إلى هذا الحد من اللطف والدقة بلغ حس رسول الله ﷺ وصحابته ﷺ، بما علَّمهم الله من ذلك الأدب الرفيع الوضيء، المشرق بنور الله.

ونحن اليوم مسلمون، ولكن حساسيتنا بمثل هذه الدقائق قد تبلدت وغلظت، وإن الرجل ليهجم على أخيه في بيته، في أية لحظة من لحظات الليل والنهار، يطرقه ويطرقه ويطرقه فلا ينصرف أبدًا حتى يزعج أهل البيت فيفتحوا له، وقد يكون في البيت هاتف (تليفون) يملك أن يستأذن عن طريقه، قبل أن يجيء، ليؤذن له أو يعلم أن الموعد لا يناسب؛ ولكنه يهمل هذا الطريق ليهجم في غير أوان،

---

(١) وروى الترمذي عَنْ جَابِرٍ ﷺ **أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَاهُمْ أَنْ يَطْرُقُوا النِّسَاءَ لَيْلًا**، وَفِي البَاب عَنْ أَنَسٍ وَابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ جَابِرٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ **أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَاهُمْ أَنْ يَطْرُقُوا النِّسَاءَ لَيْلًا**، قَالَ: **فَطَرَقَ رَجُلانِ بَعْدَ نَهْيِ النَّبِيِّ ﷺ فَوَجَدَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا**. الترمذي في الاستئذان والآداب (٢٧١٢)، وقد رواه الدارمي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لا تَطْرُقُوا النِّسَاءَ لَيْلًا، قَالَ: وَأَقْبَلَ رَسُولُ الله ﷺ قَافِلًا (راجعًا) فَانْسَاقَ رَجُلانِ إِلَى أَهْلَيْهِمَا، فَكِلاهُمَا وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا**، وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ: **كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ نَزَلَ الْمُعَرَّسَ ثُمَّ قَالَ: لا تَطْرُقُوا النِّسَاءَ لَيْلًا، فَخَرَجَ رَجُلانِ مِمَّنْ سَمِعَ مَقَالَتَهُ فَطَرَقَا أَهْلَيْهِمَا فَوَجَدَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا**» ـ سنن الدارمي في المقدمة (٤٤٤، ٤٤٥)، وروى أحمد عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ ﷺ **أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ نَزَلَ العَقِيقَ فَنَهَى عَنْ طُرُوقِ النِّسَاءِ اللَّيْلَةَ الَّتِي يَأْتِي فِيهَا، فَعَصَاهُ فَتَيَانِ، فَكِلاهُمَا رَأَى مَا كَرِهَ**». المسند: ٥٨١٤، وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح.

وعلى غير موعد، ثم لا يقبل العرف أن يُرَدَّ عن البيت ـ وقد جاء ـ مهما كره أهل البيت تلك المفاجأة بلا إخطار ولا انتظار!

ونحن اليوم مسلمون، ولكننا نطرق إخواننا في أية لحظة في موعد الطعام، فإن لم يقدم لنا الطعام وجدنا في أنفسنا من ذلك شيئًا! ونطرقهم في الليل المتأخر، فإن لم يدعونا إلى المبيت عندهم وجدنا في أنفسنا من ذلك شيئًا! دون أن نقدر أعذارهم في هذا وذاك!

ذلك أننا لا نتأدب بأدب الإسلام؛ ولا نجعل هوانا تبعًا لما جاء به رسول الله ﷺ إنما نحن عبيد لعرف خاطىء، ما أنزل الله به من سلطان!

ونرى غيرنا ممن لم يعتنقوا الإسلام، يحافظون على تقاليد في سلوكهم تشبه ما جاء به ديننا ليكون أدبًا لنا في النفس، وتقليدًا من تقاليدنا في السلوك، فيعجبنا ما نراهم عليه أحيانًا؛ ونتندر به أحيانًا، ولا نحاول أن نعرف ديننا الأصيل، فنفيء إليه مطمئنين». [في ظلال القرآن ٤/ ٢٥١٠].

المطلب الرابع
الدروس الاجتماعية

١ ـ استهداف مصلحة الدعوة من الزواج:

يقول د/ الزيد: «كان في زواجه ﷺ من جويرية بنت الحارث تكريمًا لتلك القبيلة العربية التي كانت من أعز قبائل العرب وأكبرها قدرًا وقد وقعوا في الأسر، ولما علم الصحابة بتزوج الرسول ﷺ منهم قالوا: أصهار رسول الله، فأطلقوا مَنْ بأيديهم من النساء والولدان، وهو حَلٌّ كريم لهذه المشكلة الكبيرة التي يؤدي بقاؤها إلى إذلال هذه القبيلة العظيمة، ولقد كان لهذا الحل أثره الكبير عليهم حيث أقبلوا مسلمين راغبين في الدخول في الدين. [ينظر: النهج المحمدي لعبد العزيز المسند ص ١٦١، والسيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٥٣- ٢٥٤]. [فقه السيرة للزيد ٤٧٦-٤٧٧].

ويقول د/ فيض الله: «إن إحلال زواج النبي ﷺ بما فوق الأربع وبما دونها، ثم تحريمه، كان بأمر الله وإذنه ووحيه، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، وقال: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ [الأحزاب: ٥٢].

ومهما يكن في جويرية رضي الله عنها من ملاحة وجمال، ففي بعض أمهات المؤمنين ملاحة وحسن وجمال، وما يصح أن يكون الحُسن وحده هو الباعث على الزواج في نظام الإسلام، وفي توجيهات النبوة، وقد عرفنا أن جويرية رضي الله عنها كانت بنت الحارث سيد قومه، ووقعت في قِسمة الغنائم في سهم أحد الأنصار، فافتدت نفسها منه، فأغلى فداءها؛ لمكانتها من قومها، وزعامة أبيها، فاستعانت بالنبي ﷺ فلبَّاها لذلك، وقضى كتابتها وتزوجها.

ولو أراد النبي ﷺ أن يصطفيها لحسنها، لاصطفاها قبل قسمة الغنائم، لكن الزواج منها كان لأمر أبعد من ذلك وأسمى، وهو الطمع في إسلام قومها؛ وبذلك يكثر سواد المسلمين، ويعز الإسلام، ومن لك بإسلام قبيلة كاملة، بأي سبيل؟

إنها الحكمة الدينية البعيدة، وليست الغرض النفسي القريب، ولا قضاء الوطر، ولا إشباع الرغبات الجنسية الحرَّى، كما يلغو بذلك بعض المستشرقين والمستغربين.

ومن أجل الإخلاص في استهداف المصلحة الإسلامية البعيدة، يسَّر الله هذا الزواج، وباركه، وحقق الأمل البعيد المنشود من ورائه، فأسلمت القبيلة كلها بإسلام جويرية، وإسلام أبيها الحارث.

أترى لو بقيت جويرية رضي الله عنها عند ذلك الأنصاري، الذي وقعت في سهمه، أكان في الوسع أن تتحقق هذه المصلحة الإسلامية العظيمة؟

إن الحكمة الحكيمة، كانت تكمن في هذا الزواج، الذي عاد على المسلمين بالبركة والقوة، والدعم المادي والأدبي معًا، للإسلام والمسلمين.

فأين من هذا السمو في الزواج النبوي، تحرضات المتحيزين، من أهل الكفر ومن بعض أهل الإيمان المتأثرين بهم، ووصفهم النبي ﷺ بذي الولع المفرط بمفاتن المرأة، والرغبة الجنسية العارمة، مما لا يليق بآحاد الناس الماديين، فضلًا عن سيد الناس، الذي غَيَّر وجه التاريخ، وسما بالإنسانية إلى أَوْجِّها، الذي قدره لها علام الغيوب، وما يزال بهديه، وبشريعته بطبيعتها الكاملة، قادرًا على هذا التغيير والسمو، كلما التُمِسَ المنقذ من هذا الضلال المادي المسرف المهلك الهابط؟». [صور وعبر لفيض الله ١٩٩-٢٠١].

ويقول د/ قريبي: «إن الحكمة تتجلى في موقفها أمام رسول الله ﷺ تذكر ما آل إليه أمرها، وما تجده من المرارة والأسى على ما حل بقومها؛ لأنها لا تعرف الذل والهوان، فهي ابنة سيد قومه، وقد رزئت بكارثة عظمى، فقتل زوجها ومقاتلة قومها وسبي النساء والذرية، ووقعت تحت ذل الرق والعبودية، فكاتبت على نفسها لتظفر بحريتها، ولكنها عجزت عن أداء كتابتها فجاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله المواساة والمساعدة على أداء كتابتها، فوقفت أمامه تُعرِّفه بنفسها ومكانتها في قومها، فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يَخْفَ عليك، فوقعتُ في سهم ثابت بن قيس بن شماس أو ابن عم له، فكاتبتُه على نفسي، فجئتُك، أستعينك على كتابتي، فرقَّ رسول الله ﷺ لحالها وعرض عليها أن يؤدي عنها كتابتها ويتزوجها ليرفع من شأنها ويعوضها خيرًا مما فقدته من العز والشرف والسنا؛ لأن بقاء مثلها عند أحد أفراد الجيش مما يزيد الأسى في نفسها، ومن ناحية أخرى ليعيد ﷺ إلى قومها العزة والكرامة، فكان زواجه ﷺ منها سببًا في إطلاقهم من قيود الأسر،

وقد وقع ما أراده ﷺ، فما أن تزوج جويرية حتى تسامع المسلمون بذلك، ففكوا جميع الأسرى الذين بأيديهم من بني المصطلق، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ، وعادت الحرية إلى القبيلة بأكملها وصاروا محل عناية واحترام عند المسلمين.

وهكذا كان زواج رسول الله ﷺ من جويرية بركة على قومها وعزًا لها ورفعة لقومها من الهوان الذي لحقهم، وبذلك يمكن لنا أن نستجلى بعض الحكمة في زواجه ﷺ منها».

[مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٤٨٥-٤٨٦].

٢ ـ أهمية البيت في تنشئة الأبناء:

يقول الشيخ عرجون: «كانت السيدة جويرية بنت الحارث سيد قومه قد نشأت في ظل سيادة أبيها لقومه في عزة وسؤدد وتمجد، وللبيوت أعظم الأثر في تنشئة ناشئيها، وتربية بناتها وبنيها، وقد تزوجت جويرية في حداثة سنها قبل أن يغزو النبي ﷺ قومها، وكان زوجها مسافع بن صفوان أحد فتيان خزاعة، جِذْم بني المصطلق، وأصل دوحتهم، اقترنت به في حداثة سنها قبل أن تتم العقد الثاني من عمرها، وقد قُتل عنها زوجها مسافع مشركًا فيمن قُتل من بني المصطلق الذين أسرعوا إلى القتال، فجندلتهم السيوف المسلمة.

والسيدة جويرية رضي الله عنها كانت على حداثة سنها حين سُبيت قد زينها الله تعالى بعقل رصين، وتفكير حصيف، وخلق كريم، وحسن تَأَتٍّ للأمور، وفصاحةٍ تعرف مواقع الكلام وتأثيره في النفوس الكريمة، وتعزز لا يصبر على الضيم، وسؤدد سما بها عن الرضا بمذلة الرق والتطلع إلى الحرية الكريمة، فرضيت بما كاتبت عليه ثابت بن قيس الأنصاري رضي الله عنه على بَهْظه؛ لأنها كانت نظَّارة إلى معالي الأمور، تخوض لها لجج المكارم لتجلس على ذروتها.

تصفها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فتقول: وكانت امراة حلوة ملاحة، أي ذات بهجة وحسن منظر».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٤٢].

٣ ـ عظمة حرية الإنسان:

يقول الشيخ عرجون: «وكان من سمو نفسها وطموح آمالها ورفعة تصوراتها، أنها بعد أن كاتبت على نفسها بهذا القدر الباهظ من المال أن جاءت إلى سيد المكرمات والمكارم، وأكرم البشر، وأعلمهم بمنازل الناس، وأحقهم أن تمد إليه يد العرفان لانتشاله من وهدة ألقته فيها أعاصير الدبور الجاهلية، فباعدت بينه وبين حياته التي كانت كلها نسائم من الصبا، ورشحات من ندى رغد العيش الرفيف ـ محمد ﷺ ـ وهو الذي هزم قومها، وأسر رجالهم، وسبى نساءهم وذراريهم بالأمس القريب، فكانت إحدى سبايا قومها،

وهي بنت سيدهم، ووقعت في سهم رجل من كواهل المسلمين وفصحاء الأنصار، ثابت بن قيس بن شماس ﷺ، خطيب رسول الله ﷺ في محافل المنافرات، فلم تصبر على بلاء الرق ـ تستعينه على الخروج من سجن حريتها لتتنفس عبير الكرامة وتستشعر العزة التي كانت تتقلب بين أزاهرها، وطلبت منه ﷺ أن يعينها، وأخبرته بخبرها فقالت: يا رسول الله ﷺ إني امرأة مسلمة، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله ﷺ، أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه، وكان من أمري ما لا يخفى عليك، وفي رواية أنها قالت: قد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، ووقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاتبني على ما لا طاقة لي به ولا يدان لي ولا قدرة عليه، وهو تسع أواق من الذهب، وما أكرهني على ذلك إلا أني رجوتك صلى الله عليك، وجئتك أسألك في كتابتي.

هيه يا أقدار الغيب! ماذا كتبت ألواحك الأزلية لجويرية بنت الحارث المصطلقية؟ هل ستعود إلى حظائر بني المصطلق وتحقق لها آمالها في الحرية، وفي زواجها من أحد فتيانهم؟ هذا أقصى ما كانت تتمناه، أن يخف عنها ثقل كتابتها، وأن تتحرر، وأن تعود إلى خدرها في بني المصطلق، ولكن أقدار الغيب قالت للحياة: لا، ليس هذا مكان هذا النبل المتسامي بمشاعره إلى ذرى الشموخ، بل مكانها أن ترتفع فوق ما تخيلته من عظائم آمالها، فاكتبوها على قدر مكانها من عظمة من جاءته لتسأله أن يعينها في كتابتها لتُحرر من العبودية وتعود حرة كريمة على نفسها وعلى قومها، لا إلى خدور حرائر بني المصطلق لتكون كما كانت قبل سبيها سيدتهن؛ لأنها بنت سيدهن، ولم يحملها على الرضا بهذه الكتابة الباهظة التي لا تطيقها، ولا يدان لها بها، ولا تقدر عليها إلا رجاوتها في مكارمه ﷺ؛ لتحقيق هذه العظيمة في نظرها؛ ولهذا جاءته تسأله في كتابتها، ولكن تساوموا بها فوق هامات آمالها إلى ميزان مكارم من وضعت رحال رجاوتها بين يديه لتكون معه في أعلى عليين، أُمًّا للمؤمنين، وحليلة سيد الأولين والآخرين ﷺ.

ذلك أمر أُبرم قبل أن تخلق دنيا الناس، وقبل أن تأتي جويرية إلى الحياة، بل قبل أن تكون على الأرض حياة، فليأخذ محمد ﷺ بيدها وليطيرها معه إلى ربض الفراديس، وإلى أرفع منزلة في الجنان ليخرجها وهي تضع رجاوتها وآمالها بين يديه من سجن الرق والعبودية لغير الله تعالى إلى آفاق السؤدد والعزة ولتكن زوجًا لأكرم البشر، ولتكن أُمًّا للمؤمنين، ثابت بن قيس، ومن فوقه، ومن دونه من سائر أبناء هذه الحياة من المؤمنين والمؤمنات، وسيدة من سيدات نساء العالمين.

أي قلم يستطيع أن يصور مشاعر السيدة الجليلة جويرية وقد صارت بكلمة واحدة أُمًّا للمؤمنين وزوجة لسيد المرسلين ﷺ: ليت للقلم قدرة على تصوير المعالم النفسية التي أفعمت كل ذرة في إحساس السيدة أم المؤمنين جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق، واستأثرت

بمشاعرها لحظة أن قال لها سيد الأولين والآخرين وهي تسأله في كتابتها: «**هل لك في خير من ذلك؟**»، فقالت: وما هو يا رسول الله؟ وهذا سؤال من طوَّفت به أنوار الغيب فأضاءت له آفاق الحياة ليرى بخياله وأحلامه مكانه الجديد منها، فقال لها ﷺ: «**أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك**».

وافرحة الأبد! أي غيث رويٍّ هذا الذي جادت به سماء الغيب لتسقي بنميره قلبًا كان قبل لحظة يتحرق تطلبًا لأدنى درجات الحرية البشرية، فماذا جرى في صحف المقادير؟ أهذا حُلُمُ نائمٍ؟ أم حقيقة يقظان بدَّلته المقادير حياة بحياة، فرفعته من حضيض العبودية الإنسانية إلى قمة العز والسؤدد، وبوأته ذروة السمو الإنساني؟ وأي سمو أسمى وأجل وأعظم من هذا الذي تسمعه جويرية بنت الحارث المصطلقية من سيد الخلق محمد ﷺ، وقد جاءت إليه تسأله أن يعينها على أداء كتابتها التي لا طاقة لها على أدائها، ولا قدرة لها عليها، وقد رجته لها، وهو الذي يُرجى للعظائم «**أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك**».

وكانت جويرية حين تكلم رسول الله ﷺ، وتسمع كلامه مليئة الفؤاد بالأمل المرجى، تتكلم وتسمع وهي ثابتة الجأش، رابضة القلب، ساكنة الفؤاد، مضيئة الروح، كأنما تقرأ آيات مستقبلها في صحف الغيب بعيني بصيرتها، فأجابت رسول الله ﷺ، فلم تتلعثم، ولم تتردد، ولم تتأن، ولم تتريث، ولكنها أسرعت بروحها وقلبها وعقلها ووجدانها ومشاعرها وهي تملي على لسانها: **نعم، يا رسول الله، قد فعلت**». [**محمد رسول الله ﷺ لعرجون** ٤/ ٢٤٢-٢٤٥].

٤ ـ بركة جويرية رضي الله عنها على قومها بصهرهم لسيد البشر ﷺ:

يقول الشيخ عرجون: «أجل، أبرم في الأرض ما كان مبرمًا في السماء، وجفت الصحف ورفعت الأقلام، ودخلت السيدة جويرية إلى خدرها أُمًّا للمؤمنين، وزوجًا لمحمد ﷺ، وخرج النبأ العظيم همسًا إلى الناس، فتسامعوه بينهم، وتعالموه في محافلهم، وأضاء حديثه الآفاق، كما يضيء لمع البرق في السماء، وقال المسلمون: إن رسول الله ﷺ قد تزوج السيدة جويرية بنت الحارث المصطلقية رضي الله عنها، فأرسلوا كلهم ما في أيديهم من السبي وقالوا متعاظمين: **هم أصهار رسول الله ﷺ**.

قالت عائشة رضي الله عنها تصور هذا الموقف النبيل في جميع جوانبه بأوجز وأبرع أسلوب: **فما رأينا امرأة أعظم بركة على قومها منها، فلقد اعتق الله تعالى بها مائة أهل بيت من بني المصطلق**.

هذه هي أشهر الروايات في قصة جويرية وزواج رسول الله ﷺ بها، وما كان في هذا الزواج من خير وفضل على قومها في عتقهم من رق العبودية بسببه، وانطلاقهم أحرارًا في حياتهم؛ لأنهم صاروا أصهار رسول الله ﷺ.

روايات أخرى في قصة زواج رسول الله ﷺ جويرية رضي الله عنها: وفي رواية عند الواقدي أن رسول الله ﷺ أرسل إلى ثابت بن قيس عندما أخبرته خبر كتابتها، فقال ثابت يجيب رسول الله ﷺ: **هي لك يا رسول الله بأبي وأمي**، فأدى ﷺ ما كان من كتابتها، وأعتقها وتزوجها.

وروى البيهقي عن جويرية، قالت: رأيت قبل قدوم النبي ﷺ بثلاث ليال كأن القمر يسير من يثرب حتى وقع في حجري، فكرهت أن أُخبر أحدًا، فلما سبينا رجوت الرؤيا، فاعتقني وتزوجني.

وذكر ابن هشام أن النبي ﷺ اشتراها من ثابت بن قيس، واعتقها وتزوجها، وأصدقها أربعمائة درهم.

وفي روايةٍ ذكرها شارح المواهب أن أباها جاء بفدائها، وكان الفداءُ قطيعًا من الإبل، ولكنه لما دنا من المدينة غيَّب عنها بعيرين في شعاب العقيق، كانا قد أعجباه، ثم أتى رسول الله ﷺ، فقال له: **يا محمد، هذا فداء ابنتي**، فقال له رسول الله ﷺ: «**فأين البعيران اللذان غيبتهما في العقيق في شِعب كذا، وكذا**»، فقال الحارث: **أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فو الله ما اطلع على ذلك إلا الله**، فأسلم الحارث، وأسلم معه ابنان له، وناس من قومه، وأرسل إلى البعيرين فجاء بهما، ودفع الإبل إلى رسول الله ﷺ، ودفع رسول الله ﷺ إليه ابنته جويرية فأسلمت معهم وحسن إسلامهم، فخطبها رسول الله ﷺ إلى أبيها فزوجه إياها، وأصدقها أربعمائة درهم.

وعند ابن سعد من مرسل أبي قلابة: سبى رسول الله ﷺ جويرية وتزوجها، فجاء أبوها فقال لرسول الله ﷺ: إن ابنتي لا يُسبى مثلها فخلِّ سبيلها، فقال له رسول الله ﷺ: «**أرأيت إن خيرتها أليس قد أحسنت؟**»، قال أبوها: بلى، فأتاها أبوها فقال: **إن هذا الرجل قد خيرك فلا تفضحينا**، فقالت: **فإني أختار الله ورسوله**.

نفحات السماء كانت هي المختارة للسيدة جويرية طريقها إلى أعز وأشرف حياة:

وهذه نفحة من نفحات الإنعام الإلهي الذي جرت به أقلام المقادير على صحف الغيب، أملى آياتها العقل الحصيف، والرأي الموفق الرصين وخط حروفها الإيمان الراسخ الرزين، وأوحى بها الفكر المتسامي عن رغائب الأرض في ترف البيت المتسيدة فيه بمواريث الجاهلية التي لا تعرف إلا فرشًا وثيرًا، وطعامًا شهيًا، وشرابًا هنيًا، وذواقًا مريًا بين أتراب ضواحك، يُنعَّمن لكل رغيبة لسيدة النديِّ، والحياة المعطلة بالترف عن الحركة النفسية أو الفكرية، أو البدنية تتصنع بالفراغ الملول لتملأ به جو الندى سمومًا قواتل، تستحليها الضواحك لتقتل بها شبح الفراغ استحلاء النسيم في وجه الصباح النديِّ بِطَلِّ الربيع.

وإلا فما الذي يحمل امرأة مثل جويرية بنت سيد قومها بني المصطلق على سرعة رضاها وهي في عمر الزهرة التي تطل من برعمها متنفسة أنفاس الحياة مع ندى الصباح في الربيع.

أجل، لقد وضعتها مقادير الغيب وضعًا ضاقت به نفسها فلم تحتمل إحكام حلقاتها حول عنق حريتها إذ أُخذت سَبِيَّة بين سبايا قومها، وهي بنت سيدهم، فكوتبت لتفتدي حريتها كتابة تعجز عن أدائها، ولم يحملها على قبول ما لا طاقة لها به إلا أنها ألقت بآمالها ورجاواتها بين يدي أكمل البشر وأكرم الخلق محمد ﷺ، وجاءته تسأله في كتابتها، وهو ﷺ في بيت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٤٥-٢٤٧].

٥ ـ غيرة النساء أمر طبيعي في حدود الاعتدال:

يقول الشيخ عرجون: «قالت عائشة رضي الله عنها تصف جويرية فأنصفتها: **(وكانت امرأة حلوة ملاحة، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه)**، والمُلاحة وصف مبالغة في الملاحة، وهي استواء مواطن الحسن والحلاوة، وهي من قولهم طعام مليح إذا كان فيه من الملح بقدر ما يصلحه، فيطيب طعمه، قال السهيلي في الروض: ولذلك إذا بالغوا في المدح قالوا: مليح قزيح، فمليح من ملحت القدر، وقزيح من قزحتها أي طيبت نكهتها بالأفاوية، وهي الأقزاح.

ثم قالت عائشة رضي الله عنها: فو الله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها وعرفت أنه سيرى منها ﷺ ما رأيت، وهذا القول من السيدة عائشة رضي الله عنها إنما هو نفثة من نفثات الغَيْرة على رسول الله ﷺ لشدة حبها له ﷺ وغيرتها عليه، وكان لهذه الغيرة عند عائشة رضي الله عنها في حياتها معه ﷺ مظاهر أكثر مما كان عند غيرها من الزوجات الطاهرات، وفي حياتهن معه ﷺ أكثر من دليل على أن عائشة رضي الله عنها كانت تعيش معه ﷺ ذروة هذه الغيرة التي استحوذت على مشاعرها». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٤٧].

٦ ـ رسول الله ﷺ أكمل البشر حسًّا إنسانيًّا وأصفاهم طبيعة وأذوقهم لحلاوة الكمال الإنساني حسًّا ومعنى:

يقول الشيخ عرجون: «ورسول الله ﷺ قد أوتي من صفاء الطبيعة البشرية ما لم يؤته أحد من الخلق، فكان ﷺ سوي المزاج، عليمًا بمواقع الذوق الكمالي في خصائص الإنسان.

وقد أضفى الله تعالى على رسوله ﷺ من الكمال الإنساني في جميع مواقعه من الطبيعة البشرية، ومنحه من الاعتدال الحسي والمعنوي ما ميزه به وفضله على سائر أفراد البشر، وجمع له به مظاهر الاستواء في تذوق كل كمال أوتيه الإنسان في تقويمه الحسي، ومداخل نفسه، فلا تتفاوت جوانب طبيعته ﷺ في تذوق طعم هذا الكمال.

ومن ثم كان تذوقه للكمال الإنساني، وإحساسه به مستوى جوانب الإدراك لمواقع الاسترواح الجمالي في كل ما تستحليه النفوس الكريمة حسًّا ومعنى، وفي كل ما تستطيبه الأمزجة المتوازية في عناصرها وميولها.

وفي هذا الإطار من الطبيعية الكمالية التي جُبل عليها رسول الله ﷺ ينبغي أن توضع الخطوط الراسمة لتذوقه ﷺ طعم الكمال في مستويات البشرية، وفي مستويات الجمال الكوني الممثلة في عناصر الكون الطبيعية التي هي منابع الجمال فيه؛ لأنه ﷺ أوتي من صفاء الطبيعة البشرية ما لم يؤته أحد من العالمين، وهذا الكمال المتوازن في صفاء الطبيعة البشرية هو المقصود بكمال الرجولية المطلق في كملة البشر، فلا حرج قط في أن يوصف محمد ﷺ بكل ما يندرج تحت هذا الكمال الرجولي؛ لأن هذا الكمال الرجولي هو جماع صفات الكمال البشري في الرجل.

ومحمد رسول الله ﷺ أكمل البشر في إنسانيته، واعرفهم بمواقع الكمال الحسي والمعنوي من أوصاف الرجولية». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٤٧-٢٤٨].

٧ ـ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ إشارة إلى ما جبل عليه ﷺ من تذوق حلاوة الكمال الإنساني حسًّا ومعنى:

يقول الشيخ عرجون: «ولأمرٍ (ما) قال الله تعالى لرسوله محمدًا ﷺ بعد تخيير أمهات المؤمنين اللائي كن في عصمته ﷺ ومات عنهن: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٢] إعزازًا لأمهات المؤمنين اللائي اخترن الله ورسوله على (من) و(ما) سواهما، فقصره ﷺ عليهن إكرامًا لهن، جزاء اختيارهن، ورضائهن كلهن.

ولعله للإشارة إلى ما قلناه من أنه ﷺ أرق الناس حسًّا، وأرهفهم ذوقًا، وأعرفهم بمواقع الكمال الحسي والمعنوي، ولكن الله تعالى مع الإشادة بصفاء طبيعة رسول الله ﷺ نوه بهذا الموقف النبيل، موقف أمهات المؤمنين، هذا الموقف الإيماني البالغ ذروة الإخلاص عندهن ليرشد عباده أن هذا الموقف أجل عند الله وأعظم من تحقيق رغبة كمالٍ حسِّيٍّ عند رسوله ﷺ، والله وحده هو المحيط بأسرار كلامه العزيز، وأسرار مداخل نفوس خواصه من البشر». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٤٨-٢٤٩].

٨ ـ بدأت غزوة المصطلق بأعتى نوازل البلاء والمحن ثم ختمت بأسعد ما يسعد كرائم النفوس:

يقول الشيخ عرجون: «وبعد: فهكذا بدأت غزوة بني المصطلق بما بدأت به من أحداث الفتن الجسام التي دبرها النفاق تحت أستار الظلام، وكوارث النوازل العظام، التي أذاقت المسلمين جرعًا من مرارة أحداث (أُحُد) ولكن الله تعالى بمنه وفضله أخرج منها نبيه محمدًا ﷺ ومجتمعه المسلم، وأهل بيته الأكرمين، وصاحبه وصديقه الأمين كما يخرج الذهب المصفى، والجوهر المخلَّص من مخلطات المعادن، وألويةُ النصر تخفق فوق رؤوسهم، وحفاوة الله تعالى تكنفهم من جميع جوانبهم ونعمه السوابغ تحيط بهم من أقطارهم.

وهكذا ختمت بإعراس النبي ﷺ بالسيدة الجليلة جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق التي خلع الله عليها جلابيب السيادة الحقيقية بإعراس النبي ﷺ بها، فكانت أُمًّا للمؤمنين تعظيمًا وتوقيرًا، وإسعادًا لها بكنف رسول الله ﷺ، وإدخالًا للبهجة على رسول الله ﷺ بما وهبها الله من كمال إنساني كانت به من صفوة نساء العالمين». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٤٩].

٩ ـ الباعث على الغزوة والزواج بجويرية رضي الله عنها:

يقول أ/ الشامي: «إن الباعث على هذه الغزوة، هو رد الاعتداء الذي بات وشيكًا على المدينة، ولم يقم بها رسول الله ﷺ إلا بعد التأكد من الأمر بإرسال مبعوثه إلى الحارث، فلم تكن غايته ﷺ من الغزو هي الغزو أو الحصول على الغنائم؛ ولذا نلاحظ في سلوكه أنه حينما يحصل له ما قصد، يتجاوز عن المكاسب بأسلوب أو بآخر، وما زواجه ﷺ من جويرية بنت الحارث إلا الدليل الواضح على ذلك.

إن الذي قسم الغنائم هو رسول الله ﷺ ولو كان يريد الزواج لكان في سهمه من يريد، ولكن لم يكن ذلك هدفًا، فلما جاءت جويرية رضي الله عنها وهي بنت سيد القوم كان زواجها إطلاقًا لقومها، وهذا ما قالته عائشة رضي الله عنها.

وقد يتساءل سائل لِمَ لم يطلق سراحهم قبل التقسيم ..

فالجواب: إن هذا حق للمجاهدين، وإرغامهم على ذلك غمط لحقهم، فكان الزواج الوسيلة التي حققت الهدف». [من معين السيرة للشامي ٣٤٦-٣٤٧].

١٠ ـ السيدة أم المؤمنين جويرية رضي الله عنها كانت من الله بمنزلة في علمها وعملها وورعها وإشراق روحها:

يقول الشيخ عرجون: «وقد زاد الله عز شأنه أم المؤمنين السيدة جويرية رضي الله عنها زوج النبي ﷺ رضي الله عنها كمالًا فوق كمالها، فجعلت حصافة عقلها، وزكانة تفكيرها، وصفاء قلبها وإشراق روحها بين يدي رسول الله ﷺ، وهي تلحظه في عبادته الخاصة إذا كان عندها، وتشهده في تقديسه وتسبيحه لخالقه، وتصغي إليه وهي تسمع أحاديثه في أدب الإسلام الاجتماعي، وأحكامه العبادية، وشرائعه النظامية، وتلطفه في عشرته الزوجية، وحكمته في معاملته الداخلية والخارجية، فتعي ذلك كله وعيًا ضابطًا يرويه عنها من أصحابه الذين أخلصوا حياتهم للعلم، يأخذونه عن رسول الله ﷺ مشافهة أو رواية أقرب ما تكون للمشافهة؛ لأنه إما سماع عن أقرانهم أو شهود لمجالس سماعه، أو تلقيًا لأسراره من أمهات المؤمنين زوجاته، وأخذًا لحقائقه العملية ممن كان أهلًا لحمل هذه الحقائق والأسرار التشريعية والآداب السلوكية في تربية البيت ومن يضمه بين جنباته.

وهؤلاء يلقونه إلى من يرويه عنهم صادقًا أفضل ما يكون الصدق مطلوبًا، وضابطًا أصدق ما يكون الضبط منشودًا، ومن ثم كانت السيدة جويرية أم المؤمنين وزوج سيد العالمين ﵂ عالمة بما تسمع، عاملة بما تعلم، فقيهة عابدة، تقية ورعة، نقية الفؤاد مضيئة العقل، مشرقة الروح، تحب الله ورسوله ﷺ، وتحب الخير للناس أجمعين.

وكانت ﵂ تروي من حديث رسول الله ﷺ، ناقلة لحقائق الدين من خزائنها عند من تنزلت عليه ﷺ، يرويه عنها سدنة العلم من علماء الصحابة ﵃ لينشروه في المجتمع المسلم علمًا وعملًا، وفي عامة المجتمع الإنساني دعوة وهداية.

روى عنها حبر الأمة عبد الله بن عباس ﵄، وجابر بن عبد الله ﵄، وعبد الله بن عمر ﵄، وعبد الله بن السباق ﵁، والطفيل ابن أخيها ﵁، وغيرهم من الأجلاء.

وكانت أم المؤمنين جويرية ﵂ من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات القانتات، الصابرات في مجال مناجاة الله تعالى وتحميده وتقديسه وتسبيحه، أخرج الترمذي والنسائي بسند صحيح عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ جُوَيْرِيَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ عَلَيْهَا وَهِيَ فِي مَسْجِدِهِ، ثُمَّ مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِهَا قَرِيبًا مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ فَقَالَ لَهَا: «**مَا زِلْتِ عَلَى حَالِكِ**»، فَقَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: «**أَلاَ أُعَلِّمُكِ كَلِمَاتٍ تَقُولِينَهَا: سُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، سُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، سُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، سُبْحَانَ اللهِ رِضَا نَفْسِهِ، سُبْحَانَ اللهِ رِضَا نَفْسِهِ، سُبْحَانَ اللهِ رِضَا نَفْسِهِ، سُبْحَانَ اللهِ زِنَةَ عَرْشِهِ، سُبْحَانَ اللهِ زِنَةَ عَرْشِهِ، سُبْحَانَ اللهِ زِنَةَ عَرْشِهِ، سُبْحَانَ اللهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ، سُبْحَانَ اللهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ، سُبْحَانَ اللهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ**».

[الترمذي في الدعوات (٣٥٥٥)، والنسائي في صفة الصلاة (١٣٥٢)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وعَنْ جُوَيْرِيَةَ ﵂ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ، فَقَالَ: «**مَا زِلْتِ عَلَى الحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا**»، قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ**».

[مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٢٦)، وأبو داود في الصلاة (١٥٠٣)].

أيُّ فضل أفضل وأرفع، وأي شرف أشرف وأعلى من فضل وشرف جمعا بين فضائل الدنيا وشرف الآخرة ختمت به غزوة من غزوات رسول الله ﷺ ـ أو واقعة من وقائع تاريخ السيرة النبوية الشريفة في أحداثها ومسيرتها وهي تحمل لواء الدعوة إلى الله ناشرة رسالة الحق والهدى والنور ـ مما ختمت به هذه الغزوة المفعمة بكبريات الأحداث غزوة (بني المصطلق ـ المريسيع) وهي التي بدأت نارًا تلظى وفتنًا

مدمرات تتسعر وكوارث قواصم تتوالى على المجتمع المسلم، وفيه رسول الله ﷺ يدعوهم إلى الله، ويعلمهم دين الله وشرائعه، ويقودهم في جهادهم، ويملي عليهم دروس التربية السلوكية القائمة على دعائم مكارم الأخلاق، والفضائل الإنسانية، وانتهت بها انتهت به من النور والهدى والرحمة والسعادة التي أقر الله بها عين رسوله في إعراسه بسيدة بني المصطلق السيدة جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق، الذين أسلموا جميعًا بعد أن علموا أن النبي ﷺ شرَّفهم بمصاهرته، واتخذ من سيدة بيوتهم زوجًا وأُمًّا للمؤمنين، فكانت أبرك امرأة على قومها إذ أعتقهم الله تعالى بها من رق العبودية، وأقبل بهم يقدمهم سيدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية على الإسلام، فأسلموا وحسن إسلامهم، وكانوا من كتائب المجاهدين لنصرة دين الله ونشر رسالته». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٤٩-٢٥١].

١١ ـ شبهات حول زواج النبي ﷺ:

يقول الشيخ أبو خوات: «كانت بزواجها أكثر الناس بركة على قومها، وبسبب هذا الزواج هدى الله قومها للإسلام حتى أبوها الحارث أعلن إسلامه.

ومن هنا نأخذ كلَّ ما يُقال في كتب أعداء الإسلام وعلى ألسنتهم في شأن زواج النبي ﷺ بالبحث والمراجعة ورد كل زواج إلى أسبابه ودواعيه، قبل أن نأخذ عباراتهم عن الشهوة والرغبة في أنوثة النساء إلى واد من الفتنة سحيق.

ولنضع أمام القارئ في هذا المجال الحقائق الآتية:

(١) أن النبي ﷺ عاش شبابه كله وجزءًا من شيخوخته مع زوجة واحدة تكبره بخمس عشرة سنة كانت متزوجة قبله رجلين ولها من كل منهما أولاد، ولم تكن على قدر كبير من الجمال.

(٢) أنها حين ماتت وكانت سنه ﷺ خمسين سنة لم يُقبل على الزواج حتى عرض عليه العارضون امرأة دميمة كبيرة تخدمه وترضى منه بشرف الزوجية دون نظر إلى شيء آخر، فقبل وتزوج «سودة بنت زمعة رضي الله عنها» التي كانت زوجًا لأحد مهاجري الحبشة، ثم مات عنها وليس لها منه أولاد.

(٣) أن كل زواج تم بعد ذلك كان لأسباب إنسانية تقتضيها الظروف التي كان يعيش فيها المسلمون في المدينة بعد الهجرة، فكانت أول زوجة بعد سودة هي عائشة الفتاة الصغيرة وكان زواجها بالمدينة، والمعلوم أن الهجرة تمت وسن النبي ﷺ ثلاث وخمسون سنة، وكان سببه إحكام الترابط بين النبي ﷺ والصديق رضي الله عنه، وهكذا قصة زواج حفصة بنت عمر، وأم سلمة، وزينب، وقد علمنا قصة زواج جويرية.

فقد كان زواجه ﷺ إما وفاء لصاحب، أو إنقاذ لسمعة أسرة، أو تشريع لحكم من أحكام الله في الدين، إلى غير ذلك مما لا يخلو من حكمة جليلة، ولكن أعداء الإسلام يلبسون كل شيء بغير لباسه؛

ليلبسوا على الناس أمور دينهم، وليضعوا ما يثير العاطفة دائمًا أمام ما ينير العقل ويهدي إلى الحق المستقيم». [دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ٨٣-٨٤].

١٢ ـ إسلام الحارث بن أبي ضرار ﷺ:

يقول د/ قريبي: «بعد أن ساق ابن هشام حديث ابن إسحاق من طريق عائشة ﷺ المصرِّح بأن رسول الله ﷺ أدى عن جويرية ﷺ كتابتها وتزوجها.

عقب قوله: قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُقَالُ: لَـمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ بَنِي المُصْطَلِقِ وَمَعَهُ جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ ﷺ، وَكَانَ بِذَاتِ الْجَيْشِ (من المدينة على بريد من جهة مكة، وبينها وبين العقيق سبعة أميال، معجم ما استعجم للبكري ٢/ ٤٠٩-٤١٠. وعلى هذا تكون المسافة بين ذات الجيش والمدينة ٢٠ كيلو مترًا؛ لأن البريد أربع فراسخ، والفرسخ يساوي خمس كيلومترات) دَفَعَ جُوَيْرِيَةَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ الْأَنْصَارِ وَدِيعَةً وَأَمَرَهُ بِالِاحْتِفَاظِ بِهَا، وَقَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المدِينَةَ، فَأَقْبَلَ أَبُوهَا الْحَارِثُ بْنُ أَبِي ضِرَارٍ بِفِدَاءِ ابْنَتِهِ، فَلَـمَّا كَانَ بِالْعَقِيقِ نَظَرَ إِلَى الْإِبِلِ الَّتِي جَاءَ بِهَا لِلْفِدَاءِ فَرَغِبَ فِي بَعِيرَيْنِ مِنْهَا، فَغَيَّبَهُمَا فِي شِعْبٍ مِنْ شِعَابِ الْعَقِيقِ، ثُمَّ أَتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَصَبْتُمْ ابْنَتِي، وَهَذَا فِدَاؤُهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَأَيْنَ الْبَعِيرَانِ اللَّذَانِ غَيَّبْتَهمَا بِالْعَقِيقِ، فِي شِعْبِ كَذَا وَكَذَا؟**»، فَقَالَ الْحَارِثُ: **أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّكَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، فَوَاللهِ مَا اطَّلَعَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اللهُ**، فَأَسْلَمَ الْحَارِثُ، وَأَسْلَمَ مَعَهُ ابْنَانِ لَهُ وَنَاسٌ مِنْ قَوْمِهِ، وَأَرْسَلَ إِلَى الْبَعِيرَيْنِ فَجَاءَ بِهِمَا، فَدَفَعَ الْإِبِلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَدُفِعَتْ إِلَيْهِ ابْنَتُهُ جُوَيْرِيَةُ فَأَسْلَمَتْ وَحَسُنَ إِسْلَامُهَا، فَخَطَبَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى أَبِيهَا، فَزَوَّجَهُ إِيَّاهَا، وَأَصْدَقَهَا أَرْبَعَ مِئَةِ دِرْهَمٍ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩٥-٢٩٦، ٦٤٥-٦٤٦].

وأكد السهيلي نسبة هذا القول إلى ابن هشام. [الروض الأنف ٦/ ٧٠٦-٧/ ٥٣٧].

قلت: هذا لا يقاوم حديث عائشة؛ لأنه لا إسناد له، وقد صُدِّر بـ (يقال) الدالة على الضعف.

وممن وقع في هذا الخطأ الشيخ محمد الغزالي. [فقه السيرة للغزالي ٣٠٨].

فرد عليه الشيخ الألباني بقوله: «هذا غير صحيح، وقد أشار لذلك ابن هشام في سيرته، فإنه ذكر هذه الرواية بدون إسناد، وصدرها بقوله: (ويقال)»، ثم قال الألباني أيضًا: «والصحيح أنه ﷺ قضى عنها كتابتها وتزوجها دون أن يخطبها من أبيها، فإنها كانت أسيرة، كما رواه ابن إسحاق بسند صحيح عن عائشة ﷺ، ومن طريقه أخرجه أحمد وابن هشام، وفي حديثهما (إطلاق الأسرى)». انتهى.

قلت: وأخرجه من هذه الطريقة أبو داود أيضًا كما تقدم.

وقال عقبة: «وهذا حجة في أن الولي هو يزوج نفسه».

وهذا يرد ما ذكره ابن هشام من أن رسول الله ﷺ خطبها من أبيها وتزوجها وأصدقها أربع مئة درهم، على أنه قد نسب ابن عبد البر وابن الأثير وابن حجر لابن إسحاق نحو ما ذكر ابن هشام، وليس فيه ذكر الزواج بعد قدوم الحارث إلى المدينة.

وهذا نصه: قال ابن إسحاق: «تَزَوَّجَ النَّبِيُّ ﷺ جُوَيْرِيَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ بْنُ أَبِي ضِرَارٍ رضي الله عنها، وَكَانَتْ فِي سبايا بَنِي المصْطَلِقِ مِنْ خُزَاعَةَ، فَوَقَعَتْ في السَّهْمِ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ الشَّمَّاسِ، وَذَكَرَ الْخَبَرَ، وَفِيهِ: «فَأَقْبَلَ أَبُوهَا الْحَارِثُ بْنُ أَبِي ضِرَارٍ لِفِدَاءِ ابْنَتِهِ، فَلَمَّا كَانَ بِالْعَقِيقِ نَظَرَ إِلَى الْإِبِلِ الَّتِي جَاءَ بِهَا لِلْفِدَاءِ فَرَغِبَ فِي بَعِيرَيْنِ مِنْهَا، فَغَيَّبَهُمَا فِي شِعْبٍ مِنْ شِعَابِ الْعَقِيقِ، ثُمَّ أَتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَصَبْتُمْ ابْنَتِي، وَهَذَا فِدَاؤُهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **فَأَيْنَ الْبَعِيرَانِ اللَّذَانِ غَيَّبْتَهمَا بِالْعَقِيقِ، فِي شِعْبِ كَذَا وَكَذَا؟** فَقَالَ الْحَارِثُ: **أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّكَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، فَوَاللهِ مَا اطَّلَعَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اللهُ**، فَأَسْلَمَ الْحَارِثُ، وَأَسْلَمَ مَعَهُ ابْنَانِ لَهُ وَنَاسٌ مِنْ قَوْمِهِ. **[الاستيعاب ١/ ٢٩٩، مع الإصابة وأسد الغابة ١/ ٤٠٠، والإصابة ١/ ٢٨١، وهذه الرواية لم أجدها في سيرة ابن هشام].**

ولفظ ابن حجر: «ذكر ابن إسحاق في المغازي أن الحارث بن أبي ضرار، والد جويرية، جاء إلى المدينة ومعه فداء ابنته بعد أن أسرت وتزوجها رسول الله ﷺ»، ثم ساق القصة. **[الإصابة ١/ ٢٨١].**

فهذا يدل دلالة واضحة أن الحارث لم يكن موجودًا وقت العقد، وأن قدومه إلى المدينة كان بعد زواج جويرية، وهذا هو ما دل عليه حديث عائشة رضي الله عنها.

وقد تقدم قول أبي داود عقب حديث عائشة: «وهذا حجة في أن الولي هو يزوج نفسه».

فهذا مما يؤكد لنا سقوط هذه القصة التي ذكرها ابن هشام بصيغة التمريض محذوفة السند.

والصحيح في هذا أن مجيء الحارث كان سببًا في إسلامه، ولا يبعد أنه طلب ابنته كما دل عليه حديث ابن إسحاق، ولكنه لم يُمَكَّن من ذلك.

[هذا الحديث نسبه إلى ابن إسحاق كل من عبد البر وابن الأثير وابن حجر، وينظر المراجع السابقة].

وقد ورد ما يدل على أن رسول الله ﷺ قال لأبيها: اذهب إليها فخيرها، فإن أرادت أن تذهب معك فخذها، فهذا لا يستبعد لعلم الرسول ﷺ أنها لا تختار عليه أحدًا، وأن ذلك يكون أدعى لتمكن الحارث من الإسلام، لما فيه من حسن المعاملة، ومما دل على هذا ما رواه ابن سعد وغيره من مرسل أبي قلابة، أخبرنا عبد الله بن جعفر الرقي قال: حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن أيوب، عن أبي قلابة: «أن النبي ﷺ سبى جويرية بنت الحارث، فجاء أبوها إلى النبي ﷺ فقال: إن ابنتي لا يُسبى مثلها، فأنا أكرم من ذلك فخل سبيلها، قال: «**أرأيت إن خيَّرناها أليس قد أحسنا؟**»، قال: بلى، وأدَّيْتَ ما عليك، قال: فأتاها أبوها، فقال: إن هذا الرجل قد خيَّرك فلا تفضحينا، فقالت: فإني قد اخترت رسول الله ﷺ، قال: قد والله فضحتنا. **[طبقات ابن سعد الكبرى ٨/ ١١٨].**

وأخرجه خليفة: قال أخبرنا عبد الوهاب بن عبد المجيد، قال: حدثنا أيوب عن أبي قلابة أن رسول

الله ﷺ سبى جويرية بنت الحارث فجاء أبوها فقال: «إن ابنتي لا تُسبى» الحديث.

[تاريخ خليفة بن خياط ص ٨٠].

وأورده ابن حجر في التهذيب من طريق ابن سعد في ترجمة جويرية، وقال: هذا مرسل صحيح الإسناد. [تهذيب التهذيب ١٢/ ٤٠٧].

وأورده في الإصابة دون أن ينسبه إلى ابن سعد وصحح إسناده أيضًا، ونصه: عن أبي قلابة قال: سبى النبي ﷺ جويرية ـ يعني وتزوجها ـ فجاء أبوها فقال: إن ابنتي لا يُسبى مثلها فخل سبيلها، فقال: «**أرأيت إن خيرتها أليس قد أحسنت؟** «قال: بلى، فأتاها أبوها فذكر لها ذلك، فقالت: اخترت الله ورسوله. ثم قال: وسنده صحيح. [الإصابة ٤/ ٢٦٥].

قلت: الظاهر في هذا الباب هو ما أفاده حديث عائشة من أن رسول الله ﷺ أدى عن جويرية كتابتها وتزوجها وهو صريح في ذلك، مع أن ما نُسب لابن إسحاق، وكذا مرسل أبي قلابة، ليسا نصًّا في أن رسول الله ﷺ دفع إلى الحارث ابنته ثم تزوجها منه بعد ذلك، وإنما فيه مجرد مجيء الحارث يطلب فداء ابنته، وأمر الرسول الله ﷺ بتخييرها.

ولسنا بحاجة إلى تلمس التوفيق بين حديث ساقط لا إسناد له وحديث عائشة الصحيح، ومن هنا يتحتم القول بها في حديث عائشة لثبوته ولا ينظر إلى ما عداه من الروايات الضعيفة.

وخلاصة القول أن هذه الآثار تدل بمجموعها على قدوم الحارث بعد الوقعة، وكان ذلك سببًا في إسلامه، وهو ما دل عليه الحديث الآتي عند أحمد والبيهقي. (سيأتي نصه كاملًا في درس: «موقف بني المصطلق بعد الغزوة»، من الدروس الدعوية). [**مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ١٥٨-١٦٤**].

المطلب الخامس

الدروس السياسية

١ ـ دعوة إلى العصبية ومواجهة حكيمة:

يقول د/ الحميدي:

«**أولًا**: مثل من عداوة المنافقين المتأصلة في نفوسهم للمؤمنين، حيث انتهز عبد الله بن أُبي بن سلول فرصة الخلاف الذي نشأ بين رجلين من المسلمين ليثير الدعوة إلى العصبية القبلية، فنطق بكلمات خبيثة في سب المهاجرين من قريش والتنقيص منهم، مع أن ذلك الرجل المهاجر الذي اختصم مع حليف

الأنصار ليس من قريش وإنما هو من غفار، ولكن زعيم المنافقين صب جام غضبه على المهاجرين من قريش؛ لأنهم عصبة النبي ﷺ الأولى وأصل الدعوة الإسلامية.

وهكذا يغلي الحقد في قلوب المنافقين، فتظهر نفثاته على فلتات ألسنتهم ظانين أن كلامهم سيُظهر مفعوله في التفريق بين المؤمنين.

ثانيًا: موقف إيمان وشجاعة لزيد بن أرقم ﷺ حيث مشى إلى رسول الله ﷺ وأخبره بذلك الكلام السيئ الذي سمعه من ابن أبي، مع أن زيدًا كان غلامًا، ومن كان في مثل هذه السن لا يُنتظر منه غالبًا الدخول مع الكبار في صراع، خاصة في مثل وضع ابن أُبي الذي ما زال له أنصار يقولون برأيه ويدافعون عنه.

ولقد شكره النبي ﷺ على هذا الموقف الشجاع وعلى مقدرته على استيعاب ما سمع، كما جاء في رواية الإمام البخاري: أن النبي ﷺ أرسل إليه بعد نزول سورة «المنافقون» فقرأها عليه، وقال: «**إن الله قد صدقك**».

ثالثًا: في المحاورة التي جرت بين رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب ﷺ مثل من غِيرة عمر ﷺ الإسلامية وحرصه على إخماد الشر وأهله، ولكنَّ رأي رسول الله ﷺ كان أعلى، وحكمته كانت أعظم، فقد رأى بما ألهمه الله ﷻ أن قتل عبد الله بن أبي وأمثاله يؤثر على سير الدعوة الإسلامية، فابن أُبي معدود عند العرب من أصحاب النبي ﷺ، فلو قتله لَنَفَرَ الناس وصدوا عن الدخول في الإسلام، حينما يتحدثون أن رسول الله ﷺ يقتل أصحابه.

وإن في هذا التصرف النبوي الحكيم توجيهًا لدعاة المسلمين وقادتهم إلى لزوم الاهتمام بقضايا الدعوة الإسلامية، وأن يكون من الأهداف العالية التي يجعلها المسلم نصب عينيه أن يحاول اجتذاب الناس إلى الإسلام، وأن يبتعد كل البعد عن الأمور التي تنفِّر الناس من الدخول في الإسلام أو الاستقامة عليه، ما لم يرتكب إثمًا.

ولقد تجلت حكمة النبي ﷺ في هذا الأمر حينما جاء عبد الله بن عبد الله بن أبي يعرض على رسول الله ﷺ استعداده للإقدام على قتل أبيه، ويبين أنه لو أقدم على قتله غيره فإنه لا يأمن من حدوث فتنة بسبب ذلك، بينما حصل المقصود من قوم ابن أبي وذلك حينما تولوا عتابه وتعنيفه وردعه عن التجاوزات التي يمارسها من غير أن يتعرض مجتمع المؤمنين لفتنة بسببه.

ولقد ذكَّر النبي ﷺ عمر بهذه النتائج الحميدة بقوله: «**كَيْفَ تَرَى يَا عُمَرُ! أَمَا وَاللهِ لَوْ قَتَلْتُهُ يَوْمَ قُلْتَ لِي اُقْتُلْهُ، لَأُرْعِدَتْ لَهُ آنُفٌ لَوْ أَمَرْتُهَا الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلَتْهُ**»، وأدرك عمر ﷺ هذه الحكمة العظيمة، فقال: **قَدْ وَاللهِ عَلِمْتُ لَأَمْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْظَمُ بَرَكَةً مِنْ أَمْرِي**.

ومن هذا نعلم أن تصرف النبي ﷺ الحكيم قد صدَّ فتنة كانت وشيكة الوقوع في المدينة لو أن الرسول ﷺ عامل زعيم المنافقين بما يستحق من عقوبة، إلى جانب محافظته على سمعة الدعوة الإسلامية خارج المدينة أن تُشَوَّه من قِبل أعداء الإسلام أو ممن يجهل واقع المسلمين.

رابعًا: في تصرف النبي ﷺ في مواجهة تلك الفتنة في حينها حكمة بالغة، فقد عالج الفتنة التي أثارها عبد الله بن أبي بأمر شغل به المسلمين عن الحديث عنها، وذلك حيث أمر المسلمين بالرحيل في وقت لم يكن يرتحل فيه، ثم واصل المسير يومه وليلته وصدر اليوم التالي، حتى إذا نزلوا وقد أعياهم السير والسهر وقعوا نيامًا، فلم يكن لديهم فراغ للحديث عن الموضوع، وهذا يعتبر درسًا نبويًّا عاليًا للقادة في كيفية القضاء على المشكلات التي تعرض لهم، والفتن التي يثيرها أعداء الإسلام في صفوف المسلمين، فالنفوس إن لم تُشْغل بما ينفعها شُغلت بما يضرها». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٨١-٨٣].

ويقول عميد/ فرج: «ولعل حديث ابن أُبي كشف أمر المنافقين، ولعل رسول الله ﷺ حين أذن له ولرجاله بالخروج كان يرجوا أن يدفع بهم إلى مجال المسؤولية وميدان العمل الإيجابي، لعل قلوبهم تصحو، ولعل أفهامهم تعقل، ولعل نفوسهم تهتدي، فيحسن إسلامهم وتسمو عقيدتهم ويرسخ إيمانهم؛ فيستفيد منهم الإسلام ويكونوا له رجاله وأبطاله، ولكن تبين أن النفاق متمكن منهم، وأنهم غير قادرين على التخلص منه واستبداله بإيمان أسمى وأرقى!». [العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٢٧٣].

٢ ـ محاربة العصبية الجاهلية بجميع أنواعها:

يقول د/ الزيد: «لما اختلف الأنصاري والمهاجري على الماء، وقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، وكاد القتال يقع قال الرسول ﷺ: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**».

أيضًا نقول: دعوا هذه الدعاوى والانتماءات والولاءات القبلية والحزبية، فلا يُقال: (يا لفلان)؛ لأنها من دعوى الجاهلية وقد جعل الله المؤمنين إخوة وحزبًا واحدًا، فإنما ينبغي أن تكون الدعوة (يا للمسلمين) فقط دون غيرها من سائر الانتماءات والولاءات.

[ينظر: الروض الأنف للسهيلي ٤/ ١٧، وسبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٥٠٤]. [فقه السيرة للزيد ٤٧٧].

ويقول د/ زيدان: «المراد بالعصبية الجاهلية اشتراك في معنى أو وصف معين يجعل المشتركين فيه يتعاونون ويتناصرون فيما بينهم بالحق وبالباطل، ويكون ولاؤهم فيها على أساس هذا المعنى أو الوصف المشترك.

والذي كان في الجاهلية من العصبية: العصبية القبلية.

ولكن العصبية الممقوته والتي نصفها بالجاهلية غير مقصورة على العصبية القبلية أي الاشتراك في النسب الواحد، نسب القبيلة التي ينتمون إليها.

واستدل على ما أقول بما وقع في غزوة بني المصطلق، وسبق وأن ذكرته عن جابر بن عبد الله فيما جرى بين الأنصاري والمهاجري.

ووجه الدلالة بهذا الخبر، أن النبي ﷺ أنكر هذه المناداة لما تشعره من معنى العصبية، مع أن المنادي استعمل اسمًا استعمله القرآن وهو (المهاجرين) و(الأنصار) فالمهاجري استنصر بالمهاجرين مع أنه هو الذي كسع، فكأنه بندائه هذا يريد عونهم؛ لاشتراكه وإياهم بمعنى واحد وهو (المهاجرة) وكذلك الأنصاري استنصر بالأنصار؛ لأنه منهم ويشترك وإياهم بوصف واحد ومعنى واحد وهو مدلول كلمة (الأنصار).

وكان حق الاثنين ـ إذا كان لابد من الاستنصار بالغير ـ أن يكون الاستنصار بالمسلمين جميعًا.

وعلى هذا فالمطلوب من الدعاة التأكيد علي نبذ العصبية بجميع أنواعها، سواء كانت عصبية تقوم على أساس الاشتراك بالقبيلة الواحدة، أو على أي أساس آخر، مشترك آخر، من بلد أو مذهب أو حرفة أو حزب، وأن يكون الولاء والتناصر على أساس الاشتراك بالأخوة الإسلامية التي أقامها وأثبتها واعتبرها الله تعالى بين المسلمين بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحُجُرات: ١٠].

ويقول رسول الله ﷺ: «**الـمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، وَلا يُسْلِمُهُ، وَلا يَخْذُلُهُ** ...».

[البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤٢)، وفي الإكراه (٦٩٥١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٤، ٢٥٨٠)].

وأن يكون التناصر فيما بينهم تناصرًا على الحق لا على الباطل، بمعنى أن ينصروا المحق وأن يكونوا معه لا مع المعتدي، مهما كانت صلاتهم بالمحق أو بالمبطل، بالمعتدي أو بالمعتدَى عليه، وأن يحققوا المعنى الصحيح الذي صرح به ﷺ بقوله: «**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِـمًا أَوْ مَظْلُومًا**»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِـمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: «**تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ**».

[البخاري في الإكراه (٦٩٥٢)، والترمذي في الفتن (٢٢٥٥)، وأحمد ١٩/ ١٤عن أنس بن مالك ﷺ (١١٩٤٩)، ٢٠/ ٣٦٣ رقم ١٣٠٧٩].

إن مهمة الدعاة في التخلص من العصبية، ودعوة المسلمين إلى نبذها كما أمر بذلك رسول الله ﷺ مهمة صعبة، ولكنها ليست مستحيلة، ولأهميتها البالغة يجب بذل كل جهد ممكن لقلعها من النفوس».

[المستفاد لزيدان ٢/ ٣٠١-٣٠٢].

٣ ـ القضاء على العصبية القبلية وتصعيد مفهومها:

يقول د/ الغضبان: «كلمة واحدة من فم النبي ﷺ أوقفت حربًا «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**»، ولا تزال الأمة اليوم تعج بهذه العصبيات القبلية والوطنية والقومية، وتفترق أحزابًا وطوائف وشيعًا ودولًا، وهي أعجز من أن تحل شيئًا من هذه العصبيات، بل تزداد اشتعالًا وحرقًا لكيان الأمة وتكوينها، بل ويصطلي الدعاة

بنارها مثل غيرهم، فيتوزعون منازع شتى، ويصيبهم ما يصيب مجتمعهم الجاهلي من نكسات وتمزق وخلافات، وهم الأمل المرجى بإحياء الأمة.

ويصعِّد النبي ﷺ مفهوم النصر، فنصر الظالم هو كفه عن ظلمه، فهو نصره على نفسه وعلى شيطانه وعلى عصبية، ونصر المظلوم عونه، ولو كان من غير قبيلته، ولو كان من غير عشيرته، فأخوة الإسلام هي الميزان التي يوزن بها الناس والأشخاص والقيم والأعراف، والعصبية عصبية، سيان كانت في الإسلام أو في الجاهلية، فهي في الجاهلية بين أوس وخزرج، أو بين قبيلة وأخرى، وهي في الإسلام بين المهاجرين وبين الأنصار، وكلا الكلمتين مستحدثتان في ظل النبوة، ومع ذلك فقد اعتبرها النبي ﷺ عصبية جاهلية، وقال عنها: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**».

وليست عصبية الانتماء للجماعات الإسلامية إلا صورة عفنة من هذه الصور».

[التربية القيادية للغضبان ٣/ ٤٦٨-٤٦٩].

٤ ـ تحريم دعوى الجاهلية:

قال الإمام السهيلي: «وَذَكَرَ أَنَّهُ نَادَى: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَنَادَى جَهْجَاهٌ الْغِفَارِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، وَلَمْ يَذْكُرْ مَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ سَمِعَهُمَا، وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ ﷺ حِينَ سَمِعَهُمَا مِنْهُمَا، قَالَ: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**»، يَعْنِي: إِنَّهَا كَلِمَةٌ خَبِيثَةٌ؛ لِأَنَّهَا مِنْ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَجَعَلَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ إِخْوَةً وَحِزْبًا وَاحِدًا، فَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الدَّعْوَةُ: يَا لَلْمُسْلِمِينَ، فَمَنْ دَعَا فِي الْإِسْلَامِ بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَيَتَوَجَّهُ لِلْفُقَهَاءِ فِيهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنْ يُجْلَدَ مَنْ اسْتَجَابَ لَهَا بِالسِّلَاحِ خَمْسِينَ سَوْطًا اقْتِدَاءً بِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ فِي جَلْدِهِ النَّابِغَةَ الْجَعْدِيَّ خَمْسِينَ سَوْطًا، حِينَ سَمِعَ: يَا لَعَامِرٍ، فَأَقْبَلَ يَشْتَدُّ بِعُصْبَةٍ لَهُ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ فِيهَا الْجَلْدَ دُونَ الْعَشْرَةِ لِنَهْيِهِ ﷺ أَنْ يُجْلَدَ أَحَدٌ فَوْقَ الْعَشْرَةِ إِلَّا فِي حَدٍّ.

وَالْقَوْلُ الثَّالِثُ: اجْتِهَادُ الْإِمَامِ فِي ذَلِكَ عَلَى حَسَبِ مَا يَرَاهُ مِنْ سَدِّ الذَّرِيعَةِ وَإِغْلَاقِ بَابِ الشَّرِّ، إِمَّا بِالْوَعِيدِ، وَإِمَّا بِالسَّجْنِ، وَإِمَّا بِالْجَلْدِ.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يُعَاقِبْ الرَّجُلَيْنِ حِينَ دَعَوْا بِهَا.

قُلْنَا: قَدْ قَالَ: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**»، فَقَدْ أَكَّدَ النَّهْيَ، فَمَنْ عَادَ إِلَيْهَا بَعْدَ هَذَا النَّهْيِ، وَبَعْدَ وَصْفِ النَّبِيِّ ﷺ لَهَا بِالْإِنْتَانِ وَجَبَ أَنْ يُؤَدَّبَ حَتَّى يَشُمَّ نَتْنَهَا، كَمَا فَعَلَ أَبُو مُوسَى ﷺ بِالْجَعْدِيِّ، فَلَا مَعْنَى لِنَتْنِهَا إِلَّا سُوءُ الْعَاقِبَةِ فِيهَا، وَالْعُقُوبَةُ عَلَيْهَا». [الروض الأنف للسهيلي ٦/ ٤٢٩].

٥ ـ الحفاظ على السمعة السياسية ووحدة الصف الداخلية:

وهذا الدرس يظهر في قوله ﷺ: «**فَكَيْفَ يَا عُمَرُ إِذَا تَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ!**».

يقول د/ الغضبان: «إنها المحافظة التامة على السمعة السياسية، والفرق كبير جدًّا بين أن يتحدث

الناس عن حب أصحاب محمدٍ محمدًا، ويؤكدون على ذلك بلسان قائدهم الأكبر أبي سفيان: **ما رأيت أحدًا يحب أحدًا كحبِّ أصحابِ محمدٍ محمدًا**، وبين أن يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه، ولا شك أن وراء ذلك محاولات ضخمة ستتم في محاولة الدخول إلى الصف الداخلي في المدينة من العدو، بينما هم يائسون الآن من قدرتهم على شيء أمام ذلك الحب وتلك التضحيات».

[التربية القيادية للغضبان ٣/ ٤٦٢-٤٦٣].

٦ ـ تغلب الرسول ﷺ على المشكلات التي صاحبت هذه الغزوة:

يقول د/ قريبي: «إن معالجة الرسول ﷺ لتلك السموم التي نفثها المنافقون في ساحة الجيش الإسلامي، ابتغاء تمزيق وحدته وتفريق كلمته، لتدل دلالة واضحة على أن الرسول ﷺ محاط بالعناية من الله ﷻ وعلى أنه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم].

لقد كان ما تفوه به ابن أُبي من الكلام البذيء مسوغًا كافيًا لقتله، وإراحة الناس من شره، ولكن الرسول ﷺ لبُعد نظره وتوفيق الله له، رأى أن المصلحة تقتضي التسامح والصفح عنه، فقابل تلك الأذية والقول اللاذع بصدر رحب وقلب واسع، فقد ضاقت نفس عمر بن الخطاب ﷺ ذرعًا بهذا المنافق، ووسعه حلم الرسول ﷺ وصفحه الجميل عمن أساء إليه، يوضح ذلك ما ورد من قوله ﷺ عندما قال له عمر بن الخطاب ﷺ: دَعْنِي يَا رَسُولَ الله أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**». [البخاري في تفسير القرآن (٤٩٠٧)].

ولكن أذن بالسير فسار بالناس في ساعة لم يعهد له أن يسير في مثلها، وأمر بالسير المتواصل حتى لا يتمكن المنافقون من التجمع والخوض في حديث ابن أُبي وترويجه بين الناس.

ولقد توقع الناس أن رسول الله ﷺ سيعاقب المنافقين على سوء صنيعهم وعلى الأقل بقتل رأس الفتنة ابن أبي ولكن لم يقع شيء من هذا كله، ولقد جاء ابنه عبد الله بن عبد الله ابن أُبي ﷺ فَقَالَ: **يَا رَسُولَ الله! إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّك تُرِيدُ قَتْلَ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ فِيمَا بَلَغَك عَنْهُ، فَإِنْ كُنْت لَا بُدَّ فَاعِلًا فَمُرْنِي بِهِ فَأَنَا أَحْمِلُ إلَيْك رَأْسَهُ، فَوَالله لَقَدْ عَلِمَتْ الْخَزْرَجُ مَا كَانَ لَهَا مِنْ رَجُلٍ أَبَرَّ بِوَالِدِهِ مِنِّي، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَأْمُرَ بِهِ غَيْرِي فَيَقْتُلَهُ، فَلَا تَدَعُنِي نَفْسِي أَنْظُرُ إلَى قَاتِلِ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ يَمْشِي فِي النَّاسِ فَأَقْتُلَهُ، فَأَقْتُلَ رَجُلًا مُؤْمِنًا بِكَافِرٍ، فَأَدْخُلَ النَّارَ**، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا**». [السيرة لابن هشام ٢/ ٢٩٢- ٢٩٣].

لقد كان من آثار هذه المعاملة الحسنة أن قوم عبد الله بن أُبي بن سلول هُم الذين أخذوا يعنفونه ويفضحون أمره ويأخذون على يديه، ولما بلغ رسول الله ﷺ هذا من فعلهم مع ابن أُبي أرسل إلى عمر بن الخطاب ﷺ فقال له: «**كَيْفَ تَرَى يَا عُمَرُ! أَمَا وَالله لَوْ قَتَلْته يَوْمَ قُلْتَ لِي اُقْتُلْهُ، لَأُرْعِدَتْ لَهُ آنُفٌ لَوْ أَمَرْتهَا**

الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلْتُهُ، قَالَ عُمَرُ ﷺ: قَدْ وَاللهِ عَلِمْتُ لَأَمْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْظَمُ بَرَكَةً مِنْ أَمْرِي».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩٣]. [مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٤٨٧-٤٨٨].

ويقول أ/ الشامي: «وكل مواقفه ﷺ وتصرفاته حكمة، ولكنا نقتصر في هذه الغزوة على ذكر موقفين:

ـ حينما بلغته كلمة ابن أبي، أذَّن بالمسير، وفي وقت ما كان يروح في مثله، ثم سار بالناس يومهم وليلتهم وصدرًا من نهارهم.. حتى أنهكهم التعب.. وما ذاك إلا ليشغل الناس عن حديث عبد الله؛ لأن هذا الحديث ربما أدى إلى توسع الخلاف بين المؤمنين والمنافقين في وقت لا يريد الرسول ﷺ أن يفتح فيه جبهة جديدة للعداوة.. يدل على ذلك حديثه مع عمر الآتي:

ـ اقترح عمر ﷺ قتل عبد الله بن أبي ـ كما رأينا ـ ومرت أحداث بعد ذلك ورسول الله ﷺ يسعه بحلمه حتى افتضح أمره افتضاحًا عظيمًا.. فجعل قومه بعد ذلك إذا أحدث الحدث يعاتبونه ويعنفونه، فقال ﷺ لعمر بن الخطاب ﷺ حين بلغه ذلك من شأنهم ـ: «**كَيْفَ تَرَى يَا عُمَرُ! أَمَا وَاللهِ لَوْ قَتَلْتَه يَوْمَ قُلْتَ لِي اُقْتُلْهُ، لَأُرْعِدَتْ لَهُ آنُفٌ لَوْ أَمَرْتهَا الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلَتْهُ**»، قَالَ عُمَرُ ﷺ: **قَدْ وَاللهِ عَلِمْتُ لَأَمْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْظَمُ بَرَكَةً مِنْ أَمْرِي**».

ومن تلك الآنف التي أشار إليها رسول الله ﷺ موقف سعد بن عبادة ﷺ الذي سيأتي ذكره يوم خطبة الرسول ﷺ بأمر الإفك.. حيث قال أسيد بن حضير كلمته، فقال له سعد: كذبت لعمر الله ما نضرب أعناقهم.. تقول السيدة عائشة ﷺ: «**وكان قبل ذلك يرى رجلًا صالحًا**»، فسعد كان يُرى رجلًا صالحًا، ولم يكن يُحسب من تلك الآنف، ولكن الأحداث أظهرت منه ما لم يكن متوقعًا.. (سعد بن عبادة ﷺ سيد الخزرج، وكان رجلًا صالحًا، كما قالت عائشة ﷺ، ولكنه احتملته الحمية فدفعته إلى ذلك الموقف، ولم يغمص عليه في دينه بسبب ذلك الموقف، فمواقفه الكثيرة لا تنسى) وهكذا تظهر حكمته ﷺ وبُعد نظره في تقدير الأمور.. هذا في المستوى الداخلي، وأما في المستوى الخارجي فقد حدده بقوله ﷺ: **(فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه)**». [من معين السيرة للشامي ٣٤٩-٣٥٠].

٧ ـ الأسلوب الناجح في مواجهة الفتن وأصحابها:

يقول د/ أبو فارس: «لقد أثار رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول في غزوة بني المصطلق فتنة كادت تعصف بوحدة الجماعة من مهاجرين وأنصار، واستغل الخلاف بين الغلامين ليصنع منه مشكلة وينفخ فيها ويشيعها ويستغلها أسوأ استغلال لتحقيق مآربه الشخصية التي كان يخفيها في حنايا ضلوعه، في قلبه المملوء حقدًا على الإسلام ورسول الإسلام وسائر المسلمين، إنه كان يعتبر الرسول ﷺ هو الذي حال بينه وبين تحقيق حلمه الذي كان يريده، وهو أن يُتوج ملكًا على الخزرج، بل على المدينة كلها.

وكان علاج الرسول ﷺ لهذه الفتنة التي أثارها ابن سلول شاملًا عدة نواح:

(أ) علاجه لعبد الله بن أبي بن سلول: لما نال عبد الله بن أبي بن سلول من رسول الله ﷺ والمهاجرين وتكلم عليه كلامًا قبيحًا يتوقف اللسان عن ذكره، وبلغ ذلك الرسول ﷺ وعمر ﷺ، فأشار عليه عمر بن الخطاب ﷺ أن يضرب عنقه فيستريح منه، إلا أن الرسول ﷺ أبى ذلك، وقال: **دعه لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه.**

إن الصبر الحكيم على المجرمين له ثمرته، إنه يفتضح أمرهم، ويظهرون على حقيقتهم أمام أقرب الناس إليهم فيحددون مواقفهم منهم.

لقد أغلق النبي ﷺ وحكمته على أمثال عبد الله بن أبي بن سلول بابًا واسعًا ينتهز فتحه الانتهازيون، ويشوش المشوشون، ويروج المروجون لينفِّروا الناس من اتباع الحق والهدى.

(ب) علاجه للخلاف الذي دب بين المسلمين: لقد أثَّر كلام ابن سلول في نفوس بعض المسلمين، وحدث لغط واستعداد عندهم للإسهام في الفتنة، إلا أن النبي ﷺ لم يدع الشر يستفحل فتدخل سريعًا وحسم الموقف، كيف كان ذلك؟

لقد أطلت الفتنة برأسها وأشرفت، واستمرار الناس في الكلام والمحاورة مع استقرارهم في مكانهم يزيد النار اشتعالًا، ويوجد الفرصة المواتية لمشعلي الفتنة ليزيدوا النار ضرامًا، فما كان منه ﷺ إلا أن أمر الجيش بالتحرك والمسير فورًا، وساروا مسافة طويلة جدًّا أنهكت أجسامهم فانشغلوا بتعبهم عن الحديث في الفتنة، وما أن أمرهم الرسول ﷺ بالنزول حتى ناموا جميعًا، فنامت الفتنة بنومهم.

وبهذا التصرف الحكيم استطاع رسول الله ﷺ أن يطارد الفتنة ويقطع دابرها.

(ج) علاجه لولد ابن سلول: وكان عبد الله ولد ابن سلول رجلًا صالحًا، قد حزن حزنًا شديدًا لما بدر من أبيه، وعرض على رسول الله ﷺ أن يقتله بسيفه إن كان له رأي بقتله، فأبى رسول الله ﷺ وقال: **بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا.**

نتائج هذه السياسة الحكيمة: ولقد أنتجت سياسة رسول الله ﷺ الحكيمة مع رأس المنافقين، فكشفته على حقيقته، ونَفَر منه كثير من الناس الذين خُدعوا به فترة من الزمن، وأصبح عندهم منبوذًا لا يسمعون له، بل أصبح عندهم قتله مستساغًا، ولو قتله في ذلك الوقت لثارت له أنوف لا مانع لديها اليوم من قتله، كما قال رسول الله ﷺ لعمر ﷺ». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٤٢-٤٤].

٨ ـ اتباع الطغاة الضغط الاقتصادي على الدعاة:

قول أ/ الشامي: «كان من قول عبد الله بن أُبي في كلمته الخبيثة: **سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ،... هَذَا مَا فَعَلْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ، أَحْلَلْتُمُوهُمْ بِلَادَكُمْ، وَقَاسَمْتُوهُمْ أَمْوَالَكُمْ، أَمَا وَاللهِ لَوْ أَمْسَكْتُمْ عَنْهُمْ مَا بِأَيْدِيكُمْ لَتَحَوَّلُوا إِلَى غَيْرِ دَارِكُمْ.**

لا شك أن الأنصار قد قَدَّموا الكثير الكثير، ولكن النفاق لا يفهم إلا منطق المادة، فهو لم يدرك لذة الإيمان لحظة واحدة، إنه يظن من خلال تجاربه ومفاهيمه عن الحياة، أن الإنسان يُقاد من شهوة بطنه ومن خلال حاجاته المادية، وما درى أن هؤلاء المهاجرين قد تعالوا على المادة بكل ما لديها من وسائل الضغط، إنه لم يطلع فيما يبدو على تاريخ الإيمان ـ القريب العهد ـ ليتعلم منه أن المهاجرين صبروا على الجوع ثلاث سنوات في الحصار الاقتصادي في شِعب أبي طالب، ولو كان منطقه صحيحًا لما وصل الإسلام إلى المدينة ولانتهى أمره في مكة، إن دعوة الإيمان التي حملها محمد ﷺ إلى الناس كانت تتعامل مع عقولهم وأفئدتهم تتعامل مع قلوبهم ومشاعرهم، ولم تكن أبدًا دعوة تقوم مرتكزاتها الأساسية على التلويح للناس بتحقيق شهواتهم... إن ابن أُبي أخطأ التقدير كما أخطأ الفهم، كما أخطأ الطريق السوي: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾[النور]». [من معين السيرة للشامي ٣٥٠].

٩ ـ سماحة الإسلام:

يقول أ/ رضوان: «قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «**فَلَقَدْ أَعْتَقَ بِتَزْوِيجِهِ إِيَّاهَا [فِي سَبَبِهَا] مِائَةَ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ بَنِي الـمُصْطَلِقِ، فَمَا أَعْلَمُ [رَأَيْنَا] امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَى قَوْمِهَا مِنْهَا**».

وتدل هذه الشهادة من أحب زوجات الرسول ﷺ إليه وهي السيدة عائشة رضي الله عنها على حكمة زواج الرسول ﷺ من أم المؤمنين جويرية رضي الله عنها ألا وهي إعتاق هذه القبيلة العربية العظيمة من السبي والرق، بأسلوب حكيم من المعلِّم الحكيم والقائد الرحيم ﷺ.

فلو أنه طلب ذلك من المسلمين بغير هذا الزواج لكرهوا ذلك وسرت الفتنة بينهم لترك ما بأيديهم من أسرى وسبايا.

ولكنهم دللوا بإطلاقهم سراح الأسرى والسبايا ـ لأنهم قد صاروا أصهار رسول الله ﷺ ـ على مدى حبهم لرسول الله ﷺ ورحمة قلوبهم، وتغلغل تعاليم الإسلام الرحيمة في نفوسهم وأرواحهم.

وترتب على هذا التصرف الحكيم من الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أن أسلمت كل قبيلة بني المصطلق عن طواعية واختيار.

فأين الإكراه على الإسلام بالسيف يا أعداء الله والحق والإنصاف من المستشرقين الصليبيين؟!

أين الإرغام ولو كان موجودًا لكان خير مجال لممارسته هم هؤلاء الأسرى، الذين يُحكم عليهم المسلمون قبضتهم الحديدية.

ولكن إسلامهم عن طواعية دليل على كذبكم وبهتانكم، والله متم نوره ولو كره الكافرون».

[محمد ﷺ القائد الأعظم لرضوان ٨٦].

المطلب السادس

الدروس العسكرية

١ـ موقف بني المصطلق من الصراع بين المسلمين وقريش:

يقول د/ قريبي: «لم تشر المصادر التي بين أيدينا إلى موقف عدائي محدد صدر من بني المصطلق ضد المسلمين منذ أن تأسست دولة الإسلام حتى كانت غزوة أُحُد، رغم تحرك المسلمين العسكري في أطراف المدينة من جميع نواحيها، حيث أرسلوا السرايا استهدفت عرقلة التجارة المكية إلى الشام، بتهديد طرقها الرئيسة، كما لم تسهم بنو المصطلق مع المشركين في غزوة بدر الكبرى.

وأول إشارة إلى اتخاذهم موقفًا عدائيًّا واضحًا ضد المسلمين هو إسهامهم مع قريش في موقعة أحد، ضمن كتلة الأحابيش [(١)]، التي اشتركت في المعركة تأييدًا لقريش. [سيرة ابن هشام ٢/ ٦١، والمغازي للواقدي ١/ ٢٠٠، والكامل لابن الأثير ٢/ ١٤٩، وزاد المعاد لابن القيم ٢/ ١٠٢، والبداية والنهاية لابن كثير ٤/ ١٠، ونور اليقين للخضري بك ص ١٣٣، والسيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة لأبي شهبة ص ١٩٦].

وبهذا نعلم أن بني المصطلق قد أثَّرت فيها دعايات قريش للاشتراك معها في موقعة أحد، لتأخذ بثأرها وتغطي عار الهزيمة التي نزلت بها في موقعة بدر الكبرى.

وأما قبل ذلك فلم يوجد أي دليل على اشتراك بني المصطلق مع قريش ضد المسلمين حتى كانت غزوة أُحُد وما لحق بالمسلمين فيها من خسائر جسيمة ذات أثر عظيم في أرجاء شبه الجزيرة العربية، وداخل المدينة المنورة نفسها، فضعفت هيبة المسلمين وتجرَّأ عليهم الأعراب، وشمت بهم اليهود والمنافقون، وقاموا بدعاية واسعة ضدهم، وقد أدت الظروف التي أعقبت غزوة (أحد) إلى ما يلي:

(١) طمع المشركين في القضاء على الإسلام والمسلمين والإجهاز على الدعوة الإسلامية نهائيًّا، ويتمثل هذا في رغبة أبي سفيان في العودة إلى المسلمين لاستئصال شأفتهم، غير أنه نكص على عقبيه، بتخذيل معبد بن أبي معبد الذي مرَّ ذكره.

(٢) تنفُّس المنافقين واليهود الصعداء وتربُّصهم الشر بالمسلمين، وهذا عدو داخلي بالمدينة المنورة نفسها.

---

(١) **الأحابيش**: هم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، والهون بن خزيمة بن مدركة، وبنو المصطلق من خزاعة. ينظر: سيرة ابن هشام ١/ ٣٧٣، والمعارف لابن قتيبة ص٢٦، وأنساب الأشراف للبلادي ص٥٢، وفتح الباري لابن حجر ٥/ ٣٣٤ و٣٤٢، وسُمُّوا بذلك: لأنهم تحالفوا وتعاقدوا مع قريش على أنهم يد على من سواهم، وكان ذلك عند جبل بأسفل مكة يقال به (حبشي) فنسبوا إليه، وقيل: سُمُّوا بذلك لتجمعهم، والتحبُّش التجمع، والحباشة الجماعة. المعارف ص ٢٦٩، ولسان العرب لابن منظور ٨/ ١٦٦، والقاموس المحيط للفيروز آبادي ٢/ ٢٦٧، فتح الباري ٥/ ٣٣٤.

(٣) رغبة الأعداء المجاورين لعاصمة الإسلام من القبائل العربية في التحرُّك ضد المسلمين، بسبب الدعايات المغرضة التي انتشرت على أيدي المرجفين في المدينة من اليهود والمنافقين.

[الرسول ﷺ لسعيد حوى ١/ ٢٢٩].

وأصبح المؤمنون مهدَّدين في عُقر دارهم من الداخل والخارج، فمن الداخل المنافقون واليهود فكانوا يذيعون خبر المعركة، ويلفِّقون الأكاذيب لإشاعة الضعف والخور في صفوف المسلمين، ولتشجيع عدوهم عليهم.

وأما من الخارج فقد صار المسلمون لا يحاربون قريشًا وحدها وإنما يواجهون الجزيرة برمتها.

ومن ذلك أن سارعت عدة قبائل إلى التجمُّع للإغارة على المدينة والقضاء على المسلمين فيها، كما حدث ذلك:

(أ) من بني أسد بقيادة طليحة وسلمة ابني خويلد الأسديين، من القبائل النجدية.

(ب) خالد بن سفيان الهذلي الذي كان مقيمًا في عرنة قرب عرفات.

فلما علم رسول الله ﷺ بتجمُّعهم ومحاولتهم اقتحام المدينة بعث إليهم من يؤدِّبهم في عقر دارهم، فأرسل إلى طليحة ومن شايعه أبا سلمة بن عبد الأسد ﷺ على رأس مائة وخمسين رجلًا من المهاجرين والأنصار ففرَّقوا جمعهم واستاقوا نعمهم وعادوا إلى المدينة سالمين.

وأرسل إلى خالد بن سفيان عبدَ الله بن أنيس الجهني ﷺ فقتله في عقر داره، فكان في ذلك ضربة لهم وعبرة لغيرهم ممن يحاول السير على منوالهم، وما نزل بهم حلَّ بغيرهم من بني ثعلبة وبني محارب من القبائل الغطفانية التي حاولت الهجوم على المدينة المنورة كذلك، فخرج رسول الله ﷺ على رأس سبعمائة مقاتل فساروا حتى نزلوا ديار العدو فلم يجدوا فيها أحدًا غير نسوة، فأخذوهن، فبلغ الخبر رجالهن فخافوا وتفرَّقوا في رؤوس الجبال، ورجع المسلمون معزَّزي الجانب، وعُرفت هذه الغزوة بغزوة ذا الرقاع.

وهكذا جنَّد المسلمون أنفسهم عسكريًّا وسياسيًّا، ليثبتوا للقبائل بأنهم مخطؤون في تصوُّرهم أن المسلمين بعد معركة (أُحُد) لا يستطيعون مقاومة من يريد النَّيْل منهم، فجهزوا تلك السرايا والغزوات ليُشعروا عدوهم بأنهم قادرون على سحق كل من تحدِّثه نفسه بالاعتداء عليهم، أو محاولة النَّيْل منهم، فكانت حركاتهم العسكرية ناجحة، أنزلوا فيها بالأعداء ضربات زلزلت معنوياتهم، وجعلتهم يصحِّحون تصوراتهم الخاطئة، عن مدى قوة المسلمين العسكرية، وترابطهم السياسي والمعنوي، وخاصة المعسكر القرشي واليهودي. [غزوة الأحزاب لباشميل ص ٢٠].

وبعد هذا كله جاء دور بني المصطلق؛ إذ إنها كانت ضمن كتلة الأحابيش التي انضمت إلى جانب قريش في معركة أُحُد، ثم أَخذت بعد رجوعها من معركة أحد تعد العدة وتجمع الجموع، وتقتني السلاح

والخيل، على مدى سنتين، كان المسلمون خلال تلك الفترة يواجهون تحرُّكات قبائل الجزيرة، فهم ما بين سرية وغزوة.

فانتهزت قبيلة بني المصطلق فرصة انشغال المسلمين ببقية القبائل، فأخذت تجمع الجموع، وتسعى في القبائل المجاورة لها، تحرِّضها وتشجِّعها على الانضمام معها في الهجوم على دولة الإسلام.

ولما وصل خبرهم إلى رسول الله ﷺ، قدَّر للموقف قدره، وجعل يفكر في مواجهة هذه القبيلة التي استعدت للمعركة استعدادًا كاملًا، فبدأ بمراقبة حركات هذا العدو مراقبة شديدة، ثم أمر بريدة بن الحصيب ﷺ بالذهاب إليهم ليعرف وجهتهم وقوتهم، فجاءه بخبرهم كما سبق بيانه».

[مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٨٩-٩٤].

٢ـ غزوة بني المصطلق من توابع غزوة أُحُد:

يقول د/ الحميدي: «في الفترة التي تلت غزوة أُحد كثرت محاولات القبائل العربية غزو المسلمين في المدينة، وقد بدأت هذه المحاولات من بني أسد وأرسل لهم الرسول ﷺ أبا سلمة ﷺ في سرية، ثم كانت محاولة خالد بن نبيح الهذلي فعاجله النبي ﷺ بالقتل وهو في بلاده على يد عبد الله بن أنيس ﷺ، ثم كانت محاولة قبيلة غطفان فخرج إليهم النبي ﷺ وعاجلهم في غزوة ذات الرقاع قبل أن يجتمعوا، ثم كانت محاولة أصحاب دومة الجندل فغزاهم النبي ﷺ وعاجلهم قبل أن يجتمعوا، وقد سبقت أخبار هذه الغزوات والسرايا، وكانت نتائجها جميعًا لصالح المسلمين، وأخيرًا جرت محاولة بني المصطلق التي جاءت في هذا الخبر.

ولقد كان الدافع لهذه المحاولات ما بثه مشركو مكة من دعايات واسعة ومبالغات عن حجم إصابة المسلمين في أحد، فكان هناك طمع من عدد من القبائل في غزو المدينة ما دام أهلها في حال ضعف.

ولقد كان النبي ﷺ مدركًا لمخاطر تلك الدعايات السيئة، ومن أجل تفادي تلك المخاطر قام بمغامرة ملاحقة المشركين إلى حمراء الأسد ثاني يوم من معركة أحد على ما به وبأصحابه من الجراح، ولقد كان لتلك الغزوة أثرها الواضح في صد مشركي مكة عن العودة إلى المدينة كما سبق، إضافة إلى ما كان لها من أثر في إرهاب الأعداء داخل المدينة والقبائل المحيطة بها، ولكن دعايات الكفار القوية قد لبَّست الأمر على القبائل البعيدة فظنوا أن أهل المدينة قد أصبحوا صيدًا سمينًا سائغًا للمصطادين، وأن المفلح هو من يسبق لهذا الصيد فقاموا بتلك المحاولات التي تمت خلال تلك الفترة.

ولقد كان النبي ﷺ ناجحًا كل النجاح في معاجلة بني المصطلق قبل أن يزحفوا على المدينة، وقبل أن يتكوَّن له جَمْع كبير، كما أن طليعة المسلمين كانوا في غاية الحذر والنباهة حينما قبضوا على عين الأعداء قبل أن يقوم بمهمته، وكان قتله هو الحكمة لئلا يفلت من المسلمين فيُخبر أعداءهم بهم.

ولقد قام النبي ﷺ بالاحتياطات اللازمة لمعرفة خبر الأعداء حتى لا يهاجمهم المسلمون وهم بـرآء ممـا نسب إليهم، فأرسل بريدة بن الحصيب الأسلمي ﷺ ليعلم خبرهم، وقد صـارحه زعـيمهم بمـرادهم في غزو المسلمين في المدينة بعد أن خدعه بريدة وأخفى عليه مهمته الحقيقة».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٧٥-٧٧].

٣ـ موقف المسلمين من تحركات بني المصطلق:

يقول د/ قريبي: «لم يقف المسلمون من تحركات بني المصطلق الاستفزازية مكتوفي الأيدي، وإنما درسوا الموقف دراسة ميدانية، وأرسل الرسول ﷺ عيونه لكشف نيات هذه القبيلة ومعرفة استعدادها وتهيئها لغزو المدينة، وقد تم للمسلمين إدراك حقيقة ما تنويه هذه القبيلة من شر وما تبيته للمسلمين من وقيعة، ولم يكن للمسلمين ـ وقد أدركوا الأمر حق الإدراك وتيقنوا من خبث النيات السيئة لهذه القبيلة ـ أن يسكتوا عن الأمر ويتجاهلوا الموقف العدائي الواضح، خاصة إذا عرفنا أن أعداء المسلمين كُثُر في تلك الآونة، فما لم تلقَّن هذه القبيلة درسًا قاسيًا من المسلمين يوقفها عند حدها فإن غيرها من أعداء الإسلام سيقف الموقف نفسه؛ ومن هنا اندفع المسلمون لكسر شوكة هذا العدو وتحطيمه في عقر داره».

[مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ٩٧].

٤ ـ كانت غزوة بني المصطلق بدء نهاية تطهير الجو أمام مسيرة المجتمع المسلم بدعوته ورسالته:

يقول الشيخ عرجون: «كانت هذه الغزوة بدءًا لكسح الجيوب المنتشرة هنا وهناك بعد كسر شوكة قريش، ومن كان قد انضوى تحت لوائها من شراذم القبائل التي ساقها الغرور الأحمق إلى منازلة المجتمع المسلم بقيادة النبي ﷺ، والتي كانت نهاية غزوة الخندق نهاية لفش تورماتها المتجمعة في تكتلات قد نخر السوس جذوعها، فتفرقت إلى أشتات لم تجتمع بعدها أبدًا للهجوم على هذا المجتمع المسلم؛ وذلك لتحول ميزان قوة هذا المجتمع من رواسب الجاهلية وتراثها المادي المظلم إلى حرب منهجية تقصد إلى نشر الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته إلى العالمين، مستهدفة إقامة منائر العدل والإخاء الإنساني والترابط المتلاحم المتراحم بين أفراد وجماعات الإنسانية في أرجاء الأرض.

كانت بنو المصطلق لا تزال تغط في نوم الرواسب الجاهلية بزعامة رئيسها الحارث بـن أبي ضرار، وكانت تصك آذانها أخبار الحروب التي نشبت بين المجتمع المسلم في تركيبه الجديد بعد الهجرة وبين أعدائه الذين أقض مضاجعهم صدى انتصاراته المدوية، فتثير في أنفسهم نعرة الطيش المتهور.

وكان بنو المصطلق من بقايا هذا الغثاء المتخلف في سفح جسور الحياة العربيـة، وقـد ملكهـم الرعـب وخافوا إن هم ظلوا في موقفهم الاعتزالي المتحير المتردد أن تدور عليهم الـدائرة وتقضـي علـيهم كتائـب

المجاهدين وهم نائمون، فتحركوا ليهاجموا المجتمع المسلم بقيادة قائده الأعظم رسول الله ﷺ، وأخذوا يعدون العدة، ويتأهبون بكل ما قدروا عليه من الرجال والسلاح والمؤن لمهاجمة قوة هذا المجتمع المنتصر، ومشى زعيمهم ورجالهم في إحياء بقايا غسالات القبائل يجمعونها معهم لتجربة حظهم في رد السيل الجارف الذي اكتسح أمامه كل قوى الجاهلية الوثنية المعتمدة على المظاهر المادية المتهاوية تحت ضربات الجهاد القتالي الذي يخوضه المجتمع المسلم دفاعًا عن وجوده، وإزالة العقبات من طريق دعوته وتبليغ رسالته، رسالة الحق والعدل والنور والهدى». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٠٧-٢٠٨].

٥ ـ أهمية الاستخبارات:

يقول د/ أبو فارس: «إن مهمة الاستخبارات العسكرية جمع المعلومات عن الأعداء في السلم والحرب وفحصها ومعرفة مدى دقتها وتحليلها، ومحاولة الاستفادة منها في الوقت المناسب، وبناء خطة التعامل مع هؤلاء الأعداء على ضوء هذه المعلومات، إن كان التعامل مسالمة أو محاربة، هجومًا أو دفاعًا.

وهذه مهمة جد خطيرة، يجب على كل جيش أن يهتم بها، وأن يسخِّر كثيرًا من طاقاته البشرية والمالية والفنية في هذا الشأن، ولا نعجب إذا رأينا في كل جيش من الجيوش المعاصرة دائرة استخبارات عسكرية.

وإذا درسنا سيرة رسول الله ﷺ فإننا نجده ﷺ حريصًا على جمع المعلومات عن الأعداء وفحصها وتحليلها وبناء خططه على هذه المعلومات.

وكان النبي ﷺ يحرص على بث العيون في كل مكان؛ ليأتوا له بأخبار التحركات العسكرية للأعداء، وأحيانًا كان يبعث العيون ليدخلوا في جيش الأعداء ويعيشوا معه فترة ثم يأتوا بالأخبار الدقيقة عن هذا الجيش، بل ربما عاشوا مع قادته واطلعوا على أسرارهم ونقلوها للمسلمين.

ففي غزوة بني المصطلق أرسل النبي ﷺ بريدة بن الحصيب رضي الله عنه ليأتيه بأخبار بني المصطلق ومسيرهم، وأذن له أن يقول ما يتخلص به من شرهم، فخرج حتى ورد عليهم ورأى جمعهم، فقالوا له: من الرجل؟ قال: رجل منكم قدمت لما بلغني من جمعكم لهذا الرجل، فأسير في قومي ومن أطاعني، فنكون يدًا واحدة حتى نستأصلهم.

فقال له الحارث: فنحن على ذلك، فعجل علينا.

قال بريدة: أركب الآن فآتيكم بجمع كثير من قومي، فسروا بذلك منه، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبر القوم. [السيرة الحلبية ٢/ ٥٨٣- ٥٨٤].

إن الاستخبارات العسكرية كما ترى لها أبلغ الأثر في كسب النصر والتغلب على الأعداء؛ لأنها تعطي صورة عن تحركات العدو وعدده وعدته وتساعد القائد على رسم خطة دفاعه أو خطة هجوم مضادة، بل إنه على ضوء المعلومات المتتابعة يمكن للقائد أن يطور خطته القتالية.

وكان رسول الله ﷺ يولي عناية فائقة لذلك، وكان يستخدم وسائل متعددة لمراقبة عدوه ورصد حركاته وسكناته، وكان يحالف غير المسلمين ليستعين بهم في رصد تحركات أعدائه وتزويده بها ومن هؤلاء قبيلة خزاعة، فقد كانت مخلصة لرسول الله ﷺ في هذا الأمر».

[المدرسة النبوية العسكرية لأبي فارس ٦٩-٧٠، غزوة الأحزاب لأبي فارس ٢٩-٣٠].

ويقول عميد/ فرج: «في هذه الغزوة نلاحظ أن رسول الله ﷺ بعث عينًا له تعلم من أمر الحارث وقومه، هذه العين (بريدة بن الحصيب ﷺ) كانت تقوم بدور المخابرات في حروب اليوم، كلف بريدة ﷺ بمتابعة القوم وجمع المعلومات، واتصل بريدة ﷺ بهم ودخل بينهم واختلط بهم وجمع معلوماته، ثم تحايل عليهم وخرج من بينهم وهم يرونه حليفًا وليس عدوًّا، وهذا هو لب عمل المخابرات في جيوش اليوم، ورسول الله ﷺ حين بعث به كان حريصًا على أن تكون بين يديه صورة واضحة عن عدوه، ولقد ذكر مؤرخ يوناني عاش قبل الميلاد (٢٠١-١٢٠ ق. م) يسمى بوليبوس أنه يجب على القائد أن يؤمن إيمانًا راسخًا بوجوب معرفة كل شيء عن خصمه، ومن أهم ما يجب أن ينال عناية القائد هو أن يكون على علم سابق بنوايا العدو وتحركاته حتى يستطيع أن يتخذ اللازم من إجراءات لإفساد خطته، وإن القيام بهذه العملية تتطلب اختيار شخص يُقَدِّر أهميتها، يكون متمتعًا بأكبر قدر من الذكاء، وأن يكون تفكيره ناضجًا ومرتبًا ونقيًّا حتى يستطيع أن يواجه مهمته ببراعة وقدرة، ولعل نجاح بريدة ﷺ في مهمته يؤكد أن رسول الله ﷺ قد أحسن اختيار رجل مخابراته الناجح». [العبقرية العسكرية لفرج ٢٧٢-٢٧٣].

٦ ـ التثبت والتبين في الأخبار:

يقول د/ الزيد: «من بعث الرسول ﷺ لبريدة بن الحصيب ﷺ إلى الحارث بن أبي ضرار، ليتأكد من صحة ما بلغ الرسول ﷺ، نأخذ منه أهمية التثبت والتبين في الأخبار وعدم العجلة، فبعض الناس تستفزهم الأخبار فيتعجلون في أحكامهم ويتبين عدم صحة الخبر، والمطلوب هو التثبت وعدم العجلة حتى يتم التأكد وظهور الحقيقة جلية». [فقه السيرة للزيد ٤٧٥-٤٧٦].

٧ ـ اتخاذ زمام المبادرة القوية في الحروب من أهم أسباب النصر [(١)]:

يقول د/ فيض الله: «ما إن علم النبي ﷺ بتجمع بني المصطلق لحربه، حتى استحث الصحابة لحربهم، فخرج إليهم في سبعمائة من الصحابة المقاتلين، في غير تردد، ولا انتظار هجومهم ليرد اعتداءهم، بل بادرهم بالقتال؛ ولعله كان يرى أن الكسب دائمًا في جانب المهاجِم لا المدافع.

فأضف هذه الحادثة إلى ما ذكرناه لك قبلًا، من الردود على مَنْ ذهب إلى أن القتال شُرِعَ أولًا دفاعًا في مرحلة الحرب الدفاعية، وأن أمر الجهاد لم يستقر إلا بعد غزوة الأحزاب.

---

(١) سبق تفصيلها في سرية أبي سلمة ﷺ إلى قَطَن (بني أسد)، أول المحرم ٤ هـ.

ولم يقتصر النبي ﷺ على المبادرة، بل عمد إلى إخافة العدو بقتل الجاسوس؛ لما رفض أن يجيب على أي سؤال وُجِّهَ إليه، ولم يشأ أن يدلي بأية معلومات عن أحواله، إن انضمام المبادرة إلى هذا القتل، كان قوة في قتال المسلمين، فكان هذا من أول النصر، الذي تم بالملاقاة الحاسمة». [صور وعبر لفيض الله ١٩٧].

«وبنو المصطلق قبيلة عربية تسكن قرب مكة، في المنطقة الواقعة ما بين مكة والمدينة، وقد أراد ﷺ استغلال واستثمار الوقت بمفاجأة تلك القبيلة قبل أن تتحرك ويتكامل استعدادها، أراد ﷺ أن يباغتها بضربة سريعة تشلها؛ لأن أي تأخير قد يضاعف من خطر تلك القبيلة، وذلك لقربها من عدو النبي ﷺ الأول (قبيلة قريش)، أي تأخير يعني مزيدًا من الأعوان والعتاد والخطر، فمباغتة ذلك الجيش الوثني وهو مسترخٍ على أرضه هو أسرع الطرق وأيسرها للقضاء عليه وإراحة المدينة من خطره».
[السيرة النبوية للصوياني ٣/ ٢٧ - ٢٨].

٨ ـ إستراتيجية الردع:

يقول د/ الزيد: «كانت هذه الضربة التي وجهت إلى بني المصطلق قد أعطت درسًا لكل من يفكر أن يتجرأ على المسلمين بعد غزوة أُحد، حيث إن هذه الضربة كفَّت الكثير من القبائل العربية عن خطوات مماثلة وجعلتها تشعر أن المسلمين قادرون على حماية أنفسهم ورد الاعتداء عنهم بقوة، وأن وقعة أحد لم تؤثر عليهم [ينظر: الدروس الدعوية في غزوة بني المصطلق لمحمد سعيد القرافي ص ١٩ (بحث غير منشور)».
[فقه السيرة للزيد ٤٧٧].

٩ ـ تحرز القائد الأعظم ﷺ:

يقول الشيخ عرجون: «وفي طريق رسول الله ﷺ إلى منازل بني المصطلق أتى برجل من عبد قيس، فسلم على رسول الله ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «أين أهلك» قال: بالروحاء، قال: «أين تريد؟» قال: إياك جئت لأومن بك وأشهد أن ما جئت به حق، وأقاتل معك عدوك، فقال النبي ﷺ: «**الحمد لله الذي هداك إلى الإسلام**» فقال الرجل: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال ﷺ: «الصلاة لأول وقتها».

وسؤال النبي ﷺ للرجل عن أهله، وأين يريد من التحرز الذي ينبغي أن يكون عليه القائد الأعظم، وهو منهج من مناهج الرسالة الخالدة، وهذا التحرز إنما كان خشية أن يكون هذا الرجل عينًا للأعداء، أو كانت طريقه تمر عليهم فيسألونه فيخبرهم عن تجمعات المجتمع المسلم وقائده ﷺ وسيره، ولعل سيره إليهم يكون في طريق سير الرجل، فيخبر القوم وهو لا يشعر». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٠٩].

١٠ ـ أفضلية المسير الليلي وعامل الليل في الأسفار:

يقول ل/ خطاب: «تحرَّك الرسول ﷺ ليلًا في أكثر هذه الغزوات، حتى يحول دون انكشاف نياته واتجاه حركة قواته، فيأمن بذلك مباغتة أعدائه مباغتة تامة بالمكان والزمان.

لقد كانت القبائل التي غزاها النبي ﷺ قوية ولها حلفاء وأنصار، فلو أنها عرفت بمسيره لسارعت بالاستعداد للقائه ولاستعانت عليه بحلفائها وأنصارها لمعاونتها يوم اللقاء.

ولكن المسير الليلي حال بينها وبين ذلك كله، فاستطاع النبي ﷺ بقواته القليلة بالنسبة لقوات تلك القبائل، أن يتغلب عليها ويقضي على نياتها العدوانية، ويلقي الرعب في نفوسها ونفوس القبائل الأخرى التي سمعت بانتصار المسلمين.

إن الضربة الأولى، لها أثر حاسم على نفسية الأعراب، فإذا أمكن التغلب عليهم في المعركة الأولى تشتت شملهم، وإلا فما أصعب القضاء عليهم!

لقد عرف الرسول ﷺ نفسية القبائل هذه فحاول القضاء على معنوياتها بضربة مباغتة بالمسير الليلي الذي أدى إلى تطبيق مبدأ: المباغتة، أهم مبادئ الحرب على الاطلاق». [الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢١٦].

ويقول أ/ كولن: «لقد كان الرسول ﷺ يختار الليل لجميع أسفاره، ففي الليل سر آخر، ثم ألا يوصيه القرآن ـ وإن كان من طرف خفي ـ بذلك؟ والرسول موسى عليه السلام قاد المؤمنين ليلًا للهروب معه؛ لأن الله تعالى قال له: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الدخان]، وأصدر الأمر نفسه إلى النبي لوط عليه السلام: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ [هود: ٨١] وعندما أسرى بسيد الأنبياء ﷺ، ثم بدأ بسياحته السماوية التي تجاوز فيها جبريل عليه السلام، كان هذا الإسراء ليلًا: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء].

وهناك سفر ليلي لكل نبي تقريبًا، فالمنازل تقطع بالليل وتصبح تلك الليالي ليالي الوصول والقرب إلى الله.

والله تعالى يقسم بالليل في كثير من آياته، فأعمال البر والخير الوضيئة التي تعمل في ظلام الليل البهيم تجعل الليل أضوأ من النهار وأكثر منه نورًا.

يقول الشاعر المتصوف إبراهيم حقي الأرضرومي:

يا عين ما هذا النوم؟ تعالي واستيقظي في الليالي.

وتأملي.. تأملي سير الكواكب في الليالي

فالذي يقطع المسافات يقطعها ليلًا، وفي الليل تبتل سجادته بالدموع عندما يخر للسجود، هنا يستطيع روحه أن يرتفع ويقطع المسافات، والذي تعودت جدران بيوته على سماع تأوهاته يستطيع التسلق إلا آفاق تقصر دونها المسافات، أمثال هؤلاء يقطعون هذه المسافات في الليل، والذين قطعوا هذه المسافات قطعوها ليلًا، أما الذين ناموا في الليالي فقد بقوا في وسط الطريق، فإن كنتم تريدون الخلاص من عذاب البرزخ، فلا تدعوا لياليكم دون تهجد، لا تدعوها لأن الرسول ﷺ لم يدعها.

يقول محمد إقبال: «بقيتُ عشرين سنة في لُندن، في عالم الضباب، ولا أتذكر أنني تركت صلاة التهجد في أي ليلة من لياليها».

أجل، فمن يستغل الليل ـ حيث ينقطع كل صوت ـ سيجد كل كلام يتلفظ به صدى في وجدانه، وسيستطيع قطع المسافات.

فكان الرسول ﷺ يقطع المسافات المادية والمعنوية في الليل؛ لذا كان يسافر ليلًا ويرتاح نهارًا، وهكذا يفاجأ الأعداء به، إذ يرونه أمامهم فجأة فيذهلون ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الصافات].

وهذه الآية تعرض مقطعًا صغيرًا من هذا المنظر، أجل، كان إذا نزل في ساحة قوم أعداء بجيشه فهذه يعني أن أمر هؤلاء الأعداء يُعد منتهيًا وساء صباحهم.

كان الرسول ﷺ يهاجم في السَّحَر.. [مسلم، الصلاة، ٩]، ففي السحر كانت تظهر معتقدات أهالي تلك المنطقة، وذلك عند قيامهم ـ وعدم قيامهم ـ برفع الأذان وإقامة الصلاة. فالسَّحَر هو الوقت الذي تهب فيه نسائم التجلي، يقول الشاعر المتصوف إبراهيم حقي:

تهب نسائم التجلي في السحر فيا عينيَّ! استيقظا عند السحر

وقت السحر مهم جدًّا لدى المؤمن، فهو الوقت الذي تهب فيه على المؤمن نسائم التجلي، وفيه يتهيأ لولوج عالم المعاني لأنه يتهيأ فيه للصلاة.

لذا، كان الرسول ﷺ يختار الفجر على الدوام، فبينما كان العدو ينهض من فراشه متثائبًا، إذا به يرى المؤمن المتوثب نشاطًا أمامه، كانت هذه هي طريقته في أغلب الأحيان، فعندما هتف أمام أسوار خيبر: «**الله أكبر! خربت خيبر!**» [**البخاري، الصلاة ١٢، الأذان ٦، مسلم، الجهاد ١٢٠، الموطأ الجهاد، ٤٨**] اهتزت هذه الأسوار، ولكن لم يدر أحد كيف وصل هذا الجيش إلى هناك؛ لأنه ﷺ كان يقوم بغزواته بسرعة البرق، ويجد في سير متصل بحيث إن أسرع الجمال ما كانت تستطيع اللحاق به، وكانت غزوة بني المصطلق من هذه الغزوات السريعة، وعندما ذر النفاق بقرنه عند العودة من هذه الغزوة، رأى بفطنته الكبيرة أن أفضل وسيلة للحيلولة دون انتشار آثار فتنة النفاق هو إصدار الأمر بالسفر المتصل دون توقف؛ وبفضل هذا السير المتصل لم يجد المنافقون الفرصة لزيادة نار الفتنة، ومع أن عبد الله بن أُبي بن سلول كان يخطط في فكره أشياء وأمورًا إلا أنه لم يجد الوقت الضروري لإنضاج أفكاره أو وضعها موضع التنفيذ، فالجميع كانوا في سير سريع وكأنهم يَعْدُون عَدْوًا، لقد تم الذهاب والإياب بهذه السرعة، فتعب الجميع تعبًا شديدًا؛ لذا فما أن أعطى لهم الإذن بالراحة حتى وقعوا نيامًا حتى طلوع الشمس في اليوم التالي، ولعله المرة الأولى التي تم فيها أداء صلاة الصبح في الضحى. [**البداية والنهاية لابن كثير ٤/ ١٨٠**].

استمر هذا حتى السنة الخامسة للهجرة؛ لذا علمت القبائل أن أيًّا منها لن تستطيع الوقوف وحدها أمام الرسول ﷺ؛ لذا قررت توحيد قوتها والوقوف معًا أمام الرسول ﷺ، وهكذا جمعوا قواتهم وتوجهوا إلى المدينة». [النور الخالد محمد ﷺ لكولن ٢/ ٩٣-٩٥].

١١ ـ الإبداع:

يقول ل/ خطاب: « **الإبداع**: سَبْق العدو بالعمل لإرغامه على تبديل الخطة التي اتخذها وإرغامه للانقياد إلى رغائبك.

والإبداع هنا، معناه: سرعة الخاطر في إعطاء القرار الجازم الصحيح في المواقف الحرجة، مع تحمل مسؤولية ذلك القرار مهما تكن النتائج.

وكان عمل النبي ﷺ تحريكه قواته بعد غزوة بني (المصطلق) عندما علم بمحاولة عبد الله بن أُبي لإثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار، واستمرار المسير الشاق لمدة ثلاثين ساعة... كان عمل الرسول ﷺ هذا إبداعًا متميزًا، إذ لولا مسارعته إلى الحركة بقواته حتى أنهكها التعب لما استبعدنا بتاتًا نجاح عبد الله بن أُبي في فتنته.

إن مزية الإبداع من أعظم مزايا القائد القدير». [الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢١٧-٢١٩].

١٢ ـ أخذ الشارة والشعار في المعارك:

سبق تفصيله في غزوة بدر الكبرى المرحلة الأولى.

١٣ ـ قدرة القيادة على حل المشكلات:

يقول د/ أبو فارس: «إن القائد العسكري هو الذي يواجه المشكلات ولا يهرب منها، بل يفكر جديًّا في حلها ولا يقف عند التفكير الجدي، بل يتجاوزه إلى الحل العملي لها؛ لأن الإهمال يتولد عنه أخطار كثيرة، ربما تعصف بأمن المجتمع والدولة؛ لأن ذلك يؤدي إلى الفتن، والفتن تؤدي إلى التنازع، والتنازع يؤدي إلى الفشل، والله ﷻ يقول: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾[الأنفال: ٤٦].

إن أخطر شيء على الأمة المشاكل الداخلية، فهي تشغلها عن عدوها، وتبدد جهودها وقدراتها، وتوهن قوتها، وتضعف بنيانها.

لقد كان رسول الله ﷺ حريصًا كل الحرص على حل المشكلات التي تحدث في دولته سواء عسكرية أو اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية.

إننا نقرأ في سيرة رسول الله ﷺ بعض المشكلات التي حدثت ونقرأ كيف حلها ومن هذه القضايا: الفتنة في غزوة بني المصطلق.

لقد انتصر رسول الله ﷺ في هذه الغزوة على أعدائه، وغنم من الإبل والشياه آلافًا، كما أسر كثيرًا من الأسرى، ولكن هناك من نغص على المسلمين هذا النصر وهو رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، إذ استغل خلافًا بين غلام من المهاجرين وغلام من الأنصار، ليشعل فتنة بين المهاجرين والأنصار.

وقد انتهت هذه الفتنة، لا سيما وأن الأنصاري المضروب تنازل عن حقه لدى المهاجري، فماتت بذلك الفتنة، ولكن رأس النفاق قد أشعل الفتنة من جديد، فنفث الشيطان في النفوس، فكيف عالج الرسول ﷺ هذه المشكلة وقطع دابر الفتنة، وأخرس ألسنة السوء؟

لقد أمر الرسول ﷺ بالرحيل في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها.

لم يأذن رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب ﷺ بقتل عبد الله بن أُبي بن سلول لأنه صاحب الفتنة؛ لأن في قتله فتنة كبرى في الداخل والخارج، فله أقارب وأصدقاء لم يدركوا حقيقته؛ ولهذا كان موقف الرسول ﷺ أن يصبر على أذاه حرصًا على وأد الفتنة، إن الصبر الحكيم على المجرمين له ثمرته، أنه يفضح أمرهم، ويُظهرهم على حقيقتهم أمام أقرب الناس إليهم فيحددون موقفهم منهم؛ ولهذا جاء ولد عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ فقال له ما عرضناه سلفًا من أقواله، وكان من فعل ولده أيضًا ما رأيناه.

حقًّا لقد أنتجت هذه السياسة الحكيمة لرسول الله ﷺ فكشفته على حقيقته ليس لولد عبد الله بن أبي بن سلول فحسب بل لجميع أقاربه من المؤمنين الصالحين فنفر منه كثير من الناس الذين خُدعوا به فترة من الزمن، وأصبح عندهم منبوذًا، لا يسمعون له بل أصبح عندهم قتله مستساغًا، ولو قتله في جو الفتنة لثارت له أنوف لا مانع لديها اليوم من قتله.

أما علاجه ﷺ للفتنة التي أطلت برأسها وأشرفت، فلم يكن بالاستمرار في مكان الفتنة، فإن الكلام لا ينقطع والمحاورة تستمر، وباستمرارها تزيد النار اشتعالًا، وتوجد الفرصة المواتية لمشعلي نار الفتنة ليزيدوها اشتعالًا وضرامًا، بل كان العلاج الأمر بالمسير وعدم الاستقرار مسافة طويلة جدًّا، أنهكت أجسامهم فانشغلوا بتعبهم عن الحديث في الفتنة، وما أن أمرهم رسول الله ﷺ بالنزول حتى ناموا فنامت الفتنة بنومهم.

بهذا التصرف الحكيم عالج رسول الله ﷺ هذه المشكلة وقضى على الفتنة وقطع دابرها».

[المدرسة النبوية العسكرية لأبي فارس ٥٠-٥٣].

١٤ ـ مراقبة الأعداء في الجبهة الداخلية:

يقول د/ أبو فارس: «ومن مهمات الاستخبارات العسكرية أيضًا مراقبة الأعداء في الجبهة الداخلية وجمع المعلومات عنهم، وإن أخطر عدو كان في عهد رسول الله ﷺ وفي المدينة يسكن مع رسول الله ﷺ بعد اليهود المنافقون.

وكان الرسول ﷺ لا يغفل لحظة واحدة عن مراقبة هؤلاء ورصد حركاتهم وسكناتهم وتصريحاتهم وأقوالهم، وكان كل صحابي يسمع كلامًا يسيء للمسلمين ينقله إلى رسول الله ﷺ حتى يتخذ الموقف المناسب منهم، هذا ولقد تكفلت سورة براءة وغيرها بفضح هؤلاء المنافقين وهتك أستارهم وكشف أسرارهم.

أما الشواهد من السيرة على اهتمام الرسول ﷺ وأصحابه بخطر هؤلاء ومن ثم مراقبتهم واتخاذ التدابير الناجعة بحقهم فكثير، ومن هذه الشواهد ما حدث في غزوة بني المصطلق، حينما تخاصم غلام من المهاجرين وغلام من الأنصار، فاستغل رأس المنافقين هذا الأمر ليحاول إحداث فتنة بين المهاجرين والأنصار وقال كلامًا أساء فيه إلى رسول الله ﷺ وإلى المهاجرين، وقال فيما قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، وسمعها زيد بن أرقم ﷺ فأخبر بها النبي ﷺ فطلب عمر ﷺ قتل رأس المنافقين لأنه عامل فتنة، وقد نقل زيد بن أرقم ﷺ لرسول الله ﷺ قول رأس المنافقين الذي يحرض المنافقين وغيرهم على الشح والبخل وعدم الإنفاق على فقراء المسلمين حتى ينفض الناس عن رسول الله ﷺ». [المدرسة النبوية العسكرية لأبي فارس ٧٥-٧٦].

١٥ ـ الدروس العسكرية المستفادة من غزوة المريسيع:

يقول العميد/ كاخيا: «حفلت معركة غزو يوم المريسيع أو غزوة بني المصطلق وما رافقها من أحداث ووقائع متتالية بدروس عسكرية مفيدة من أبرزها:

(١) **انتهاج الأسلوب الهجومي في رد كيد الأعداء**: وذلك بخروج الرسول الكريم ﷺ مع المسلمين سراعًا لملاقاة جموع بني المصطلق في مكان تحشُّدهم، بدلًا من انتظار مسيرهم إلى المدينة المنورة وتهديدهم أمنها وأمن المسلمين الموجودين فيها، ما يسمى في عصرنا الحاضر (الضربة الاستباقية).

(٢) **الاعتماد على الاستطلاع القتالي والحيطة القتالية**: وهذا رأيناه عندما أرسل رسول الله ﷺ الصحابي بريدة بن الحصيب الأسلمي ﷺ إلى ديار بني المصطلق كي يعلم له أخبار تحشُّدهم ونواياهم في مهاجمة المسلمين، حتى أن هذا الصحابي أخفى انتماءه والجهة التي أرسلته وتوصل أن يتكلم مع الحارث بن أبي ضرار نفسه في موضوع الحرب.

(٣) **عرض الإسلام على الأعداء ومحاولة تجنب القتال**: عندما بعث ﷺ بعمر بن الخطاب ﷺ إلى القوم وعرض عليهم الإسلام قبل بدء الأعمال القتالية؛ كي يمنعوا أنفسهم وأموالهم من المسلمين، فأبى بنو المصطلق هذا العرض وأصروا على متابعة العداء؛ مما أدى إلى شن الهجوم من قِبل المسلمين عليهم، وما آلت إليه نتائج هذه المعركة، وهذا ما يُطلق عليه الآن (إنسانية الحرب ومحاولة حل النزاعات بالطرق السلمية).

(٤) تنظيم المعركة الهجومية من قِبل الرسول الكريم ﷺ: عندما صفَّ المسلمين في ترتيب قتالي هجومي، وهو (القتال بالصف)، وقسَّم جيش المسلمين إلى كتيبتين: المهاجرين والأنصار، ولكل عنصر من عناصر ترتيب القتال هذا رايته الخاصة من أجل القيادة والتعارف والسيطرة على القوات والأفراد حين القتال التلاحمي الهجومي، ورأينا أيضًا وضع شعار للمسلمين (يا منصور أمت أمت)؛ من أجل تعارف مقاتلي المسلمين مع بعضهم عند القتال القريب؛ ولئلا يقتل المسلم مسلمًا خطأ ظنًا أنه مشرك من الأعداء.

(٥) المسير المديد والشاق الذي فرضه الرسول ﷺ على جيشه حين العودة: عندما حاول المنافقون إشعال نار الفتنة في صفوف جيش النبي ﷺ في هذه الغزوة، ونشر روح التفرقة، أمر الرسول الكريم ﷺ الجيش بالرحيل في ساعة لم يكن يرتحل فيها كعادته، ومشى بالجيش يومهم حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم التالي حتى آذتهم حرارة الشمس، ثم وقعوا نيامًا بمجرد أن لامست الأرض أجسادهم، وإنما فعل النبي ﷺ ذلك من أجل أن ينسوا حديث الفتنة، وينشغلوا بأمر أهم وهو التعب والجهد وقلة النوم؛ قاصدًا من ذلك المحافظة على الروح المعنوية والكفاءة القتالية لجيش المسلمين.

(٦) إطلاق سراح الأسرى من بني المصطلق وإكرام معاملتهم: فقد أطلق الرسول الكريم ﷺ سراح جميع الأسرى من مقاتلي بني المصطلق كونه أَسَرَ في المعركة جميع رجالهم نتيجة لزواجه ﷺ من أم المؤمنين جويرية بنت الحارث سيد القوم، فأسلم معظمهم من تلقاء نفسه بعد أن لمسوا المعاملة الحسنة والرحمة والشفقة من قِبل المسلمين ونبيهم المصطفى ﷺ». [الغزوات النبوية لكاخيا ٥٧-٥٩].

١٦ ـ ضعف مقاومة بني المصطلق:

يقول د/ قريبي: «أما كون المسلمين لم يلقوا في هذه الغزوة مقاومة شديدة على الرغم من تحشد بني المصطلق واستعدادهم الكامل للمعركة، فلعل هذا يفسر بأمرين:

الأول: علم المسلمين المسبق باحتشاد هذه القبيلة للهجوم على المدينة، واستعداد المسلمين الكامل في هذه الغزوة، وأخذهم الحذر التام.

الثاني: هجوم المسلمين المبكر على هذه القبيلة قبل أن تقوم هي بالهجوم.

ومن المعلوم أن العدو إذا بوغت في عقر داره على حين غفلة، فإنه تتحطم معنوياته وتنهار قواه، ويسهل القضاء عليه، ويصاب بالذعر والاندحار، حتى ولو كان قد أعد عدته، وجمع الجموع، كما حصل لهذه القبيلة، فإنها قد تهيأت عسكريًا وجمعت جموعها لمهاجمة المدينة المنورة، غير أن المسلمين كشفوا القضية قبل أن تقوم هذه القبيلة بالهجوم، فكان المسلمون هم المهاجمين، ولقَّنوا هذا العدو درسًا كان عبرة له، وردعًا لأمثاله، ممن تسول لهم أنفسهم مهاجمة عاصمة الإسلام (المدينة المنورة).

وهذان الأمران: يفسران عدم لقاء المسلمين أية مقاومة تُذكر في هذه الغزوة، إلا ما يحصل عادة من مناوشات ومحاولات يائسة للدفاع عن النفس، وبه يفسر ما ذكرته كتب المغازي من وجود صدام وقتلى، لم يؤد إلى وجود خسائر في صفوف المسلمين، مما يؤيد أن الرسول ﷺ كان قد علم بتبييت هذا العدو الغزو له، فعاملهم بنقيض قصدهم وهجم عليهم قبل أن يهجموا عليه، وهذا يدل على ما كان عليه المسلمون ـ بقيادة نبيهم ﷺ ـ من يقظة كاملة لكل تحركات الأعداء من الداخل والخارج على سواء».
[مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ١٤٨ - ١٤٩].

١٧ ـ أهم نتائج غزوة بني المصطلق:

يقول د/ آل عابد:

(١) فرار الجموع التي جمعها الحارث بن أبي ضرار ليغزو بها المدينة خوفًا من المسلمين من قبل حدوث المعركة.

(٢) ازدادت قوة المسلمين بعد انتصارهم على بني المصطلق، فلم تعد أي قبيلة تفكر في غزو المدينة بمفردها.

(٣) أصبح الخط الرئيس المؤدي إلى مكة سالكًا للمسلمين، فقد كان بنو المصطلق يكونون حاجزًا مانعًا من نفوذ المسلمين إلى مكة.

(٤) وقعت ثلاثة أحداث في هذه الغزوة كانت لها آثار عظيمة هي:

(أ) وقوع جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار في الأسر، وتحمل النبي ﷺ كتابتها، وزواجه منها، كل ذلك كان بركة على قومها حيث أدى إلى فكاكهم من الأسر.

(ب) ما حصل من عبد الله بن أبي رأس النفاق من محاولة إثارة الفتنة بين المسلمين، وتدارك النبي ﷺ للموقف، ونزول القرآن مؤيدًا لزيد بن أرقم ﷺ، كل ذلك كان تربية عملية للمسلمين في كيفية مواجهة المصائب والفتن والخروج منها بسلام.

(ج) حديث الإفك، ونزول القرآن ببراءة السيدة الحَصَان عائشة ﷺ، كل ذلك كان درسًا قاسيًا تلقته الجماعة المسلمة، وخاصة البيت النبوي الطاهر.

(٥) إسلام الحارث بن أبي ضرار، وإسلام بني المصطلق معه، وحسن إسلامهم، فأصبحت ديار بني المصطلق داخلة في نفوذ المسلمين». [حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ لآل عابد ١/ ٣٢١].

١٨ ـ نتائج الحركات العسكرية بعد أُحد:

يقول د/ العمري: «ولا شك أن حركات المسلمين العسكرية في أنحاء شبه الجزيرة العربية وتحديهم لقريش في بدر الموعد، واستمرارهم في الضغط على اقتصاد مكة بالسيطرة على الطرق التجارية، كل ذلك

كان يهيئ ظرفًا مناسبًا لتحالف المشركين مع يهود الذين أجلى المسلمون منهم بني قينقاع وبني النضير عن المدينة، وبقيت قريظة ظاهرها احترام الحلف بينها وبين المسلمين وباطنها الحقد والرغبة في الانتقاض والانتقام، وقد تكشفت حقيقة ذلك فيما حدث في غزوة الأحزاب».

[السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٢/ ٤١٦].

ويقول أ/ الشيباني: «قام الرسول ﷺ بسلسلة من العمليات العسكرية قاد بعضها بنفسه أو أنفذ سرايا يقودها صحابته كعمليات تأديبية ضد القبائل التي تحشدت لغزو المدينة، وكان أن بلغ في إحدى غزواته الطرف الشمال الغربي من الجزيرة العربية لضرب التحشدات المعادية في دومة الجندل؛ لمنع انضمام قبائل الشمال إلى التحالف المعادي للإسلام.

وكان لهذه التحركات العسكرية أن وطدت دعائم الحكم الإسلامي في المدينة، وقوَّت ساعد المسلمين، وشلت حركة قريش التي تميزت في تلك المرحلة بالسلبية، يقول غلوب باشا: (ولعل المفارقة العظيمة بين الجانبين في هذه السنوات من سنوات المعارك تبدو واضحة جلية فيما تميز به المسلمون من نشاط لا حدود له، وما تميزت به قريش من سلبية وجمود، وظل المسلمون يقومون بغزوات وسرايا من هذا النوع، من قاعدتهم في المدينة ضد القبائل البدوية الحليفة لقريش مستعينين فيها بحلفائهم من البدو، أما الأفراد الذين يُظهرون عداء شديدًا للمسلمين أو للنبي ﷺ فكان مصيرهم القتل).

[جان باغوت غلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ١٢٤].

كان الرسول ﷺ يدرك أن معركة ما بين المسلمين والمشركين واقعة ولا مناص؛ ولذلك كانت أعماله تهدف إلى إعطاء الثورة الإسلامية زخمًا وقوة استعدادًا للمستقبل، وإضعاف لجبهة الأعداء، يقول مونتجمري وات: (وهكذا استطاع محمد ﷺ في الفترة الواقعة بين موقعة أحد وحصار المدينة ـ وإن عجز عن منع المكيين من تكوين حلف ضده ـ أن يمنع كثيرًا من القبائل من الانضمام إليهم، وزادت القوى التي كانت في حوزته، ولم يكن يستطيع أن ينظر إلى الهجوم المهدد له بدون قلق ولكنه لم يفقد الأمل).

[منتجمري وات: محمد ﷺ في المدينة ص ٥٣]. [الرسول ﷺ في الدراسات الاستشراقية المنصفة للشيباني ٦٤-٦٥].

المطلب السابع
الدروس الدعوية

١ ـ التعجيل في مواجهة العدو:

يقول د/ زيدان: «ذكرنا أن النبي ﷺ بلغه أن بني المصطلق يجمعون الجموع لقتاله، وأنه ﷺ سار إليهم بجيشه حتى باغتهم على ماء المريسيع.

ويستفاد من هذا أن من حسن التدبير والسياسة الحكيمة لولي الأمر في الدولة الإسلامية أن يباغت العدو إذا انكشفت نيته في محاربة المسلمين كأن يجمع لهم جموعه، وهذا إذا كان للمسلمين القوة الكافية للخروج إلى العدو وقتاله والهجوم عليه.

أما إذا لم يكن للمسلمين القوة الكافية للقيام بما ذكرنا فعلى ولي الأمر فيهم أن يأخذ خطة الدفاع وعدم الهجوم، كما فعله ﷺ في معركة الخندق حيث حفر الخندق حول المدينة وتهيأ للدفاع عنها، ولم يخرج ﷺ لقتالهم لعلمه بضخامة جيش العدو، وعدم القدرة على ملاقاته وجهًا لوجه.

فالمسألة تقديرية متروكة لولي الأمر.

فعلى الدعاة بيان ذلك باعتباره من الفقه الشرعي الذي يشمل مختلف شؤون الحياة.

كما ينبغي للجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن تباغت خصومها، بإفشال خططهم الخبيثة نحوها وذلك بكشف ما يثبت سوء نيتهم وقصدهم الخبيث لإيذاء الدعاة وجماعتهم المسلمة.

ولا ينبغي للجماعة المسلمة الانتظار حتى يباشر أعداؤها فعلًا تنفيذ ما يؤذيهم ويلحق الضرر بهم.

ويعتبر هذا الكشف من جماعة الدعاة لخطط الاعتداء عليها وعلى أفرادها من نوع الهجوم على العدو قبل أنْ يبدأ هو بالهجوم.

كما أن على الدعاة وهم يقومون بتبليغ دعوتهم، إذا شعروا بما يبيت لهم من سوء وكيد، أن يكشفوا ذلك للمسؤولين في منطقتهم، ويبينوا القرائن الدالة على ذلك حتى لا يؤخذ الدعاة على حين غرة، كما لو أراد أحد الدعاة إلقاء محاضرةٍ في منطقة معينة أو في مسجد، علم بأن خصوم الدعاة يبيتون ما يمنع هذه المحاضرة، كأن يجندوا بعض الجهال للتحرش بالداعي، أو بمنع من يريد الحضور لسماع المحاضرة من دخول مكان إلقائها، فعلى الداعي أخذ ما يلزم لمنع الخصوم من تنفيذ ما يريدون، كأن يخبر المسؤول الإداري أو الأمني في المنطقة بذلك؛ ليأخذ ما يلزم لمنع حدوث ذلك.

أما إذا لم يعلم الداعي من خصوم الدعاة النية على إفشال عمله الدعوي، فعليه أن يأخذ الحيطة من كيدهم بمراقبة من يريد الإخلال بجو المحاضرة ومنعه من ذلك». [المستفاد لزيدان ٢/ ٣٠٠-٣٠١].

٢ ـ تحيُّن الفرص في تبليغ الدعوة:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان النبي ﷺ وأصحابه يحرصون كل الحرص على تبليغ دعوة الإسلام لكل إنسان يرونه وإن كان عدوًّا، بل إنهم ينطلقون إلى الناس في مضاربهم ومساكنهم يبلغونهم هذا الدين؛ ذلك لأن وظيفتهم الأولى في الحياة الدنيا نشر الدعوة الإسلامية، وتبليغها للناس كافة، وما شرع الإسلام الجهاد، وما خاض المسلمون هذه الغزوات وغيرها إلا لإزالة العقبات التي تعترض الدعاة حين يريدون تبليغ الدعوة الإسلامية أو تعترض الناس حين تصلهم الدعوة الإسلامية فيؤمنون بها ويستجيبون لأوامرها.

وفي غزوة بني المصطلق وبعد أن اصطف الفريقان للقتال أمر رسول الله ﷺ مناديًا ينادي بني المصطلق يقول لهم: قولوا لا إله إلا الله تمنعوا أموالكم، فأبوا إلا القتال».

[خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٩٧٠]. [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٦].

٣ ـ حرص الأفراد على وحدة الصف وتماسك الجبهة الداخلية:

يقول د/ أبو فارس: «إن بقاء الجماعة المسلمة، وقوة شوكتها، وأثرها على أعدائها، يعتمد على مدى تماسك جبهتها الداخلية، ووحدة صفها، وإن أي توهين لوحدتها يعني ضعفها أمام أعدائها الطامعين.

لقد وقف رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول في غزوة بني المصطلق يبذر بذور الفتنة لتمزيق وحدة الأمة، وإثارة النعرات الجاهلية بعد أن قضى عليها الإسلام، فحاول أن يستغل الخصومة التي حدثت في هذه الغزوة بين غلام من المهاجرين وغلام من الأنصار، ففطن رسول الله ﷺ لذلك وقضى على هذه الفكرة في مهدها.

ويؤخذ من تصرف زيد بن أرقم ﷺ الذي أقره القرآن أنه يجوز نقل الأخبار إلى القيادة المسلمة إذا كانت هذه الأخبار تضر بالمصلحة العامة، وأن كتمانها مع معرفة أثرها السلبي يؤذي المجتمع الإسلامي، ومن ثم فقد ارتكب صاحبها مخالفة شرعية.

نعم لقد كان زيد بن أرقم ﷺ في نقل أخبار الفتنة لرسول الله ﷺ محقًّا ومحققًا لمصلحة المسلمين، وظل وفيًّا لرسول الله ﷺ لا يسمع شيئًا يضر بالمصلحة العامة إلا نقله عنه، ولو كان المتحدث أقرب الناس إليه، هكذا كان منهاجه، لقد كان زيد بن أرقم ﷺ بعد حادثة عبد الله بن أُبي بن سلول يقول: والله لو تكلم أبي عن رسول الله ﷺ لأخبرته. [السيرة ـ لمحمود شاكر ٢/ ٢٧٢].

ومن أخطر الفتن النَّيْل من القيادة المسلمة ومنازعة الأمر أهله، وشق عصا الطاعة.

ولا غرو إذا علمنا أن أعداءنا يحرصون على تصديع صفنا من الداخل، بإثارة الفتن، عن طريق النعرات الإقليمية، والنزعات العرقية، والحركات القومية.

ومن المؤسف حقًّا أن نراهم قد أفلحوا في أيامنا هذه بنشر هذه الحركات الهدامة التي هدمت أول ما هدمت وحدة الأمة الإسلامية ومزقتها إلى دويلات وطوائف متناحرة، وفئات متعصبة لعرق أو جنس أو لون أو إقليم.

هذا هو تخطيط أعدائنا، وفي مقدمتهم لورانس الذي هداه شيطانه بعد طول بحث لاختيار شعار القومية العربية لتمزيق وحدة الأمة الإسلامية والقضاء على دولتها في مطلع القرن العشرين».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٤٠-٤٢].

٤ ـ الزواج وأثره في الدعوة:

يقول د/ الغضبان: «وهذه السمة ذات دلالة واضحة على الاتجاه العام في تأليف قلوب الخصوم وتقريبهم للإسلام، وأن الجهاد السياسي قد يكون من وسائله الناجعة الزواج والمصاهرة من الخصوم.

وما أحوج شباب الإسلام إلى هذه الفقه السياسي والأفق الواسع في فهم طبيعة هذا الدين، إن الشباب المسلم كثيرًا ما يتحمس في قضية التميز والمفاصلة؛ حتى يتحجر على نفسه، وينغلق على ذاته، ويجعل سدًا منيعًا على أفراده، فلا يدخل في الصف الإسلامي أحد ولا يحرص على دخولهم في الأصل، وتسيطر عليه فكرة الحرب والكراهة لأعداء الله، وفكرة الإذلال والإهانة لهم، وينسى أنه داعية قبل كل شيء وأن هدفه الأخير كذلك أن يدخل الناس في دين الله أفواجًا، وبالتالي فلا بد أن يدرك الداعية أن هداية هؤلاء الخصوم ودخولهم في الإسلام هو الهدف الأول، وليس ذبحهم والقضاء عليهم، وأن تآلف كبار الخصوم وربح قلوبهم هو ربح لقلوب أتباعهم جميعًا، ونتمنى أن يفرِّق الأخ بين أساليب التأليف والتحبيب بالإسلام وبين أساليب المداهنة في دين الله والتنازل عن الإسلام في سبيل ذلك.

وشيء آخر ما أحوج دعاة الإسلام إليه، فالزواج نفسه قد مسخ عن مفهومه الأول واقترب في الواقع العملي وفي صفوف شباب الإسلام من الزواج الكهنوتي النصراني، حيث إن التعدد قد أصبح نشازًا في الصف الإسلامي، وأصبح غريبًا غربة اقتراف المنكر، وقادة الدعوة هم المثل المقتدى به في هذه الدعوة فلا بد أن يكونوا نماذج حية في تطبيق هذا الفهم النبوي في جعل الزواج والتعدد وسيلة من وسائل بناء الدعوة وتقريب القلوب والالتحام مع الخصوم والأصدقاء، وما رأيناه من إقدام رسول الله ﷺ على الزواج من زينب وتحطيم عادة التبني من خلال الزواج بمطلقة متبناه وما تحمَّله ﷺ من مواجهة المجتمع الجاهلي الذي يُحرِّم هذا الزواج حتى يزيل الحرج عمليًّا عن المؤمنين في الإقدام على هذا الزواج هو دفع للدعاة الكبار أن يتأسوا برسول الله ﷺ وينقلوا قضية الزواج من مفهومها المحدود حيث البحث عن الجمال والبكر والسن الصغير للارتقاء بها إلى الأفق الواسع الذي يشيع المودة والرحمة بين أبناء الأمة جميعًا ورفع مستوى المرأة الثيب وزوجات الشهداء إلى المستوى الكريم اللائق بهن أنهن محط أنظار القيادة ولسن من المحرومات اللواتي انصرف النظر عنهن فقط لأنهم ثيبات.

إنها مسؤولية جسيمة يضطلع بها الدعاة وأخص بالذكر القيادات لوضع الزواج في وظيفته الاجتماعية العامة وجعل الكفاءة حقيقة من خلال الدين والخلق لا من خلال الجمال والحسب والبكارة، ومن خلال مصلحة الإسلام العليا لا من خلال الرغبة الجنسية المحدودة.

والنظر إلى الزواج على أنه وسيلة هامة من وسائل الدعوة لا على أنه معيق من معيقاتها، ولابد أن تتدرب الأخوات المسلمات كذلك على هذه المعاني ويلجمن أهواءهن وأنانيتهن وغيرتهن أمام

مصلحة الإسلام وعقيدة الإسلام ومصلحة أخواتهن اللاتي لم يكن لهن من ذنب إلا أن فقدن أزواجهن في سبيل الله». [المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٣/ ١٤-١٥].

٥ ـ يعتبر العتق سببًا هامًّا من أسباب انتصار الإسلام وانتشاره:

يقول د/ فيض الله: «فتح الإسلام أبواب العتق على مصارعها، ويسر سبله، وجعله من أعظم أسباب مرضاة الله، كما قال ﷻ: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ [البلد].

على عكس ما كان عليه الحال عند الرومان، والدول التي عاصرت فجر الإسلام وسبقته؛ وذلك في الوقت الذي حدد أسبابه، وضيَّق روافده، وألغى أكثرها، إلا سببًا واحدًا، وهو الاسترقاق في الحروب، ضرورة التماثل في التعامل الخارجي.

وقد أحرزت سياسة تحرير الرقيق نجاحًا كبيرًا في الصف الإسلامي عبر القرون، كما يبدو ذلك لمتتبع تاريخ الإسلام السياسي، وتاريخ رجال الإسلام والموالي، وعادت على المسلمين بحصيد وافر، وحصيلة ضخمة، من الأمم والشعوب والرجال الأفذاذ.

وتعتبر غزوة المريسيع، من الغزوات الفريدة المباركة، التي أسلمت عقبها قبيلة بأسرها، وكان الحادث الذي أسلمت القبيلة من أجله، هو أن الصحابة حرروا وردوا الأسرى الذين أصابوهم إلى ذويهم، بعد أن تملكوهم باليمين في قسم الغنائم، واستكثروا على أنفسهم أن يتملكوا أصهار نبيهم ﷺ، وحيال هذا العتق الجماعي، وإزاء هذه الأريحية الفذة، دخلت القبيلة كلها في دين الله.

وصدقت عائشة ﵂ في قولها: «**فَمَا رَأَيْنَا امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَى قَوْمِهَا مِنْهَا**»، وأية بركة أعظم من إسلام قبيلة بأسرها؟

إن مَرَدَّ هذا الحدث التاريخي وسببه البعيد، هو حب الصحابة النبيَّ ﷺ وتكريمُهم إياه، وإكبارهم شخصه العظيم، وكذلك يؤتي الحب النبوي هذه الثمار الطيبة، ويصنع هذه المآثر الفريدة في التاريخ».

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٩٨-١٩٩].

٦ ـ موقف بني المصطلق بعد الغزوة:

يقول د/ قريبي: «لقد صار بنو المصطلق بعد الغزوة دعاة إلى الله ﷻ، منضمِّين تحت لواء رسول الله ﷺ، واصبحوا محل عناية واحترام بين المؤمنين، إذ كان زواج رسول الله ﷺ منهم رفعة لهم، وإعلاء لشأنهم، ومنزلتهم، فكان لهذه المصاهرة أثرها الفعَّال في نفوس المسلمين، حتى أطلق المسلمون ما بأيديهم من أسرى بني المصطلق، وكبر عليهم استرقاقهم، بعد أن صاروا أصهار رسول الله ﷺ، وقد كان لهذه المعاملة الحسنة من رسول ﷺ وصحبه الكرام لأسرى بني المصطلق أثر جميل في قلوب بني المصطلق،

فسارعوا إلى الإسلام واعتنقوه عن الإيمان راسخ وقناعة كاملة، ورأوا أن مثل هذه الأخلاق الكريمة لا يمكن أن تصدر إلا من نبي؛ لأن القوم يعرفون تاريخ الحروب القبلية وما يحصل فيها من فتك ونهب، وسلب، وكان الشعار المعروف لديهم «**مَنْ عَزَّ بَزَّ**». (١)

وأنه لا مكان في عرف القوى الجاهلية للمغلوب المنهزم، ولا للضعيف المنكوب، فحين غزاهم رسول الله ﷺ وهزمهم، كانت معاملته لهم بعد الهزيمة على خلاف ما كان يتوقعه هؤلاء القوم، فقد عاملهم بالرفق واللين، وتزوج ابنة شريفهم لجبر خاطرها وردَّ اعتبارها إليها وإلى قومها، وانطلق المسلمون يفكون أسراهم حين انتشر خبر زواجه ﷺ من جويرية، فلم يعد يحسن استرقاق أصهار رسول الله ﷺ، وكم كان لهذا الصنيع الإسلامي من جميل الأثر وعظيم الوقع في نفوس بني المصطلق جميعًا، فلم يكن موقف هؤلاء بعد هذه الغزوة إلا الانضمام فورًا لكتائب الإسلام المجاهدة وبذل المهج والأرواح لنشر هذه المبادئ الإسلامية السامية، التي شملتهم بعطفها وحنانها وذاقوا حلاوة المعاملة الإنسانية الرفيعة تحت توجيهات نبيهم ﷺ.

ومما يدل على حسن إسلام هذه القبيلة، وما كان لها من دور فعَّال في سبيل الدعوة إلى الإسلام وإعلاء كلمة الله ما رواه أحمد والبيهقي أن الْحَارِثَ بْنَ أَبِي ضِرَارٍ الْخُزَاعِيِّ قَالَ: قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَدَعَانِي إِلَى الْإِسْلَامِ فَدَخَلْتُ فِيهِ وَأَقْرَرْتُ بِهِ، فَدَعَانِي إِلَى الزَّكَاةِ فَأَقْرَرْتُ بِهَا، وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! أَرْجِعُ إِلَى قَوْمِي فَأَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَدَاءِ الزَّكَاةِ، فَمَنْ اسْتَجَابَ لِي جَمَعْتُ زَكَاتَهُ، فَيُرْسِلُ إِلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ رَسُولًا لِإِبَّانِ (أي وقت كذا، والمراد وقت حصول الثمرة) كَذَا وَكَذَا لِيَأْتِيَكَ مَا جَمَعْتُ مِنْ الزَّكَاةِ، فَلَمَّا جَمَعَ الْحَارِثُ الزَّكَاةَ مِمَّنْ اسْتَجَابَ لَهُ وَبَلَغَ الْإِبَّانُ الَّذِي أَرَادَ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يُبْعَثَ إِلَيْهِ احْتَبَسَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ، فَلَمْ يَأْتِهِ، فَظَنَّ الْحَارِثُ أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ فِيهِ سَخْطَةٌ (أي عدم الرضا علينا) مِنْ الله ﷻ وَرَسُولِهِ ﷺ، فَدَعَا بِسَرَوَاتِ (أشراف) قَوْمِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ وَقَّتَ لِي وَقْتًا يُرْسِلُ إِلَيَّ رَسُولَهُ لِيَقْبِضَ مَا كَانَ عِنْدِي مِنْ الزَّكَاةِ، وَلَيْسَ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ الْخُلْفُ، وَلَا أَرَى حَبْسَ رَسُولِهِ إِلَّا مِنْ سَخْطَةٍ كَانَتْ، فَانْطَلِقُوا فَنَأْتِيَ رَسُولَ الله ﷺ.

---

(١) أي من غلب سلب، وهو مثل، وأول من قاله رجل من طيء يقال له: جابر بن رألان بفتح الراء وسكون الهمزة أحد بني ثُعَل بضم الثاء وفتح العين المهملة، وكان من حديثه أنه خرج ومعه صاحبان له، حتى إذا كانوا بظهر الحيرة، وكان للمنذر ابن ماء السماء يوم يركب فيه، فلا يلقي أحدًا إلا قتله، فلقي في ذلك اليوم جابرًا وصاحبيه فأخذتهم الخيل بالسوية فأتى بهم المنذر، فقال: اقترعوا فأيكم قرع خليت سبيله وقتلت الباقين، فاقترعوا، فقرعهم جابر بن رألان فخلي سبيله وقتل صاحبيه، فلما رآهما يقادان ليقتلا، قال: (من عز بز) فأرسلها مثلًا. مجمع الأمثال للميداني ٢ / ٣٠٧ رقم ٤٠٤٤.

وَبَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ إِلَى الْحَارِثِ لِيَقْبِضَ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِمَّا جَمَعَ مِنْ الزَّكَاةِ، فَلَمَّا أَنْ سَارَ الْوَلِيدُ حَتَّى بَلَغَ بَعْضَ الطَّرِيقِ فَرِقَ فَرَجَعَ، فَأَتَى رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! إِنَّ الْحَارِثَ مَنَعَنِي الزَّكَاةَ، وَأَرَادَ قَتْلِي، فَضَرَبَ رَسُولُ الله ﷺ الْبَعْثَ إِلَى الْحَارِثِ، فَأَقْبَلَ الْحَارِثُ بِأَصْحَابِهِ إِذْ اسْتَقْبَلَ الْبَعْثَ وَفَصَلَ مِنْ الْمَدِينَةِ، لَقِيَهُمْ الْحَارِثُ، فَقَالُوا: هَذَا الْحَارِثُ!! فَلَمَّا غَشِيَهُمْ قَالَ لَهُمْ: إِلَى مَنْ بُعِثْتُمْ؟ قَالُوا: إِلَيْكَ، قَالَ: وَلِمَ؟! قَالُوا: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ بَعَثَ إِلَيْكَ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ، فَزَعَمَ أَنَّكَ مَنَعْتَهُ الزَّكَاةَ، وَأَرَدْتَ قَتْلَهُ! قَالَ: لَا، وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ، مَا رَأَيْتُهُ بَتَّةً، وَلَا أَتَانِي!

فَلَمَّا دَخَلَ الْحَارِثُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «**مَنَعْتَ الزَّكَاةَ وَأَرَدْتَ قَتْلَ رَسُولِي؟!** «قَالَ: لَا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُهُ وَلَا أَتَانِي، وَمَا أَقْبَلْتُ إِلَّا حِينَ احْتَبَسَ عَلَيَّ رَسُولُ رَسُولِ الله ﷺ؛ خَشِيتُ أَنْ تَكُونَ كَانَتْ سَخْطَةً مِنْ الله ﷻ وَرَسُولِهِ.

قَالَ: فَنَزَلَتْ الْحُجُرَاتُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ٦ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضْلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾ [الحجرات]. [مسند الإمام أحمد ٣٠/ ٤٠٣-٤٠٥ عن الحارث بن ضرار ﷺ (١٨٤٥٩) وحسنه الشيخ الأرناؤوط بشواهده دون قصة إسلام الحارث بن ضرار ﷺ، وسنن البيهقي الكبرى ٩/ ٥٤- ٥٥، ومجمع الزوائد للهيثمي ٧/ ٢٣٨-٢٣٩ كتاب التفسير باب سورة الحجرات رقم ١١٣٥٢، وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني، إلا أنه قال الحارث بن سرار بدل ضرار، ورجال أحمد ثقات. وجمع د/ قريبي طرق الحديث وأقوال العلماء عليها وخلص إلى أن الحديث حسن لغيره. مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ١٥٨-١٧٣].

فهذه الرواية توضح حسن إسلام بني المصطلق وحرصهم على طاعة الله ورسوله ﷺ، بأدائهم الزكاة التي يشق على العرب دفعها، مما يدل على حسن إسلامهم، أيضًا تكريم الله بإنزاله قرآنًا في تصديقهم، ويدل الحديث كذلك على ما قامت به هذه القبيلة من خدمات جلية للإسلام، فلقد كان بنو المصطلق عام الفتح ضمن الكتائب الإسلامية الزاحفة نحو مكة، وكان رسول الله ﷺ قد أرسل إليهم بشر بن سفيان وبديل بن ورقاء يستنفرانهم، ولما بلغ رسول الله ﷺ قديدًا من بلاد بني المصطلق عبأ الجيش وعقد الألوية، واجتمع إليه من كان تخلَّف من القبائل، ودخلت خزاعة في خمسمائة مقاتل من ضمنهم بنو المصطلق وعقد لهم رسول الله ﷺ ثلاثة ألوية بقيادة ثلاثة من أبطالهم وهم عمرو بن سالم، وبشر بن سفيان، وأبو شريح الكعبي خويلد بن عمرو، وهكذا ظل بنو المصطلق دعاة إلى الله ﷻ ومجاهدين لإعزاز الإسلام ونصرته، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء».

[مرويات غزوة بني المصطلق لقريبي ١٨٩-١٩٣].